لسليل بيت العلم والتقى

الدكتور محمد علوي المالكي الحسني

خادم العلم الشريف بالبلد الحرام

الناشر: دار جوامع الكلم ـ الدراسة ـ القاهرة

تليفون : 5898029

تأليف
محمد بن علوي المالكي

الناشر
دار جوامع الكلم
17 ش الشيخ صالح الجعفري – الدراسة
القاهــرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

في بلد الله الحرام مكة المكرمة وفي حرم بيت الله الحرام التقيت مع فضيلة الإمام الداعية الشيخ محمد بن علوي المالكي صلة لرحم الصداقة والمودة والعلم مع والدي الشيخ صالح الجعفري إمام الجامع الأزهر وفي جلسة أمتعنا فيها من غزير علمه وحسن بيانه وقوة حجته فاستأذنته في طباعة كتابه (مفاهيم يجب أن تصحح) لما في الكتاب من عظيم الفائدة خاصة في الرد على المنكرين والجاحدين بما وهبه الله من علم أوقفه للدعوة لله والزود عن نبيه وأهل بيته والأولياء والصالحين والعلماء العاملين بدعوة كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما فتح الله به عليه من صدق الكلمة وأصالة الحجة ومنطق الحق – فوافق الشيخ مشكوراً على طباعته مدداً لرسالته ودعوته وإنه لشرف عظيم أن تحظى – دار جوامع الكلم – بموافقة الشيخ وتكريمه لها بطباعة هذه الحجة البالغة النادرة.

والـدعاء إلـى الله عـز وجـل أن يـديم علـى الـشيخ الداعيـة ثـوب الصحة ويكرمه بالتوفيق والنصر والتأييد إن شاء الله تعالى.

عبـــد الغنـــي صـــالح الجعفري

صاحب دار جوامع الكلم للطباعـة والنـشر والتوزيـع بالقاهرة

17 شــارع الــشيخ صــالح الجعفري - الدراسة - القاهرة

ملاحظـة

نظراً للأهمية البالغة لهذا الكتاب الذي بين أيدينا وتعطش الكثير من طلبة العلم وعشاق الحقيقة للاطلاع على محتوى هذا الكتاب فقد قام العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى بطباعة هذا الكتاب باستخدام تقنية الحاسب الآلي ساعياً لنشره عبر الشبكة المعلوماتية (الإنترنت) مبتغياً وجه الله تعالى راجياً عفوه ومغفرته ورحمته وثوابه واجتناب عقابه وراجياً من الله تعالى أن ينال القبول وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناته وفي ميزان حسنات كل من يساهم في نشره.
ولي حق على قارئي هذا الكتاب ألا ينسوني من دعائهم وأن يغفروا لي ما قد يكون وقع في طباعته من سهو أو خطأ في النقل والله من وراء القصد.

تنبيــه

لمعرفة المزيد عن مؤلف الكتاب الشيخ الدكتور محمد بن علوي المالكي الحسني سليل بيت النبوة وللاطلاع على مؤلفاته وبعض من كتاباته يمكنكم زيارة الموقع الخاص بالشيخ على العنوان التالي:
www.mohamadalawi.com

{ بسـم الله الرحـمـن الرحيـم }

تمهيـــد

الحمد لله رب العـالمين والـصلاة والـسلام علـى أشـرف المرسـلين سيدنـا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعـــد ...

فإن الله سبحانـه وتعالى أنعم علينـا بـنعم كثيرة ، أجلهـا وأعظمهـا نعمـة الإسلام ، أكرم بهـا مـن نعمـة ، ومنهـا نعمـة الأمـن التـي نتمتـع فيهـا بالأمان والسكينة والاطمئنان في ربـوع هذه البلاد ، ومنهـا نعمـة تطبيـق الشريعة الإسلامية بإقامـة الحدود والتحـاكم إلـى كتـاب الله وسنـة رسولـه محمــد بــن عبــد الله ρ ، وذلــك بفــضل الله ثــم بفــضل الحكــام الــذين جعلهـم الله حمـاة لهـذه الـبلاد بـلاد الحـرمين الـشريفين ، والـذين وفقهـم الله لخدمــة هــذين الحــرمين وشـرفهم بالقيـام بأمانــة الحراســة والرعايــة والحفظ لهما فبذلوا جهدهم في سبيل ذلك.

ووجـدوا بحمـد الله العـون فـي أبنـاء هـذا الـشعب المخلـص الـوفي الــذي أعطــى البيعــة بــصدق ، وحفــظ العهــد بحــق ورعــى الذمــة فــي الحـضور والغيبـة ، فـنحن علـى ذلـك العهـد قـائمون وبتلـك الذمـة موفـون انطلاقـاً مـن إيماننـا الـصافي ، وعقيـدتنا الـسلفية ومنهجنـا النبـوي ، لأن

هذه البلاد بفضل الله طاهرة من كل رجس سالمة من كل شرك بإخبار رسول الله ρ إذ قال:

((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)) ..

وقال:

((إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرتكم)) - جزيرة العرب ..

وقال:

((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) ..

(ودعاؤه مستجاب) .. وقال:

((إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله .. أما أني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية)) ..

رواه ابن ماجه في كتاب الزهد.

خصوصاً وقد أخبر أن هذه البلاد معقل الإيمان ومرجع أهله وملاذ حملته إذ قال: ((أن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)) .. وفي رواية إن الإيمان ليأرز إلى الحجاز.

ولقد عمل أئمة هذه البلاد وحكامها منذ بداية عهدهم على ترسيخ هذه المعاني وتثبيت ذلك في قلوب الناس ابتداء من جلالة المرحوم الملك عبد العزيز الذي وحد الجزيرة وجمع الكلمة وأزال الفوارق العصبية وهدم الحواجز العنصرية فعاش الناس متحابين يجمعهم مبدأ واحد وتلم شعثهم راية واحدة ، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. عاشوا على هذا المبدأ وإن اختلفت آراؤهم أو تنوعت مشاربهم. فالأصل واحد والولاء واحد ،

والعهد صادق ، والوفاء لازم ، ولكن بعض المتطفلين من الدخلاء والعملاء الأجانب يحبون أن يصيدوا في الماء العكر فيشوهون الصورة ويشيعون الفتنة ويلبسون البرآء الذين لا يعرفون النفاق ثوب السوء وإرادة الشر وهم بهذا يفتحون باباً آخر نحن في غنى عنه ويوجهون الأنظار إلى ما هي غافلة عنه ، ولكن لا بأس ؛ فإن الثقة في الله وحسن الظن في حكامنا أهل العقل والنظر يبعث الطمأنينة في النفوس بأن لا يأخذوا بأقوال الوشاة ودعاة الفتنة من الذين لا هم لهم إلا تفريق كلمة المسلمين.

خصوصاً وأننا في ظل هذه الدولة السنية التي تحمي العقيدة الصحيحة الصافية وتبذل جهدها لنشرها والدعوة إليها في ظل دولة التوحيد التي تنصر العلم وحملته والدعاة إليه وتشجع على البحث العلمي النزيه النظيف في أي مجال كان وعلى أي ميدان ومن أي جهة ، وتكرم في سبيل ذلك أهله ، وتقدم لهم الجوائز السخية ، والأوسمة الرفيعة ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، سعوديين أم غير سعوديين على حد سواء في مجال الدعوة الإسلامية أو البحوث العلمية والتطبيقية لأن المقياس هو العلم والعلم وحده ، والبحث وحده ، وهي بهذا الموقف تعمل على صقل العقول ، وتنوير البصائر ، وتلاقي الأفكار المعبرة عن المفاهيم التي تجيش في خواطر العلماء والباحثين وتفيض على قلوبهم ، وتتواجد في نفوسهم ، فيجدون السبيل ميسراً للتعبير بالكلمة ، ولا شك أن هذا أقوى سبيل لإظهار الحق وإثباته لأن الوضوح والجلاء هو الأساس في بناء المجتمع ، وتلاحم أبنائه ، ولا يتم هذا إلا بالتعبير عن المفاهيم التي يحس بها الإنسان ويراها بالنسبة لأي قضية إسلامية واجتماعية.

وهذه القاعدة هي من أجل الأصول التي ينبغي أن تتبع في الدعوة إلى الإسلام ، لقد أعطى الإسلام الفرصة لأعدائه للنظر والتبصر فقال :

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }.

وأعطى الفرصة لإبداء أي اعتراض أو مفهوم أو برهان في نفس المعارض المعاند فقال :

{ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }.

وطلب من المشركين أن ينظروا ويتفكروا في أمر الدين تارة منفردين وتارة مجتمعين ، وذلك بعقد المجالس والندوات للتشاور في حقيقة الدين وحقيقة الداعي محمد ρ فقال: { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ }.

بل وأعظم من هذا وذلك أنه أعطى الثقة للمعاند ليتقدم ويتكلم ويحس بنفسه وبموقعه وبأنه كائن حي له عقله فلابد أن يعقل وله فهمه فلابد أن يفهم ، وبعد هذا التعقل والتفهم لابد أن نسمع منه ثمرة عقله وثمرة فهمه فقال تعالى: { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }.

هكذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ρ أن يقول للمشركين المبطلين الضالين الذين لا دين لهم صحيح ولا عقيدة معتبرة عند الجدال والمناقشة ، إما أن أكون أنا على هدى أو أنتم ، وإما أن أكون أنا على ضلال أو أنتم.

ومن هذا المنطلق أقدم هذه المفاهيم عن بعض القضايا الإسلامية المختلف فيها بين العلماء والتي لا يستطيع أحد أن يقول إنه اتفقت آراء العلماء فيها على كلمة واحدة.

ولابد من إظهارها ووضعها بين يدي العلماء والباحثين للدراسة والنظر ، فإن كانت صواباً فالحمد لله وذلك من توفيق الله وتسديده وإن كانت خطأ فإنه مني وباجتهادي. وذلك لبيان الحقيقة وتصحيح المفاهيم العامة وليس لنا من وراء ذلك إلا الإصلاح وتوخي الصواب لأننا بشر نصيب ونخطئ وكل منا يؤخذ منه ويرد عليه إلا السيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وكل كتاب قابل للزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والإصلاح والتهذيب إلا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن ادعى سوى ذلك فهو مفتر ممتر.

ونحن نعوذ بالله من أن نكون ممن يتعلم العلم للمماراة أو للمجادلة كما قال ρ : (من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكابر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار). رواه الترمذي.

وكتابنا هذا كغيره من الكتب ، قابل للإصلاح والمراجعة ، وأنا بفضل الله أعترف في كل كتاب أؤلفه بذلك ، وأقول في آخر ما أكتب : إني أسأل الله التوفيق والسداد فيما كتبته فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمن نفسي واجتهادي. وأرجو ممن يطلع عليه أن يرشدني وأن يدلني على أخطائي.

والعلماء لا يزالون يراجع بعضهم بعضاً فيما يكتبون ، فإذا حصل الإقناع والرضا لا يتوقف عن الأخذ به إلا مستكبر ، إلا إذا كان له في ذلك تأويل أو وجهة نظر أو دليل أو شبهة دليل ، فإنه إن لم يلتمس له العذر فأقل ما في الأمر أن يسكت عنه ، والحوار بين العلماء بصورة خاصة يتميز بالموضوعية وروح التفاهم والورع وتقوى الله عز وجل لأن رائدهم جميعاً التوعية والتوجيه والذود عن محارم الله عز وجل والأخذ بيد الناس لكل ما فيه الخير ، فهم ورثة الأنبياء. وإني أسأل الله عز وجل أن يجنبنا مصادر الزلل وأن يهدينا سواء السبيل.

إنه سميع مجيب وبالله التوفيق ..

محمد بن علوي المالكي الحسني

منـهج الكتـــاب

هذا وقد جعلنا هذا الكتاب على ثلاثة أبواب كالآتي:

البـــاب الأول:

مباحـث فــي العقيـدة وفيهـا بيــان فـساد مقــاييس التفكيـر والتـضليل اليوم.

البـــاب الثاني:

مباحـث نبويـــة . وفيهـا خـصائص النبــي ρ وحقيقــة النبــوة وحقيقــة البشرية ومفهوم التبرك بالنبي ρ وآثاره .

البـــاب الثالث:

مباحث مختلفة وفيها بيان الحياة البرزخيـة ومشروعية الزيـارة النبويـة وما يتعلق بها من الآثار والمشاهد والمناسبات الدينية .

✸✸✸

الباب الأول
مباحث في العقـيدة
وفيها بيان فساد مقاييس التكفير والتضليل اليوم

التحذير من المجازفة بالتكفير

يخطئ كثير من الناس – أصلحهم الله – في فهم حقيقة الأسباب التي تخرج صاحبها عن دائرة الإسلام وتوجب عليه الحكم بالكفر ، فتراهم يسارعون إلى الحكم على المسلم بالكفر لمجرد المخالفة حتى لم يبق من المسلمين على وجه الأرض إلا القليل ، ونحن نلتمس لهؤلاء العذر تحسيناً للظن ، ونقول لعل نيتهم حسنة من دافع واجب الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، ولكن فاتهم أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد في أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة وإذ اقتضى الأمر المجادلة يجب أن تكون بالتي هي أحسن كما قال تعالى : { ادْعُ إِلِى سَبيلِ رَبِّكَ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } .. وذلك أدعى إلى القبول وأقرب للحصول على المأمول ومخالفته خطأ وحماقة .

فإذا دعوت مسلماً يصلي ، ويؤدي فرائض الله ، ويجتنب محارمه وينشر دعوته ، ويشيد مساجده ، ويقيم معاهده ، إلى أمر تراه حقاً ويراه هو على خلافك والرأي فيه بين العلماء مختلف قديماً إقراراً وإنكاراً فلم يطاوعك في رأيك فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك فقد قارفت عظيمة نكراء ، وأتيت أمراً إدّاً نهاك عنه الله ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحسنى.

قال العلامة الإمام السيد أحمد مشهور الحداد : وقد انعقد الإجماع على منع تكفير أحد من أهل القبلة إلا بما فيه نفي الصانع القادر جل وعلا أو شرك جلي لا يحتمل التأويل أو إنكار النبوة أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة أو إنكار متواتر أو مجمع عليه ضرورة من الدين .

والمعلوم من الدين ضرورة كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم والبعث في اليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار يكفر جاحده ، ولا يعذر أحد من المسلمين بالجهل به إلا من كان حديث عهد في الإسلام فإنه يعذر إلى أن يتعلمه فإنه لا يعذر بعده.

والمتواتر الخبر الذي يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم إما من حيث الإسناد كحديث :

((من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)) ..

وإما من حيث الطبقة كتواتر القرآن فإنه تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً درساً وتلاوة وحفظاً وتلقاه الكافة عن الكافة طبقة عن طبقة فلا يحتاج إلى إسناد.

وقد يكون تواتر عمل وتوارث كتواتر العمل على شيء من عصر النبوة إلى الآن ، أو تواتر علم كتواتر المعجزات فإن مفرداتها وإن كان بعضها آحاداً لكن القدر المشترك منها متواتر قطعاً في علم كل إنسان مسلم .

وإن الحكم على المسلم بالكفر في غير هذه المواطن التي بيناها أمر خطير ، وفي الحديث (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) .

رواه البخاري عن أبي هريرة .

ولا يصح صدوره إلا ممن عرف بنور الشريعة مداخل الكفر ومخارجه والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغراء .

فلا يجوز لأي إنسان الركض في هذا الميدان والتكفير بالأوهام والمظان دون تثبت ويقين وعلم متين وإلا اختلط سيلها بالأبطح ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلا القليل .

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي مع الإيمان والإقرار بالشهادتين ، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم :

((ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال : لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بالعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار)) .. (أخرجه أبو داود) ..

وكان إمام الحرمين يقول : لو قيل لنا : فصِّلوا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا يقتضي ، لقلنا : هذا طمع في غير مطمع فإن هذا بعيد

المدرك وعر المسلك يستمد من أصول التوحيد ومن لم يحظ بنهايات الحقائق لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق .

لذلك نحذر كل التحذير من المجازفة بالتكفير في غير المواطن السابق بيانها لأنه جد خطير والله الهادي إلى سواء السبيل وإليه المصير .

موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وقد وقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في هذا الميدان موقفاً عظيماً ، قد يستنكره كثير ممن يدعي أنه منسوب إليه ومحسوب عليه ، ثم يكيل الحكم بالتكفير جزافاً لكل من خالف طريقته ونبذ فكرته ، وها هو الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ينكر كل ما ينسب إليه من هذه التفاهات والسفاهات والافتراءات فيقول ضمن عقيدته في رسالته الموجهة لأهل القصيم قال :

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم ، والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أموراً لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي .

فمنها : قوله : إني مبطل كتب المذاهب الأربعة ، وإني أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء ، وإني أدعي الاجتهاد ، وإني خارج عن التقليد ، وإني أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وإني أكفر من توسل بالصالحين ، وإني أكفر البوصيري لقوله : يا أكرم الخلق ، وإني أقول : لو أقدر على هدم قبة رسول الله ρ لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب ، وإني أحرم زيارة قبر النبي ρ ، وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما ، وإني أكفر من حلف بغير الله ، وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي ، وإني أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين ، وأسميه روض الشياطين .

جوابي عن هذه المسائل : أن أقول : { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } ، وقبله من بهت محمداً صلى الله عليه وسلم أنه يسب عيسى بن مريم ، ويسب الصالحين ، فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب ، وقول زور . قال تعالى : { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ } الآية ، بهتوه صلى الله عليه وسلم بأنه يقول : إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار ، فأنزل الله في ذلك : { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا

الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } .

أنظر الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب المنشورة باهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(القسم الخامس ص)

رسالة مهمة أخرى للشيخ في الموضع

هذه رسالة أرسلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى السويدي عالم من أهل العراق ، وكان قد أرسل له كتاباً وسأله عما يقول الناس فيه ، فأجابه بهذه الرسالة : قال فيها :

إن إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلاً عن أن يفتريه مما قلتم : أنني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني ، ويا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل ، وهل يقول هذا مسلم ؟ .

وما قلتم : لو أنني أقدر على هدم قبة النبي ρ لهدمتها ، وفي دلائل الخيرات وحرمته ، وأنهى عن الصلاة على النبي ρ بأي النظم كان ، فهذا من البهتان ، والمسلم لا يظن من قلبه أجلّ من كتاب الله .

وفي صحيفة 64 من نفس الكتاب قال رحمه الله : وما قلتم : أنني أكفر من توسل بالصالحين ، وأكفر البوصيري لقوله : يا أكرم الخلق ، وأنكر زيارة قبر النبي ρ ، وأنكر زيارة قبور الوالدين وغيرهم ، وأكفر من حلف بغير الله .

جوابي على ذلك أقول : سبحانك هذا بهتان عظيم .

أنظر القسم الخامس – الرسائل الشخصية ص37 من مجموعة مؤلفات الشيخ -.

سباب المسلم فسوق وقتاله كفر

إعلم أنّ كراهة المسلمين ومقاطعتهم ومدابرتهم محرّمة وكان سباب المسلم فسوقاً وقتاله كفراً إذا استحل .

وكفى رادعاً في هذا الباب حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه في سريته إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام ، فلما انتهى إليهم تلقوه ، فقال لهم : أسلموا ، فقالوا : نحن قوم مسلمون ، قال : فألقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك ، قال خالد فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا فنزلت فرقة منهم وتفرقت بقية القوم .

وفي رواية انتهى خالد إلى القوم فتلقوه ، فقال لهم ما أنتم أي : أمسلمون ؟ أم كفار ؟ قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنينا المساجد في ساحتنا وأذنا فيها ، وفي لفظه لم

يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فقالوا: صبأنا صبأنا ، قال فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح ، قال : فضعوا السلاح فوضعوا ، فقال : استأسروا فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم في أصحابه فلما كان السحر نادى منادي خالد : من كان معه أسير فليقتله ، فقتل بنو سليم من كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم ، وأرسلوا أسراهم فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل خالد ، قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ، قال ذلك مرتين .

وقد يقال أن خالداً فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام وإنما أنكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم العجلة وعدم التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام نعم عبد الله أخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين .

وكذلك قصة أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه فيما رواه عنه البخاري عن أبي ظبيان قال : سمعت أسامة بن زيد يقول : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصاري عنه وطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا أسامة ! أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله ، قلت : كان متعوذاً ، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت ذلك اليوم ، وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال له : ألا شققت على قلبه ، فتعلم أصادق أم كاذب قال أسامة : لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله .

وقد سئل علي – رضي الله عنه – عن المخالفين له من الفرق أكفار هم ؟ قال : لا ، إنهم من الكفر فروا ، فقيل : أمنافقون هم ؟ فقال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، فقيل : أي شيء هم ؟ قال : قوم أصابتهم الفتنة فعموا وصمُّوا .

❀ ❀ ❀

مقام الخالق ومقام المخلوق

إن الفرق بين مقام الخالق والمخلوق هو الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، ونعتقد أن من خلط بين المقامين فقد كفر والعياذ بالله .

ولكل مقام حقوقه الخاصة ، ولكن هناك أموراً ترد في هذا الباب وخصوصاً فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وخصائصه التي تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم هذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقولهم وضعف تفكيرهم وضيق نظرهم وسوء فهمهم ، فيبادرون إلى الحكم بالكفر على أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام ظناً منهم أن في ذلك تخليطاً بين مقام الخالق والمخلوق ، ورفعاً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم إلى مقام الألوهية ، وإننا نبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك .

وإننا بفضل الله تعالى نعرف ما يجب لله تعالى ، وما يجب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ونعرف ما هو محض حق لله تعالى وما هو محض حق لرسوله صلى الله عليه وسلم من غير غلو ولا إطراء يصل إلى حد وصفه بخصائص الربوبية والألوهية في المنع والعطاء والنفع والضر الاستقلالي [دون الله تعالى] والسلطة الكاملة والهيمنة

الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرد بالكمال ، والجلال والتقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها .
أما الغلو الذي يعني التغالي في محبته وطاعته والتعلق به ، فهذا محبوب ومطلوب كما جاء في الحديث :
((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)) ..
والمعنى أن إطراءه والتغالي فيه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود ، ولو كان معناه غير ذلك لكان المراد هو النهي عن إطرائه ومدحه أصلاً ومعلوم أن هذا لا يقوله أجهل جاهل في المسلمين ، فإن الله تعالى عظم النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه .. نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية ورحم الله القائل حيث قال :
دع ما ادعته النصارى في نبيهم :: واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس في تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك ، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين ، قال الله تعالى : { ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} ، وقال تعالى : { ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ } .

ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام ، فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومس الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم ، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ، ولم نعتقد تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى .

* * *

مقام المخلوق

أما هو صلى الله عليه وسلم فإننا نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم بشر يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التي لا توجب النقص والتنفير كما قال صاحب العقيدة :

وجائز في حقهم من عرض :: بغير نقص كخفيف المرض

وأنه صلى الله عليه وسلم عبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً إلا ما شاء الله ، قال تعالى : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } الأعراف : 188.

وأنه صلى الله عليه وسلم قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة

وكشف الغمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين ، فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً كما قال تعالى : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } .

وقال : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } .

والعبودية هي أشرف صفاته صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول : [إنما أنا عبد] ووصفه الله بها في أعلى مقام { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } ، وقال : { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً } . والبشرية هي عين إعجازه فهو بشر من جنس البشر لكنه متميز عنهم بما لا يلحقه به أحد منهم أو يساويه كما قال صلى الله عليه وسلم عن نفسه في الحديث الصحيح : ((إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني))..

وبهذا ظهر أن وصفه صلى الله عليه وسلم بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة

، وهذا ليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، بل هو عام في حق جميع رسل الله سبحانه وتعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم ، وذلك لأن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية ، وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك ، فمن ذلك قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال : { فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا } سورة هود : 27 .

ومن ذلك قول قوم موسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال : { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } المؤمنون : 47 .

ومن ذلك قول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم بقوله : { مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } سورة الشعراء : 154 .

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله : { قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } سورة الشعراء : 186 .

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد رأوه
بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } ، ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات وخوارق العادات التي تميز بها عن سائر أنواع البشر [1].

فمن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح أنه قال :

((تنام عيناي ولا ينام قلبي)) .

وجاء في الصحيح أنه قال :

((إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي)) ..

وجاء في الصحيح أنه قال :

((أوتيت مفاتيح خزائن الأرض)) .

---

[1] سيأتي بحث خاص في هذا الموضوع بعنوان ((الأنبياء بشر ولكن)) .

وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان قد مات إلا أنه حي حياة برزخية كاملة يسمع الكلام ويرد السلام وتبلغه صلاة من يصلي عليه وتعرض عليه أعمال الأمة فيفرح بعمل المحسنين ويستغفر للمسيئين وأن الله حرم على الأرض أن تأكل جسده فهو محفوظ من الآفات والعوارض الأرضية .

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال :

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ)) . قالوا : يا رسول الله ! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يعني بليت ؟ فقال : ((إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) ..

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه.

وفي ذلك رسالة خاصة للحافظ جلال الدين السيوطي أسماها ((إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء)) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم)) .

قال الهيثمي : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام)) .

رواه أحمد وأبو داود . قال بعض العلماء : رد عليَّ روحي أي نطقي ، وعن عمار بن يسار رضي الله عنه قال :

((قال رسول الله ρ : إن الله وكّل بقبري ملكاً أعطاه الله أسماء الخلائق ، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه ، هذا فلان بن فلان قد صلى عليك)) .

رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه : قال رسول الله ρ :

((إن لله تبارك وتعالى ملكاً أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت ، فليس أحد يصلي عليَّ إلا قال : يا محمد ! صلى عليك فلان بن فلان ، قال : فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً)) ..

رواه الطبراني في الكبير بنحوه [2] .

وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان قد مات إلا أن فضله ومقامه وجاهه عند ربه باق لا شك في ذلك ولا ريب عند أهل الإيمان ، ولذلك فإن التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى إنما يرجع في الحقيقة إلى اعتقاد وجود تلك المعاني واعتقاد محبته وكرامته عند ربه وإلى الإيمان به وبرسالته ، وليس هو عبادة له ، بل إنه مهما عظمت درجته وعلت رتبته فهو مخلوق لا يضر ولا ينفع من دون الله إلا بإذنه .

قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } .

* * *

أمور مشتركة بين المقامين لا تنافي التنــزيه

وقد أخطأ كثير من الناس في فهم بعض الأمور المشتركة بين المقامين (مقام الخالق ومقام المخلوق) فظن أن نسبتها إلى مقام المخلوق شرك بالله تعالى .

ومن ذلك بعض الخصائص النبوية مثلاً [3] ، التي يخطئ بعضهم في فهمها فيقيسونها بمقياس البشرية ، ولذلك يستكثرونها ويستعظمونها

---

[2] كثير من هذه الأحاديث سيأتي مفصلاً في مباحث أخرى من هذه الرسالة لمناسبة أخرى ، والحديث الواحد يستدل به العلماء على أكثر من مسألة في أكثر من موضع واحد .

[3] سيأتي في هذه الرسالة بحث خاص عن الخصائص المحمدية وموقف العلماء منها ، وما نذكره هنا هو من باب التنظير .

علـى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ، ويـرون أن وصـفه بهـا معنـاه وصفه ببعض صفات الألوهيـة ، وهذا جهل محض لأنـه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء وكما يشاء بلا موجب ملزم وإنما هو تفضل على من أراد إكرامه ورفع مقامه وإظهار فضله على غيره من البشر وليس في ذلك انتزاع لحقوق الربوبية وصفات الألوهية ، فهي محفوظة بما يناسب مقام الحق سبحانه وتعالى : وإذا اتصف المخلوق بشيء منها فيكون بما يناسب البشرية من كونها محدودة مكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته لا بقوة المخلوق ولا تدبيره ولا أمره إذ هو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وكم من أمور جاء ما يدل على أنها حق لله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه وتعالى منَّ بها على نبيه صلى الله عليه وسلم وغيره .

وحينئذ فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية أو يجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى.

فمنها : الشفاعة ، فهي لله ، قال الله تعالى : { قُل لِّلَّـهِ الشَّفَاعَةُ } ، وهي ثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم ولغيره من الشفعاء بإذن الله كما جاء في الحديث : ((أوتيت الشفاعة)) ..

وحديث : ((أنا أول شافع ومشفع)) ..

ومنها : علم الغيب ، فهو لله سبحانه وتعالى : { قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّـهُ } ، وقد ثبت أن الله تعالى علّم نبيه من الغيب ما علّمه وأعطاه ما أعطاه { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً {26} إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ } .

ومنها : الهداية فهي خاصة بالله تعالى ، قال الله تعالى : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ } ، وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم له شيء من ذلك فقال : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ، والهداية الأولى غير الهداية الثانية ، وهذا إنما يفهمه العقلاء من المؤمنين الذين يعلمون الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول : وإنك لتهدي هداية إرشاد ، أو أن يقول وإنك لتهدي هداية غير هدايتنا ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له هداية مطلقة بلا قيد ولا شرط ، لأن الموحد منا معشر المخاطبين من أهل الإسلام يفهم معاني الألفاظ ويدرك اختلاف مدلولاتها بالنسبة لما أضيف

إلى الله ، وبالنسبة لما أضيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظير هذا ما جاء في القرآن من وصف رسول الله ρ بالرأفة والرحمة إذ يقول : { بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } ، ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك أيضاً في أكثر من موضع ، فهو سبحانه وتعالى { رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } ، ومعلوم أن الرأفة والرحمة الثانية غير الأولى ، ولما وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك الوصف وصفه به بالإطلاق بلا قيد ولا شرط ، لأن المخاطب وهو موحد مؤمن بالله يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول في وصفه صلى الله عليه وسلم : رؤوف برأفة غير رأفتنا ، ورحيم برحمة غير رحمتنا أو أن يقول : رؤوف برأفة خاصة أو رحيم برحمة خاصة ، أو أن يقول : رؤوف برأفة بشرية ورحيم برحمة بشرية ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له رأفة مطلقة ورحمة مطلقة بلا قيد ولا شرط،فقال:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.

* * *

المجاز العقلي واستعماله

ولا شك أن المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة ، فمن ذلك قوله تعالى : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً } ، فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي لأنها سبب في الزيادة ، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده .

وقوله تعالى : { يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً } ، فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي ، لأن اليوم محل جعلهم شيباً فالجعل المذكور واقع في اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى ، وقوله تعالى : { وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً } ، فإن إسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز عقلي لأنها سبب في حدوث الإضلال ، والهادي والمضل هو الله تعالى وحده . وقوله تعالى حكاية عن فرعون : { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً } ، فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلي لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبني بنفسه ، والباني إنما هم الفعلة ((من العمال)) .

وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها ، وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقي والمجازي فلا حاجة إلى الإطالة بنقلها ، وقال العلماء : إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسناداً مجازياً لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد

وأفعالهم هو الله وحده فهو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض ، بخلاف ما لو اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك .

* * *

ضرورة ملاحظة النسبة المجازية في مقياس الكفر والإيمان

وقد تمسكت طوائف من أهل الضلالات بذيل شبهة ظواهر الألفاظ دون نظر إلى القرائن والمقاصد وبدون نظر إلى الجمع بما لا يؤدي إلى التعارض بين الوارد كالقائلين بخلق القرآن تمسكوا بنحو قوله تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً } ، والقائلين بالقدر تمسكوا بنحو قوله تعالى : { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } ، و { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } إلى غير ذلك ، والقائلين بالجبر تمسكوا بنحو قوله تعالى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } ، { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى } .

وكشف الغطاء عن ذلك أن جميع الأمة غير القدرية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } ، وقوله تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى } ، وإن كان يجوز أن يوصف بها العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب كما في قوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } ، وقوله تعالى : { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } إلى غير ذلك من الآيات المصرحة بإضافة الكسب إلى العبد ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط لأن قدرة الله تعالى في الأزل كانت متعلقة بالعالم قبل اختراعه تعالى لوجوده ، وهي عند اختراعه متعلقة به بنوع آخر من التعلق .

حقيقة نسبة الأفعال للعباد :

ومن هذا يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها . وأفعال العباد نسبتها إليهم على طريق الكسب لا الاختراع لأن الله تعالى هو المخترع لها ، والمقدر لها ، والمريد لها ، ولا يرد أنه كيف يريد ما نهى عنه ، لأن الأمر يغاير الإرادة بدليل أمره جميع الناس بالإيمان ، ولم يرده من أكثرهم لقوله تعالى : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } ، فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة المسبب إلى السبب أو الواسطة ، وهذا لا منافاة فيه ، لأن مسبب الأسباب هو الذي خلق الواسطة وخلق فيها معنى الوساطة ولولا ذلك الذي أودع الله تعالى فيها

لم تصلح أن تكون واسطة وسواء كانت مما لم يودع العقل كالجماد والأفلاك والمطر والنار ، أو كانت عاقلة نم ملك أو إنسي أو جني .

اختلاف المعنى باختلاف النسبة اللفظية :

ولعلك تقول : لا تعقل نسبة الفعل الواحد إلى فاعلين لاستحالة اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، فنقول : نعم ، هو كما قلتم لكن محله إذا لم يكن الفاعل إلا معنى واحد في الاستعمال .

أما إذا كان له معنيان فيكون الاسم مجملاً متردداً بينهما في الاستعمال ، وحينئذ لا يمتنع إطلاقه على كل منهما كما هو المعلوم من الاستعمال في الأسماء المشتركة أو في الحقيقة والمجاز كما يقال : قتل الأمير فلاناً ، ويقال : قتله السياف ، فإطلاق القتل على الأمير بمعنى غير المعنى الذي أطلق به على السياف ، فقولنا : إن الله تعالى فاعل بمعنى أنه المخترع الموجد ، وقولنا : إن المخلوق فاعل فمعناه أنه المحل الذي خلق الله تعالى فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتباط القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع هذا إذا كان المحل عاقلاً وإلا فهو من ترتيب المسببات على أسبابها ، فصح أن يسمى كل ما له ارتباط بقدرة فاعلاً كيفما كان الارتباط ، كما يسمى السياف قاتلاً باعتبار ، والأمير قاتلاً باعتبار ، لأن القتل ارتبط بكليهما ، وإن كان ارتباطه على وجهين مختلفين ساغ تسمية كل منهما فاعلاً ، فمثل ذلك اعتبار المقدورات بالقدرتين ، والدليل على جواز هذه النسبة وتطابقها نسبة الله تعالى الأفعال إلى الملائكة تارة وتارة إلى غيرهم من العباد ، ومرة أخرى نسبها بعينها إلى نفسه ، فقال تعالى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } ، وقال تعالى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } ، وقال تعالى : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ } بالإضافة إلينا ، ثم قال تعالى : { أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً } الآيات ، وقال تعالى : { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } ، ثم قال تعالى : { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا } ، والنافخ جبريل عليه السلام ، وقال تعالى : { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } ، والقارئ الذي يسمع النبي قراءته جبريل ، وقال تعالى : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ } .. { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى } ، فنفى عنهم القتل وأثبته لنفسه ، ونفى عنه الرمي وأثبته لنفسه ، وليس المراد نفي الحس من قتلهم الكفار ورميه لهم عليه السلام بالحصباء ولكن المعنى أنهم ما قتلوهم

ولا رموهم بالمعنى الذي يكون الرب به قتلهم ورماهم وهو الاختراع والتقدير إذ هما معنيان مختلفان ، وتارة ينسب الفعل إليهما معاً كقوله تعالى :{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ}.

وروت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق الجنين يبعث ملكاً فيدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسداً ، فيقول : يا رب ! أذكر أم أنثى ؟ أسوي أم معوج ؟ فيقول تعالى ما شاء ، ويخلق الملك ، وفي لفظ آخر : فيصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة .

فإذا فهمت هذا اتضح لك أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ولا تناقض بينهما ، ولذلك الفعل ينسب تارة للجماد كما في قوله تعالى : { تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا } ، فالشجرة لا يتأتى منها الإتيان بثمرها ، وكما في قوله صلى الله عليه وسلم للذي ناوله تمرة : خذها لو لم تأتها لأتتك .. كما في الطبراني وابن حبان ، فإضافة الإتيان تختلف إلى الرجل وإلى التمرة ، فمعنى إتيان التمرة غير معنى إتيان الرجل ، فالإتيان منهما مجازان مختلفان في الاعتبار ، فمجاز إطلاق الإتيان على الرجل بمعنى أن الله خلق فيه القدرة والإرادة للإتيان بها .

وإتيان التمرة بمعنى أن الله يسبب من يأتي بها ، والحقيقة إنما هي إضافة الإتيان إلى الله تعالى في كل منهما ، ولأجل اختلاف الاعتبار في الوسائط تارة تكون ملاحظة الوسائط في الأفعال كفراً كما في جواب قارون لموسى عليه السلام بقوله : { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي } ، وكما في حديث : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب ، وهذا الكفر باعتبار أن الواسطة مؤثرة ومخترعة ، قال النووي : اختلف العلماء في كفر من قال : مطرنا بنوء كذا على قولين :

أحدهما

هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام ، قالوا : وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره ، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء ، والشافعي منهم وهو ظاهر في الحديث ، قالوا : وعلى هذا لو قال : مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له

وعلامة اعتباراً بالعادة ، فكأنه قال : مطرنا في وقت كذا ، فهذا لا يكفر .

واختلفوا في كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها ، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره ، فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ، ومن سلك مسلكهم .

والقول الثاني :

في أصل تأويل الحديث : أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب ، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب ، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب : أصبح من الناس شاكر وكافر ، وفي الرواية الأخرى : ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين . فقوله : بها يدل على أنه كفر النعمة ، والله أعلم اهـ .

فأنت تراه قال باتفاق العلماء على أن من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر إلا إذا اعتقد أنها هي الفاعلة المدبرة المخترعة ، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار بحيث أن الواسطة علامة أو ظرف الخلق المقدور فيها فلا كفر ، بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظتها كقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه)) .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

((من لم يشكر الناس لم يشكر الله)) ..

وذلك لأن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار لا ينافي رؤية المنة لله سبحانه وتعالى ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم بل وأثابهم عليها وهو الباعث لإرادتهم لها . والخالق لقدرتهم عليها كقوله تعالى : { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ، وقوله تعالى : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } ، وقال تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } الآية .

وإذا ظهر لك أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت الفهم الصحيح السليم .

فالمعاني أوسع من العبارات ، والصدور أوسع من الكتب المؤلفات ، ولو وقفنا مع حقيقة اللفظ دون المجاز ، لم نجد إلى الجمع بين النصوص أو التفرقة من جواز ، ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى به عن إبراهيم عليه السلام من قوله : { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ } ، أترى أن إبراهيم يشرك مع الله تعالى الجماد وهو القائل : { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } ، والأمر الجامع في ذلك أن من أشرك مع الله جل جلاله غيره في الاختراع والتأثير فهو مشرك سواء كان الملحوظ معه جماداً أو آدمياً نبياً أو غيره ، ومن اعتقد السببية في شيء من ذلك اطردت أو لم تطرد ، فجعل الله تعالى لها سبباً لحصول مسبباتها ، وأن الفاعل هو الله وحده لا شريك له فهو مؤمن ، ولو أخطأ في ظنه ما ليس بسبب سبباً لأن خطأه في السبب لا في المسبب الخالق المدبر جل جلاله وعظم شأنه .

* * *

التعظيم بين العبادة والأدب

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التعظيم وحقيقة العبادة ، فيخلطون بينهما خلطاً بيناً ويعتبرون أن أي نوع من أنواع التعظيم هو عبادة للمعظم فالقيام وتقبيل اليد وتعظيم النبي ρ بسيدنا ومولانا ، والوقوف أمامه في الزيارة بأدب ووقار وخضوع ، كل ذلك غلو عندهم يؤدي إلى العبادة لغير الله تعالى ، وهذا في الحقيقة جهل وتعنت لا يرضاه الله ولا رسوله وتكلف تأباه روح الشريعة الإسلامية .

فهذا آدم أول الجنس الإنساني ، وأول عباد الله الصالحين من هذا الجنس أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً لما آتاه من علمه وإعلاماً لهم باصطفائه من بين سائر مخلوقاته ، قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } إلى آخر الآية . وفي آية أخرى قال : { أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } .. وفي آية أخرى : { فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } .. فالملائكة عليهم السلام عظموا من عظمه الله ، وإبليس تكبر أن يسجد لمن خلق من طين ، فهو أول من قاس الدين برأيه وقال : أنا خير منه ، وعلل ذلك بعلة خلقه من نار وخلق آدم من طين وأنف من تكرمته عليه واستنكف من السجود له ، فهو أول المتكبرين ولم يعظم من عظمه الله ، فطرد من رحمة الله لتكبره على هذا العبد الصالح وهو عين التكبر على الله لأن السجود إنما هو لله إذ هو بأمره ، وإنما جعل السجود له تشريفاً وتكريماً له عليهم وكان من الموحدين فلم ينفعه توحيده.

ومما جاء في تعظيم الصالحين قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام : {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً} تحية وتكريماً وتشريفاً وتعظيماً له عليهم، والسجود من إخوته له إلى الأرض يدل عليه قوله تعالى : وخروا . ولعله كان جائزاً في شرعهم ، أو

كسجود الملائكة لآدم عليه السلام تشريفاً وتعظيماً وامتثالاً لأمر الله تأويلاً لرؤيا يوسف إذ رؤيا الأنبياء وحي .

أما نبينا محمد ρ فقد قال الله تعالى في حقه : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } ، وقال:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ، وقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } الآيات الثلاث . وقال تعالى : { لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً } ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام ، قال سهل بن عبد الله : لا تقولوا قبل أن يقول ، أي لا تتكلموا قبله ، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه ، وأن يفتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ، ولا يسبقوه به ، ثم وعظهم وحذرهم من مخالفة ذلك فقال : { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، قال السلمي : اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته ، إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ،وقيل: كما ينادي بعضهم بعضاً باسمه ، قال أبو محمد مكي : أي لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به يا رسول الله ، يا نبي الله ، وهذا كقوله في الآية الأخرى : { لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً } ، وقال غيره : لا تخاطبوه إلا مستفهمين ، ثم خوفهم الله تعالى بحبوط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه .. والآية نزلت في جماعة أتوا النبي ρ فنادوه يا محمد أخرج إلينا ، فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون .

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ρ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ

عينـي منـه . رواه مـسلم فـي الـصحيح ، كتـاب الإيمـان ، (بـاب كـون الإسلام يهدم ما قبله) .

وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله ρ كـان يخـرج علـى أصـحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلـوس ، فيهم أبـو بكـر وعمـر ، فـلا يرفـع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنهمـا كانـا ينظـران إليـه وينظـر إليهمـا ، ويبتسمان إليه ويبتسم لهمـا .

وروى أسامة بن شريك قـال : أتيـت النبـي ρ وأصـحابه حولـه كأنمـا علـى رؤوسـهم الطيـر ، وفـي صـفته إذا تكلـم أطـرق جلـساؤه كأنمـا علـى رؤوسهم الطير ، وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عـام القضية إلى رسول الله ρ ورأى من تعظيم أصحابه لـه مـا رأى وأنـه لا يتوضـأ إلا ابتـدروا وضـوءه وكـانوا يقتتلـون عليـه ولا يبـصق بـصاقاً ، ولا يتـنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تـسقط منـه شـعره إلا ابتـدروها وإذا أمـرهم بـأمر ابتـدروا أمـره وإذا تكلـم خفـضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمـاً لـه ، فلمـا رجـع إلـى قـريش قـال : يـا معشر قـريش إنـي جئـت كـسرى فـي ملكـه وقيـصر فـي ملكـه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، وفي رواية : إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمـداً أصحابه ، وقد رأيت قومـاً لا يسلمونـه أبداً.

وأخـرج الطبرانـي وابـن حبـان فـي صـحيحه عـن أسـامة بـن شـريك رضي الله عنه قال:

((كنـا جلوسـاً عنـد النبـي ρ كأنمـا علـى رؤوسـنا الطيـر ، مـا يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أنـاس فقـالوا : مـن أحـب عبـاد الله إلـى الله تعالـى ؟ قال : أحسنـهم خلقـاً)) .. كذا في الترغيب (ج4 ص187) ، وقال : رواه الطبراني برجال محتج بهم في الصحيح .

وأخرج أبو يعلى وصححه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال :

((لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ρ عن الأمر ، فأؤخره سنتين من هيبته)) .. وأخرج البيهقي عن الزهري قال :

((حدثني من لا أتهم من الأنصار أن رسول الله ρ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدروا نخامته فمسحوا بها وجوههم وجلودهم،فقال رسول الله ρ: لم تفعلون هذا ؟ قالوا : نلتمس به البركة ، فقال رسول الله ρ : من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره)) ..

كذا في الكنز (ج8 ص228).

والحاصل أن هنا أمرين عظيمين لابد من ملاحظتهما ، أحدهما : وجوب تعظيم النبي ρ ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثاني إفراد الربوبية واعتقاد أن الله تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه ، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك ـ كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة ، ومن قصر بالرسول ρ عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر .

وأما من بالغ في تعظيمه ρ بأنواع التعظيم ، ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جناب الربوبية والرسالة جميعاً ، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط .

وإذا وجد في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلي ، ولا سبيل إلى تكفيرهم ، إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة .

* * *

الواسطة الشركية

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة الواسطة فيطلقون الحكم هكذا جزافاً بأن الواسطة شرك ، وأن من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله ، وأن شأنه في هذا شأن المشركين القائلين : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } ، وهذا كلام مردود ، والاستدلال بالآية في غير محله ، وذلك لأن هذه الآية الكريمة صريحة في الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى وإشراكهم إياها في دعوى الربوبية على أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله .

وهنا مهمة لابد من بيانها وهي أن هذه الآية تشهد بأن أولئك المشركين ما كانوا جادين فيما يحكي ربنا عنهم من قولهم مسوغين عبادة الأصنام : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإنهم لو كانوا صادقين في ذلك لكان الله أجل عندهم من تلك الأصنام ، فلم يعبدوا غيره ، وقد نهى الله المسلمين من سب أصنامهم بقوله تعالى : {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } .

روى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه أنه قال : ((كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عز وجل ، فأنزل الله : { وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، هذا سبب نزول هذه الآية . فهي إذن تنهى المؤمنين نهي تحريم شديد أن يقولوا كلمة نقص في الحجارة التي كان يعبدها الوثنيون بمكة

المشرفة ، لأن قول تلك الكلمة يتسبب عنه غضب أولئك الوثنيين غيرة على تلك الأحجار التي كانوا يعتقدون من صميم قلوبهم أنها آلهة تنفع وتضر ، وإذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون ربهم الذي يعبدونه ، وهو رب العالمين ، ويرمونه بالنقائص وهو المنزه عن كل نقص ، ولو كانوا صادقين بأن عبادتهم لأصنامهم تقربهم إلى الله زلفى ما اجترؤا أن يسبوه انتقاماً ممن يسبون آلهتهم فإن ذلك واضح جداً في أن الله تعالى في نفوسهم أقل من تلك الحجارة .

وقل ذلك أيضاً في قوله تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } ، فإنهم لو كانوا يعتقدون حقاً أن الله تعالى الخالق وحده وأن أصنامهم لا تخلق ، لكانت عبادتهم لله وحده دونها أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة ، وهل هذا يتفق مع شتمهم له عز وجل غيرة على حجارتهم وانتقاماً لها منه سبحانه وتعالى ؟ إن البداهة تحكم أنه لا يتفق أبداً ، وليست الآية التي معنا وحدها تدل على أن الله تعالى أقل عند أولئك المشركين من حجارتهم بل لها أمثال ! منها قوله تعالى:{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} ، فلولا أن الله تعالى أقل في نفوسهم من تلك الحجارة ما رجحوها عليه هذا الترجيح الذي تحكيه هذه الآية واستحقوا عليه حكم الله عليهم بقوله : {سَاء مَا يَحْكُمُونَ }.

ومن هذا القبيل قول أبي سفيان رضي الله عنه قبل إسلامه : ((أعْلُ هُبل)) كما رواه البخاري ينادي صنمهم المسمى بهُبل أن يعلو في تلك الشدة رب السماوات والأرض ويقهره ليغلب هو وجيشه جيش المؤمنين الذي يريد أن يغلب آلهتهم ، هذا مقدار ما كان عليه أولئك المشركون مع تلك الأوثان ومع الله رب العالمين .

فليعرف هذا حق المعرفة فإن كثيراً من الناس لا يفهمونه ويبنون عليه ما يبنون .

ألا تـرى أن الله لمـا أمـر المـسلمين باسـتقبال الكعبـة فـي صـلاتهم توجهوا بعبادتهم إليها واتخذوها قبلة ؟ وليست العبادة لها وتقبيل الحجر الأسود إنمـا هو عبوديـة لله تعالى ، واقتداء بـالنبي صلى الله عليـه وآلـه وصحبه وسلم ، ولو أن أحداً من المسلمين نوى العبادة لهما لكان مشركاً كعبدة الأوثان .

فالواسطـة لابد منهـا وهي ليسـت شـركاً ولـيس كـل مـن اتخذ بينــه وبين الله

واسطة يعتبـر مـشركاً وإلا لكـان البـشر كلهـم مـشركين بـالله لأن أمـورهم جميعـاً تنبنـي علـى الواسطة ، فـالنبي ρ تلقـى القـرآن بواسـطة جبريـل ، فجبريل واسطة للنبـي ρ وهو ρ الواسطة العظمـى للـصحابة رضـي الله تعالى عنـهم ، فقد كـانوا يفزعون إليـه في الشدائد فيشكون إليـه حـالهم ويتوسـلون بـه إلـى الله ويطلبـون منـه الدعاء فمـا كـان يقـول لـهم أشركتم وكفرتم فإنـه لا يجـوز الشكوى إلـيَّ ولا الطلب منـي بل علـيكم أن تذهبوا وتدعوا وتسألوا بأنفسكم فإن الله أقرب إليكم منـي ، لا بـل يقـف ويـسأل مـع أنـهم يعلمـون كـل العلـم أن المعطـي حقيقـة هو الله وأن المـانـع والباسـط والـرازق هـو الله ، وأنــه ρ يعطـي بـإذن الله وفـضله ، وهو الذي يقول : ((إنما أنـا قاسم والله معط)) ، وبـذلك يظهـر أنــه يجـوز وصف أي بشر عادي بأنـه فرج الكربـة وقضى الحاجـة أي كـان واسطة فيهـا فكيـف بالـسيد الكـريم والنبـي العظـيم أشـرف الكـونين وسـيد الثقلـين وأفضل خلق الله على الإطلاق ؟ ألم يقل النبي ρ كمـا جـاء فـي الـصحيح :

((من فرج عن مؤمن كربـة من كرب الدنيا)) الخ ؟

فالمؤمن مفرج الكربـات .

ألم يقل صلى الله عليه وسلم :

((من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه فإن رجح وإلا شفعت له))؟

فالمؤمن قاض للحاجات .

ألم يقل في الصحيح :

((من ستر مسلماً)) .. الحديث ؟

ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم :

((أن لله عز وجل خلقاً يفزع إليهم في الحوائج)) ؟.

ألم يقل في الصحيح :

((والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه)) ؟.

ألم يقل في الحديث :

((من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وتسعين حسنة)) ؟ رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي .

فالمؤمن هنا فرج وأعان وأغاث وقضى وستر وفزع إليه مع أن المفرج والقاضي والستار والمعين حقيقة هو الله عز وجل ، لكنه لما كان واسطة في ذلك صح نسبة الفعل إليه .

وقد جاء في الأحاديث النبوية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة تفيد أن الله سبحانه وتعالى يدفع العذاب عن أهل الأرض بالمستغفرين وعمار المساجد وأن الله سبحانه وتعالى يرزق بهم أهل الأرض وينصرهم ويصرف عنهم البلاء والغرق .

روى الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن مانع الديلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال : قال النبي ρ :

((لولا عباد لله ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً ثم رضّ رضا)) ..

وروى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ρ قال: **((هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)) ..**

وروى الترمذي وصححه والحاكم عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((لعلك ترزق به)) ..

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ρ قال :

((إن لله عز وجل خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع إليهم الناس في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله تعالى)) ..

رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم والقضاعي وهو حسن .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ρ :

((إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم)) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ :

((إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه بلاء)) ..

ثم قرأ ابن عمر : { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ } رواه الطبراني . وعن ثوبان رفع الحديث قال :

((لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله)) ..

وعن عبادة بن الصامت قال : قال ρ :

((الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون)) . قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم .. رواه الطبراني .

ذكر هذه الأحاديث الأربعة الحافظ ابن كثير في التفسير عند قوله تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ } – في سورة البقرة – وهي صالحة للاحتجاج ، ومن مجموعها يصير الخبر صحيحاً .

وعن أنس قال : قال رسول الله ρ :

((لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن ، فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر)) .. رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن . (كذا في مجمع الزوائد ج62/10) .

الواسطة العظمى :

وفي يوم المحشر الأعظم الذي هو يوم التوحيد ويوم الإيمان يوم يبرز العرش ، يظهر فضل الواسطة العظمى صاحب اللواء المعقود والمقام المحمود والحوض المورود الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا تضيع ضمانته عند من وعده بأن لا يخيب ظنه ولا يخزيه أبداً ولا يحزنه ولا يسوؤه في أمته حيث يتوجه الخلق إليه ويستشفعون به فيقوم فلا يرجع إلا بخلعة الإحسان وتاج الكرامة المتمثل في قول الله له : يا محمد إرفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط .

* * *

ثوب الزور

الأدعياء والمتطفلون على بساط الحقيقة كثيرون ، والحقيقة بريئة منهم ولا تعترف لهم بصحة نسبتهم إليها .

وكل يدعي وصلاً بليلى :: وليلى لا تقر لهم بذاكا

هذا بالإضافة إلى أنهم يشوهون الصورة ويسيئون السمعة وهؤلاء الأدعياء يصدق عليهم الوصف النبوي الدقيق الذي يقول :

((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)) ..

ولقد بلينا معشر المسلمين بكثر من هؤلاء ، يعكرون صفو الأمة ويفرقون بين الجماعات ويورثون العداوة بين الأخ وأخيه والولد وأبيه .

ويدخلون إلى تصحيح مفاهيم الإسلام من باب العقوق ويسلكون في التمسك بآثار السلف سبيل الجحود ويستبدلون الحكمة والموعظة الحسنة والرأفة والرحمة بالغلظة والجفوة وسوء الأدب وقلة الذوق . إن من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى التصوف وهم أبعد الناس عن حقيقته وجوهره فشوهوا صورته ودنسوا كرامته وأفسدوا سيرته وجروا إليه وإلى أئمته من السادة العارفين والأساتذة المربين الانتقاد اللاذع .

إننا لا نعرف التصوف خرافات وأباطيل ودجلاً وشعوذة .

إننا لا نعرف التصوف نظريات فلسفية أو أفكاراً أجنبية أو عقائد شركية حلولية أو اتحادية .

إننا نبرأ إلى الله من هذا كله ونعتبر أن كل ما يخالف الكتاب والسنة ولا يقبل التأويل هو مكذوب دخيل وملصق بأيد آثمة ونفوس ضعيفة .

إننا نعرف التصوف مدارس علمية ومعارف فكرية وهي كلها بمناهجها وبرامجها وطرقها تمثل الأفق الأعلى للفكرة الإسلامية والوجه الأكمل لآدابنا ومثالياتنا ، تمثل الكمال في الإيمان والكمال في كل شأن من شؤون الحياة ، تمثل الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية إنه الصدق والأمانة والوفاء والإيثار والنجدة والكرم ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر

والتسابق إلى فعل الخير التي تمثل الخلق القويم الصحيح .

وبهذه السيرة العاطرة والخلق الزكي ظهرت بطولات الصدر الأول ورجاله وأئمته وأبطاله فبرزت لنا الشخصية الإسلامية في أبهى حلة

وأكمل صفة وأعلى وأطهر نموذج ، وروى لنا عنها التاريخ حديث المجد والفخر والسيادة والعزة والجهاد والنضال ودروس الحضارة الإسلامية .

ومن هنا ندرك بيقين أن النهضات الكبرى لا تنبني إلا على رسالات الروح وإلهامات الإيمان ، ولا تقوم إلا على الأخلاق الصاعدة القوية التي تستمد مثلها من العقائد المقدسة .

إن الصفات الخلقية والنفسية والروحية هي رأس مال الشعوب وهي المدخرات العظمى التي تصنع الأمم وتدفع بالركب البشري إلى غاياته العليا ، والناظر في سير السلف الصالحين والسادات العارفين من القوم يرى كيف أن هذه المثل والمبادئ كانت سبباً مباشراً لانتفاضات صريحة مشهودة مشهورة في التاريخ الإسلامي ، ولم يكن لهم من النفوذ والقوة إلا إيمان هو أعلى صور الإيمان ، إيمان حار متقد حي يرتكز على الشوق والمحبة ، إنه إيمان يطلق في قلوب أتباعه الشعلة المتوهجة المتطلعة دائماً إلى الله ، ويرى كيف أن الرجل منهم يعيش دائماً في مقام الإحسان يرى الله في كل شيء ، ويراقبه في كل حركة من حركاته ، بل يراقبه مع كل نفس من أنفاسه من غير حلول ولا اتحاد ولا إلحاد إنه إيمان يبعث اليقظة الشاملة في الحياة ، ويضفي عليها الإحساس العميق بالربانية السارية في الكون ، والتي تعيش في أعماقها وتعلم خواطر القلب وهمسات النجوى وخائنة العين وما تخفي الصدور .

بين نعمت البدعة وبئست البدعة

وإن من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى السلف الصالح فقاموا يدعون إلى السلفية في همجية جهلاء وعصبية عمياء وبعقول

عقيمة وأفهام سقيمة وصدور ضيقة تحارب كل جديد وتنكر كل مخترع مفيد بدعوى أنه بدعة وأن كل بدعة ضلالة دون التفريق بين أنواع البدعة مع أن روح الشريعة الإسلامية توجب علينا أن نميز بين أنواع البدعة وأن نقول : إن منها البدعة الحسنة ومنها البدعة السيئة ، وهذا ما يقتضيه العقل النير والنظر الثاقب .

وهذا ما حققه علماء الأصول من سلف هذه الأمة رضي الله عنهم كالإمام العز ابن عبد السلام والنووي والسيوطي والمحلى وابن حجر .

والأحاديث النبوية يفسر بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً ، ولابد من النظر إليها نظرة واحدة متكاملة ، ولابد من تفسيرها بروح الشريعة ومفهومها المتفق عليه بين أهل النظر .

ولذا نجد كثيراً من الأحاديث الشريفة تحتاج في تفسيرها إلى عقل عاقل وفكر ثاقب وفهم لائق وقلب ذائق يستمد من بحر الشريعة الغراء ويراعي أحوال الأمة وحاجتها ويسايرها في حدود القواعد الشرعية والنصوص القرآنية النبوية التي لا يجوز الخروج عنها .

ومن أمثلة ذلك هذا الحديث : كل بدعة ضلالة – فلابد من القول : أن المراد بذلك البدعة السيئة التي لا تدخل تحت أصل شرعي .

وهذا التقييد وارد في غير هذا الحديث كحديث :

((لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)) ..

فهذا الحديث مع أنه يفيد الحصر في نفي صلاة جار المسجد إلا أن عمومات الأحاديث تفيد تقييده بأن لا صلاة كاملة .

وكحديث :

((لا صلاة بحضرة الطعام)) .. قالوا : أي صلاة كاملة .

وكحديث :

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) ..
قالوا : أي إيماناً كاملاً .
وكحديث :
((والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من لم يأمن جاره بوائقه)) .
وكحديث :

((لا يدخل الجنة قتات)) .. ((ولا يدخل الجنة قاطع رحم)) ..
((وعاق لوالديه)) ..
فالعلماء قالوا : إنه لا يدخل دخولاً أولياً أو لا يدخل إذا كان مستحلاً لذلك الفعل .
الحاصل أنهم لم يجروه على ظاهره وإنما أولوه بأنواع التأويل .
وحديث البدعة هذا من هذا الباب فعمومات الأحاديث وأحوال الصحابة تفيد أن المقصود به البدعة السيئة التي لا تندرج تحت أصل كلي .
وفي الحديث :
((من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)) .
وفي الحديث :
((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)) ..
ويقول عمر في صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه .
هذا وبالله التوفيق ..

تفريق ضروري بين البدعة الشرعية واللغوية

ينتقد بعضهم تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ، وينكر على من يقول ذلك أشد الإنكار ، بل ومنهم من يرميه بالفسق والضلال ، وذلك لمخالفة صريح قول الرسول ρ : [كل بدعة ضلالة] . وهذا اللفظ صريح في العموم وصريح في وصف البدعة بالضلالة ، ومن هنا تراه يقول : فهل يصح بعد قول المشرع صاحب الرسالة : أن كل بدعة ضلالة يأتي مجتهد أو فقيه مهما كانت رتبته فيقول : لا – لا – ليست كل بدعة ضلالة ، بل بعضها ضلالة وبعضها حسنة وبعضها سيئة ، وبهذا المدخل يغترّ كثير من الناس فيصيح مع الصائحين وينكر مع المنكرين ويكثر سواد هؤلاء الذين لم يفهموا مقاصد الشريعة ، ولم يذوقوا روح الدّين الإسلامي .

ثم لا يلبث إلا يسيراً حتى يضطر إلى إيجاد مخرج يحل له المشاكل التي تصادمه ، ويفسر له الواقع الذي يعيشه ، إنه يضطر إلى اللجوء إلى اختراع وسيلة أخرى ، لولاها لما يستطيع أن يأكل ولا يشرب ولا يسكن ، بل ولا يلبس ولا يتنفس ولا يتزوج ولا يتعامل مع نفسه ولا أهله ولا إخوانه ولا مجتمعه ، هذه الوسيلة هي أن يقول باللفظ الصريح : إن البدعة تنقسم إلى بدعة دينية ودنيوية ، يا سبحان الله – لقد أجاز هذا المتلاعب لنفسه أن يخترع هذا التقسيم أو على الأقل أن يخترع هذه التسمية ولو سلّمنا أن هذا المعنى كان موجوداً منذ عهد النبوة لكن هذه التسمية : دينية ودنيوية لم تكن موجودة قطعاً في عهد التشريع النبوي فمن أين جاء هذا التقسيم ؟ ومن أين جاءت هذه التسمية المبتدعة ؟ .

فمن قال : إن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة لم يأت من الشارع نقول له : وكذا تقسيم البدعة إلى دينية غير مقبولة ، ودنيوية مقبولة هو عين الابتداع والاختراع .

فالشارع يقول : (كل بدعة ضلالة)هكذا بالإطلاق ، وهذا يقول : لا – لا ليست كل بدعة ضلالة بالإطلاق ، بل إن البدعة تنقسم إلى قسمين : دينية وهي الضلالة ، ودنيوية وهي التي لا شيء فيها .

ولذا لابد أن نوضح هنا مسألة مهمة وبها ينجلي كثير من الإشكال ، ويزول اللبس إن شاء الله .

وهو أن المتكلم هنا هو الشارع الحكيم ، فلسانه هو لسان الشرع ، فلابد من فهم كلامه على الميزان الشرعي الذي جاء به ، وإذا علمت أن البدعة في الأصل هي : كل ما أحدث واخترع على غير مثال فلا يغيب

عن ذهنك أن الزيادة أو الاختراع المذموم هنا هو الزيادة في أمر الدين ليصير من أمر الدين ، والزيادة في الشريعة ليأخذ صبغة الشريعة ، فيصير شريعة متبعة منسوبة لصاحب الشريعة ، وهذا هو الذي حذر منه سيدنا رسول الله ρ بقوله : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، فالحد الفاصل في الموضوع هو قوله : (في أمرنا هذا). ولذلك فإن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة في مفهومنا ليس إلا للبدعة اللغوية التي هي مجرد الاختراع والإحداث ، ولا نشك جميعاً في أن البدعة بالمعنى الشرعي ليست إلا ضلالة وفتنة مذمومة مردودة مبغوضة ، ولو فهم أولئك المنكرون هذا المعنى لظهر لهم أن محل الاجتماع قريب وموطن النزاع بعيد .

وزيادة في التقريب بين الأفهام أرى أن منكري التقسيم إنما ينكرون تقسيم البدعة الشرعية بدليل تقسيمهم البدعة إلى دينية ودنيوية ، واعتبارهم ذلك ضرورة . وأن القائلين بالتقسيم إلى حسنة وسيئة يرون أن هذا إنما هو بالنسبة للبدعة اللغوية لأنهم يقولون : إن الزيادة في الدين والشريعة ضلالة وسيئة كبيرة ، ولا شك في ذلك عندهم فالخلاف شكلي ، غير أني أرى أن إخواننا المنكرين لتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ، والقائلين بتقسيمها إلى دينية ودنيوية لم يحالفهم الحظ في دقة التعبير ، وذلك لأنهم لما حكموا بأن البدعة الدينية ضلالة – وهذا حق – وحكموا بأن البدعة الدنيوية لا شيء فيها قد أساءوا الحكم لأنهم بهذا قد حكموا على كل بدعة دنيوية بالإباحة ، وفي هذا خطر عظيم ، وتقع به فتنة ومصيبة ، ولا بد حينئذ من تفصيل واجب وضروري للقضية ، وهو أن يقولوا : إن هذه البدعة الدنيوية منها ما هو خير ومنها ما هو شر كما هو الواقع

المشاهد الذي لا ينكره إلا أعمى جاهل ، وهذه الزيادة لابد منها ، ويكفي في تحقيق هذا المعنى بدقة قول من قال : بأن البدعة تنقسم إلى حسنة وسيئة ، ومعلوم أن المراد بها اللغوية كما تقدم ، وهي التي عبر عنها المنكرون بالدنيوية ، وهذا القول في غاية الدقة والاحتياط ، وهو ينادي على كل جديد بالانضباط والانصياع لحكم الشرع وقواعد الدين ، ويلزم المسلمين أن يعرضوا كل ما جد لهم وأحدث من أمورهم الدنيوية العامة والخاصة على الشريعة الإسلامية ليرى حكم الإسلام فيها مهما كانت تلك البدعة ، وهذه لا يتحقق إلا بالتقسيم الرائع المعتبر عن أئمة الأصول ، فرضي الله عن أئمة الأصول وعن تحريرهم للألفاظ الصحيحة المجزئة المؤدية إلى المعاني السليمة دون نقص أو تحريف أو تأويل .

دعوة أئمة التصوف إلى العمل بالشريعة

التصوف ذلك المظلوم المتهم ، قليل من ينصفه بل بلغت الجراءة والوقاحة ببعضهم إنه جعله من صفات الذم والقدح التي تسقط بها الشهادة وتزول بها العدالة فيقول : فلان ليس بثقة ولا يقبل خبره لماذا ؟ لأنه صوفي .

والعجيب الغريب أننا نرى بعض هؤلاء الذين يذمون التصوف ويحاربون أهله ويناصبونهم العداء ، نرى بعض هؤلاء المنكرين يفعل

ما يفعل ، ويقول ما يقول عن التصوف ، ثم لا يستحي على وجهه حينما ينقل كلام هؤلاء الأئمة من الصوفية في خطبه وكلامه على منابر الجمعة وكراسي الدروس ، فيقول بكل بجاحة ووقاحة : قال الفضيل بن عياض ، وقال الجنيد ، وقال الحسن البصري ، وقال سهل التستري ، وقال المحاسبي ، وقال بشر الحافي .

وهؤلاء هم أئمة التصوف وأقطابه وأركانه وقواعده وبنيانه ، وكتب التصوف مشحونة بأقوالهم وأخبارهم ومناقبهم وشمائلهم ، فلا أدري أهو جهل أم تجاهل ؟ وعمي أو تعامي ؟ .

وقد أحببت أن أنقل كلام أئمة الدين الذين هم أركان التصوف ورجاله ، أردت أن أنقل كلامهم عن الشريعة الإسلامية لنعرف موقفهم الحقيقي ، لأن الواجب أن نعرف الشخص عن الشخص نفسه ، فالإنسان هو خير من يتحدث عن رأيه وأوثق من يظهر ما يضمر .

قال الإمام الجنيد رضي الله عنه : الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ρ واتبع سنته ولزم طريقته ، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه ، وعلى المقتفين أثره والمتابعين .

وجاء أن أبا يزيد البسطامي قدس سره قال ذات يوم لأصحابه : قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذي قد شهر نفسه بالولاية ، قال : فمضينا ، فإذا بالرجل قد قصد المسجد فرمى بزاقه نحو القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه .
وقال : هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ρ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .

قال ذو النون المصري : مدار الكلام أربع : حب الجليل وبغض القليل واتباع التنزيل وخوف التحويل . من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ρ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه .

قال السري السقطي : التصوف اسم لثلاثة معان : وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

قال أبو نصر بشر بن الحارث الحافي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال لي : يا بشر ! أتدري لم رفعك الله بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي – هذا هو الذي بلغك منازل الأبرار .

قال أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامي : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل ، ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ρ إياه ، فلم أسأله ثم إن الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط ، وقال أيضاً : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

قال سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني : ربما وقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عادلين : الكتاب والسنة ، وقوله : منه أي من قلبي .

قال أبو الحسن أحمد بن أبي الحوارى : من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ρ فباطل .

قال أبو حفص عمر بن سلمة الحداد : من لم يزن أفعاله في كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده في ديوان الرجال .

قال أبو القاسم الجنيد بن محمد : نم لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال أيضاً : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ρ .

قال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى : ولما تغير على أبي عثمان الحال مزق ابنه أبو بكر قميصاً على نفسه ففتح أبو عثمان عينيه ، وقال : السنة يا بني في الظاهر علامة كمال في الباطن .

وقال أيضاً : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة ، والصحبة مع الرسول ρ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة .

والصحبة مع الأهل بحسن الخلق – والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً – والصحبة مع الجهال بالدعاء والرحمة .

قال أيضاً : من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، قال تعالى : { وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } .

قال أبو الحسن بن محمد النوري : من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربن منه .

قال أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعود نفسه أكل الحلال لم يخطئ له فراسته .

قال أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى : من ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، وأعطى به مقام متابعة الحبيب ρ في أوامره ، وأفعاله ، وأخلاقه .

وقال أيضاً : كل ما سئلت عنه فاطلبه في مفزة العلم ، فإن لم تجده ، ففي ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

قال أبو حمزة البغدادي البزاز : من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ρ ، في أحواله ، وأفعاله ، وأقواله .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقي : علامة محبة الله : إيثار طاعته ومتابعة نبيه ρ .

قال ممشاد الدينوري : أدب المريد في التزام حرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشرع على نفسه .

قال أبو محمد عبد الله بن منازل : لم يضيِّع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن ، ولم يبتَل أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع .

* * *

(1) هذا وقد ألف العلامة الفاضل الشيخ عبد الحفيظ المكي رسالة قيمة وهي (موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية) ، جمع فيها أقوال وآراء الإمام أحمد بن حنبل ، والشيخ ابن تيمية ، وابن القيم ، والذهبي وابن كثير ، وابن رجب ومحمد بن عبد الوهاب ، وموقفهم المؤيّد للتصوف ، ومدحهم وثناءهم على مشايخ السادة الصوفية .

حقيقة الأشـاعرة

يجهل كثير من أبناء المسلمين مذهب الأشاعرة ، ولا يعرفون من هم الأشاعرة ولا طريقتهم في أمر العقيدة .. ولا يتورع البعض أن ينسبهم إلى الضلال أو يرميهم بالمروق من الدين والإلحاد في صفات الله .

وهذا الجهل بمذهب الأشاعرة سبب تمزق وحدة [أهل السنة] وشتت شملهم حتى غدا البعض يسلك [الأشاعرة] ضمن طوائف أهل الضلال ، ولست أدري كيف يقرن بين أهل الإيمان وأهل الضلال ؟ وكيف يساوى بين أهل السنة وبين غلاة المعتزلة وهم الجهمية ؟ .

{ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } ؟ ..

الأشاعرة : هم أئمة أعلام الهدى من علماء المسلمين .. الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها وأطبق الناس على فضلهم وعلمهم ودينهم هم جهابذة علماء أهل السنة وأعلام علمائها الأفاضل الذين وقفوا في طغيان المعتزلة .

هم الذين قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية : [والعلماء أنصار علوم الدين والأشاعرة أنصار أصول الدين] الفتاوى الجزء الرابع .

إنهم طوائف المحدثين والفقهاء والمفسرين من الأئمة الأعلام شيخ الإسلام [أحمد بن حجر العسقلاني] شيخ المحدثين بلا مراء صاحب

كتاب [فتح الباري على شرح البخاري] أشعري المذهب وكتابه لا يستغني عنه أحد من العلماء .
وشيخ علماء أهل السنة [الإمام النووي] صاحب شرح صحيح مسلم وصاحب المصنفات الشهيرة أشعري المذهب .
وشيخ المفسرين الإمام القرطبي صاحب تفسير [الجامع لأحكام القرآن] أشعري المذهب .
وشيخ الإسلام [ابن حجر الهيتمي] صاحب كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) أشعري المذهب .
وشيخ الفقه والحديث الإمام الحجة الثبت [زكريا الأنصاري] أشعري المذهب .
والإمام [أبو بكر الباقلاني] والإمام العسقلاني والإمام النسفي والإمام الشربيني ، وأبو حيان النحوي صاحب تفسير [البحر المحيط] ، والإمام ابن جزي صاحب (التسهيل في علوم التنزيل) الخ ... كل هؤلاء من أئمة الأشاعرة .
ولو أردنا أن نعدد هؤلاء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء ، من أئمة الأشاعرة لضاق بنا الحال واحتجنا إلى مجلدات في سرد أولئك العلماء الأفاضل الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها .. إن من الواجب أن نرد الجميل لأصحابه وأن نعرف الفضل لأهل العلم والفضل الذين خدموا شريعة سيد المرسلين من العلماء الأعلام .
وأي خير يرجى فينا إن رمينا علماءنا الأعلام وأسلافنا الصالحين بالزيغ والضلال ؟ .
وكيف يفتح الله علينا لنستفيد من علومهم إذا كنا نعتقد فيها الانحراف والزيغ عن طريق الإسلام .
إنني أقول : هل يوجد بين علماء العصر من [الدكاترة] والعباقرة من يقوم بما قام به شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني والإمام النووي ، من خدمة السنة النبوية المطهرة كما فعل هذان الإمامان الجليلان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان ؟ فكيف نرميهما ـ وسائر الأشاعرة ـ بالضلالة ونحن بحاجة إلى علوم هؤلاء .
وكيف نأخذ العلوم عنهم إذا كانوا على ضلال ، وقد قال الإمام الزهري رحمه الله : [إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم] .
أفما كان يكفي أن يقول المعارض : إنهم رحمهم الله اجتهدوا فأخطأوا في تأويل الصفات ، وكان الأولى أن لا يسلكوا هذا المسلك ، بدل أن نرميهم بالزيغ والضلال ، ونغضب على من عدهم من أهل السنة والجماعة .

وإذا لم يكن الإمام النووي والعسقلاني والقرطبي والباقلاني والفخر الرازي والهيتمي وزكريا الأنصاري وغيرهم من جهابذة العلماء ، وفطاحل النبغاء إذا لم يكونوا من أهل السنة والجماعة فمن هم أهل السنة إذن ؟ .

إنني أدعو مخلصاً كل الدعاة وكل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يتقوا الله في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وبخاصة في أجلة علمائها وأخيار فقهائها ، فأمة محمد بخير إلى قيام الساعة ولا خير فينا إذا لم نعرف لعلمائنا قدرهم وفضلهم[4] .

* * *

حقائق تموت بالبحث

يجري البحث بين العلماء في حقائق كثيرة من مسائل العقيدة مما لم يكلفنا به الله تعالى ، وأنا أرى ذلك البحث يذهب بَهاءَ تلك الحقائق وجلالها ، وذلك مثلاً كاختلاف العلماء في رؤية النبي ρ لله سبحانه وتعالى كيف كانت ، والخلاف الطويل العريض الدائر بينهم في ذلك

---

[4] أنظر ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد علي الصابوني في مسألة الأشاعرة من بحوث طويلة ومهمة.

الباب ، فمن قائل رآه بقلبه ومن قائل رآه بعينه ، وكل يورد دليله ويستنصر له بما لا طائل تحته ، والذي أراه أن كل ذلك عبث لا فائدة فيه ، بل ضرره أكبر من نفعه خصوصاً إذا سمع هذا العوام فإنه يُدخل التشكيك في قلوبهم لا محالة ، ولو أننا ألغينا البحث عن هذا واكتفينا بإيراد هذه الحقيقة كما جاءت لبقيت مكرمة معظمة في النفوس بأن نقول إنه ρ رأى ربه ونقتصر على هذه الحقيقة ونترك الباقي له هو .

وكلم الله موسى تكليما :

ومن ذلك أيضاً ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة كلام الله تعالى والخلاف الكبير الدائر في هذا الباب ، فمن قائل إن كلامه سبحانه وتعالى كلام نفسي ، ومن قائل إن كلامه سبحانه وتعالى بحرف وصوت ، وأنا أعتقد أن كلا الطرفين يطلب حقيقة التنزيه لله سبحانه وتعالى ويبعد عن الشرك بكل أنواعه.

ومسألة الكلام حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها إذ هو ينافي الكمال الإلهي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن صفاته سبحانه وتعالى الواردة في القرآن يجب الإيمان بها وإثباتها لأنه لا يعرف الله إلا الله .

والذي أراه وأدعو إليه هو إثبات هذه الحقيقة دون الغوص في كيفيتها وشكلها ، فنثبت لله سبحانه وتعالى الكلام ونقول هذا كلام الله ونقول إنه سبحانه وتعالى متكلم ، ونصرف النظر عما بعد ذلك من الباطل من كونه كلاماً نفسياً وغير نفسي بحرف وصوت أو بلا حرف ولا صوت ، وكل هذا تنطع لم يتكلم فيه الذي جاء بالتوحيد وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم،

فلم الزيادة على ما جاء به ؟ أليس هذا من أقبح البدع ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

هو صلى الله عليه وسلم يحدثنا عنه يوم نجتمع به عند الله سبحانه وتعالى. نحن ندعو إلى أن يكون حديثنا دائماً عن هذه الحقيقة وأمثالها مجرداً عن الغوص في كيفياتها وصورها وأشكالها .

إني أراكم من خلفي :

ومن ذلك أيضاً ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة قوله ρ :[إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي] . فمن قائل : إن الله تعالى يجعل لنبيه ρ عينين من الخلف ، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يجعل لعينيه الأماميتين قوة نفاذة ترى بها ما خلفهما ، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يعكس له ρ ما خلفه حتى تكون صورته أمامه بين

عينيـه ، وكـل هـذا تنطـع يخـرج هـذه الحقيقـة عـن جمالهـا ورونقهـا ، ويضعف هيبتها وجلالها في القلوب .

أما كونه ρ يرى من خلفه كما يرى من أمامه فهي حقيقة ثابتـة أخبر بها بنفسه فيما صح عنه فلا مجال لإنكارها ، ولكن الذي ندعو إليه ونراه هو أن نثبت هذه الحقيقة هكذا مجردة كما وردت دون الدخول في كيفيتها وشكلها يجب علينا أن نعتقد إمكان ذلك وثمرته بأن نشهد بخارق من الخوارق التي تضمحل عندها الأسباب وتتلاشى لتظهر قدرة الواحد القهار ومنقبة النبي المختار ρ .

جبريل يتمثل رجلاً :

ومن ذلك أيضاً اختلاف العلماء في كيفية تشكل جبريل عليه السلام إذا جاء بالوحي على صورة رجل مع هول خلقه .

فمن قائل : إن الله يفني الزائد من خلقه ، ومن قائل : إنه ينضم بعضه إلى بعض حتى يصير صغيراً ، والذي أراه أن كل ذلك عبث ، وأن البحث فيه تعب لا فائدة منه فنحن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك ، وأن هذا واقع ومشاهد ، فقد رآه كثير من الصحابة على تلك الصورة ونحن لا يهمنا معرفة الطريقة التي يتم بها تمثل الملك بصورة رجل ، وندعو إخواننا من طلاب العلم إلى إيراد هذه الحقيقة دون التعرض لما وراءها من خلافات لتبقى جليلة عظيمة في النفوس .

مفهوم التوسـل

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التوسل ، ولذا فإننا سنبين مفهوم التوسل الصحيح في نظرنا وقبل ذلك لابد أن نبين هذه الحقائق :

أولاً :

أن التوسل هو أحد طرق الدعاء وباب من أبواب التوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، فالمقصود الأصلي الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى ، والمتوسَّل به إنما هو واسطة ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ومن اعتقد غير ذلك فقد أشرك .

ثانياً :

أن المتوسل ما توسل بهذه الواسطة إلا لمحبته لها واعتقاده أن الله سبحانه وتعالى يحبها ، ولو ظهر خلاف ذلك لكان أبعد الناس عنها وأشد الناس كراهة لها .

ثالثاً :

أن المتوسل لو اعتقد أن من توسل به إلى الله ينفع ويضر بنفسه مثل الله أو دونه فقد أشرك .

رابعاً :

أن التوسل ليس أمراً لازماً أو ضرورياً وليست الإجابة متوقفة عليه بل الأصل دعاء الله تعالى مطلقاً ، كما قال تعالى : {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} . وكما قال تعالى : { قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}.

* * *

المتفق عليه من التوسل

لم يختلف أحد من المسلمين في مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة ، فمن صام أو صلى أو قرأ القرآن أو تصدق فإنه يتوسل بصيامه وصلاته وقراءته وصدقته بل هو أرجى في القبول وأعظم في نيل المطلوب لا يختلف في ذلك اثنان ، والدليل على هذا حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فتوسل أحدهم إلى الله ببره لوالديه ، وتوسل الثاني بابتعاده عن الفاحشة بعد تمكنه من أسبابها ، وتوسل الثالث بأمانته وحفظه لمال غيره وأدائه له كاملاً ، وفرج الله عنهم ما هم فيه ، وهذا النوع من التوسل قد فصله وبين أدلته وحقق مسائله الشيخ ابن تيمية رحمه الله في كتبه وخصوصاً في رسالته (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) .

محل الخلاف :

ومحل الخلاف في مسألة التوسل هو التوسل بغير عمل المتوسل ، كالتوسل بالذوات والأشخاص بأن يقول : اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد ρ أو أتوسل إليك بأبي بكر الصديق أو بعمر بن الخطاب أو بعثمان أو بعلي رضي الله عنهم ، فهذا هو الممنوع عند بعضهم .

ونحن نرى أن الخلاف شكلي وليس بجوهري ، لأن التوسل بالذات يرجع في الحقيقة إلى توسل الإنسان بعمله وهو المتفق على جوازه ، ولو نظر المانع المتعنت في المسألة بعين البصيرة لانجلى له الأمر وانحل الإشكال وزالت الفتنة التي وقع بسببها من وقع فحكم على المسلمين بالشرك والضلال .

وسأبين كيف أن المتوسل بغيره هو في الحقيقة متوسل بعمله المنسوب إليه والذي هو من كسبه .
فأقول : إعلم أن من توسل بشخص ما فهو لأنه يحبه إذ يعتقد صلاحه وولايته وفضله تحسيناً للظن به ، أو لأنه يعتقد أن هذا الشخص محب لله سبحانه وتعالى يجاهد في سبيله ، أو لأنه يعتقد أن الله تعالى يحبه كما قال تعالى : { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } ، أو لاعتقاد هذه الأمور كلها في الشخص المتوسل به .
وإذا تدبرت الأمر وجدت أن هذه المحبة وذلك الاعتقاد من عمل المتوسل لأنه اعتقاده الذي انعقد عليه قلبه فهو منسوب إليه ومسئول عنه ومثاب عليه،

وكأنه يقول : يا رب إني أحب فلاناً وأعتقد أنه يحبك وهو مخلص لك ويجاهد في سبيلك ، وأعتقد أنك تحبه وأنت راض عنه فأتوسل إليك بمحبتي له وباعتقادي فيه أن تفعل كذا وكذا ، ولكن أكثر المتوسلين يتسامحون في التصريح بهذا الأمر مكتفين بعلم من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .
فمن قال : اللهم إني أتوسل إليك بنبيك . هو ومن قال : اللهم إني أتوسل إليك بمحبتي لنبيك – سواء ، لأن الأول ما أقدم على هذا إلا لمحبته وإيمانه بنبيه ، ولولا المحبة له والإيمان به ما توسل به ، وهكذا يقال في حق غيره من أولياء الأمة .
وبهذا ظهر أن الخلاف في الحقيقة شكلي ولا يقتضي هذا التفرق والعداء بالحكم بالكفر على المتوسلين وإخراجهم عن دائرة الإسلام {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} .

* * *

أدلة ما عليه المسلمون من التوسل

قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } . والوسيلة : كل ما جعله الله سبباً في الزلفى عنده ووصلة إلى قضاء الحوائج منه والمدار فيها على أن يكون للوسيلة قدر وحرمة عند المتوسل إليه .
ولفظ الوسيلة عام في الآية كما ترى فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الممات وبالإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه المأمور به وللتوسل بها بعد وقوعها .

وفيما ستسمع من الأحاديث والآثار ما يجلي لك هذا العموم واضحاً ، فألق السمع وأنت شهيد لترى أنه قد ثبت التوسل به ρ قبل وجوده وبعد وجوده في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة .

* * *

التوسل بالنبي ρ قبل وجوده

توسل آدم به :

وقد جاء في الحديث أن آدم توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قال الحاكم في المستدرك : حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بم منصور العدل حدثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي حدثنا أبو الحارث عبد الله بن مسلم الفهري حدثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر – رضي الله عنه – قال :

((قال رسول الله ρ : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب ! أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، فقال الله: ياآدم ! وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال : يارب ! لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إليَّ ، أدعني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك)) .

أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه [ج2 ص615][5] ، ورواه الحافظ السيوطي في الخصائص النبوية وصححه [2] ، ورواه البيهقي في دلائل النبوة وهو لا يروي الموضوعات ، كما صرح بذلك في مقدمة كتابه [3] ، وصححه أيضاً القسطلاني والزرقاني في المواهب اللدنية [ج1 ص62][4] ، والسبكي في شفاء السقام ، قال الحافظ الهيثمي :

[5-2-3-4] أنظر هذه الأرقام في الملحق بآخر الكتاب .

رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم (مجمع الزوائد ج8 ص253) .

وجاء من طريق آخر عن ابن عباس بلفظ : فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . رواه الحاكم في المستدرك (ج2 ص615) وقال : صحيح الإسناد ، وصححه شيخ الإسلام البلقيني في فتاويه ، ورواه أيضاً الشيخ ابن الجوزي في الوفا في أول كتابه ونقله ابن كثير في البداية (ج1 ص180) .

وقد خالف في ذلك بعض العلماء فتكلم في درجة الحديث ورده وحكم بوضعه كالذهبي وغيره ، وبعضهم حكم بضعفه ، وبعضهم حكم بنكارته – وبهذا يظهر أنه لم تتفق كلمتهم على حكم واحد ، وعليه فالمسألة يدور البحث فيها بين الإثبات والنفي والرد والقبول والتوقف بناء على اختلافهم في درجة الحديث[5] وهذا من ناحية السند وثبوت الحديث ، أما من ناحية المعنى فلنترك المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية ليحدثنا عنه .

شواهد لحديث توسل آدم

روى ابن تيمية حديثين في هذا الموضوع وأوردهما مستشهداً بهما ، فقال : روى أبو الفرج ابن الجوزي بسنده إلى ميسرة قال : قلت : يا رسول الله ! متى كنتَ نبياً ؟ قال :

((لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله إنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه)) .

وروى أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة ومن طريق الشيخ أبي الفرج حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشيد حدثنا أحمد بن سعيد

[6-5] انظر في الملحق بآخر الكتاب تعليقاً مهماً على هذه المسألة .

الفهري حدثنا عبد الله بن إسماعيل المدني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ρ :

((لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يارب ! بحق محمد إلا غفرت لي ، فأوحى إليه : وما محمد ومن محمد ؟ فقال : يا رب ! إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك ، فقال : نعم ، قد غفرت لك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك ، ولولاه ما خلقتك)) ..

فهذا الحديث يؤيد الذي قبله ، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة [اهـ من الفتاوى ج2 ص150] .

قلت : فهذا يدل على أن الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد والاعتبار لأن الموضوع أو الباطل لا يستشهد به عند المحدثين ، وأنت ترى أن الشيخ استشهد به هنا على التفسير(6).

تصحيح ابن تيمية لمعنى هذه الخصوصية

تكلم الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة كلاماً جيداً نفيساً يدل على عقل وبصيرة واتزان كبير ، فهو وإن كان قد نفى وجود حديث عن النبي ρ في هذا المعنى [وهذا حسب علمه في ذلك الوقت] إلا أنه رجع فأيد المعنى وفسره تفسيراً معقولاً وأثبت فيه صحة القول وهو بهذا يرد رداً واضحاً على من زعم أن ذلك شرك أو كفر وعلى من زعم أن المعنى فاسد وباطل وعلى من زعم أن فيه قدحاً في مقام التوحيد والتنزيه ، وما هو إلا الهوى والعمى وسوء الفهم وضيق العقل فالله ينور بصائرنا ويرشدنا إلى الحق والصواب وهو الهادي إلى سواء السبيل .

قال الشيخ الإمام ابن تيمية في الفتاوى (ج11 ص96) :

ومحمد سيد ولد آدم وأفضل الخلق وأكرمهم عليه ومن هنا قال من قال : إن الله خلق من أجله العالم أو أنه لولاه لما خلق عرشاً ولا كرسياً ولا سماء ولا أرضاً ولا شمساً ولا قمراً ، لكن ليس هذا حديثاً عن النبي ρ لا صحيحاً ولا ضعيفاً ، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبي ρ بل ولا يعرف عن الصحابة بل هو كلام لا يدرى قائله ، ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله تعالى { سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، وقوله تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا } ، وأمثال ذلك من الآيات التي يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم ، ومعلوم أن لله فيها حكماً عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك ، ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة وما أسبغ عليهم من النعمة

فإذا قيل : فعل كذا لكذا لم يقتض أن لا يكون فيه حكمة أخرى ، وكذلك قول القائل : لولا كذا ما خلق كذا لا يقتضي ألا يكون فيه حكم أخرى عظيمة ، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد ، وكانت خلقته غاية مطلوبة وحكمة بالغة مقصودة [أعظم] من غيره صار تمام الخلق ونهاية الكمال حصل بمحمد صلى الله عليه وسلم . (اهـ من الفتاوى) .

تحليل مهم لرأي ابن تيمية غاب عن عقول أتباعه

فانظر هداك الله إلى كلام الشيخ ابن تيمية وبعد نظره ، وسعة فهمه في تفسير هذه الخصوصية التي انتشرت واشتهرت ، وجاء فيها حديث توسل آدم الذي رواه الحاكم ، والذي صححه من صححه ، وحسنه من حسنه ، وقبله من قبله ممن تقدم ذكرهم من أئمة الحديث .

وها هو الشيخ ابن تيمية هنا يقول : إن هذا الكلام له وجه صحيح فأين هذا القول من قول من أقعد الدنيا وأقامها ، وأخرج القائلين بذلك عن دائرة الإسلام ، ووصفهم بالضلال والشرك ، أو بالبدعة والتخريف ، ثم يدعي زوراً وبهتاناً أنه سلفي تيمي ، وهو بعيد كل البعد عن ابن تيمية ، وعن السلفية ، وليس هذا الصنيع منه في هذه المسألة فقط ، بل الملاحظ أنه مع ابن تيمية في كل مسألة إلا فيما فيه تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو تأييد كرامته وعظمته ومكانته ، فإنه يتوقف فيها ويفكر وينظر ، وهنا فقط تظهر عنده حماية مقام التوحيد أو حمية التوحيد ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

الشاهد الثالث لحديث توسل آدم :

الشاهد الثالث لحديث توسل آدم هو ما أخرجه ابن المنذر في تفسيره عن محمد بن علي بن حسين بن علي عليهم السلام قال : لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام فقال : ((يا آدم ! هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه ؟ قال : بلى يا جبريل ، قال : قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك فمجده وامدح ، فليس شيء أحب إلى الله من المدح ، قال : فأقول ماذا يا جبريل ؟ قال : فقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ، ثم تبوء بخطيئتك فتقول : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إني ظلمت نفسي وعملت السوء فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي)). قال : ففعل آدم ، فقال الله : يا آدم ! من علّمك هذا ؟ فقال : يا رب ! إنك

لما نفخت فيَّ الروح فقمت بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوباً بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا وحده لا شريك له محمد رسول الله ، فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك ، قال : صدقت ، وقد تبت عليك وغفرت لك . (كذا في الدر المنثور للسيوطي ج1 ص146) .

ومحمد بن علي بن الحسين هو أبو جعفر الباقر من ثقات التابعين وساداتهم خرّج له الستة ، روى عن جابر وأبي سعيد وابن عمر وغيرهم .

الشاهد الرابع لحديث توسل آدم :

الشاهد الرابع ما رواه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة قال : حدثنا هارون بن يوسف التاجر قال : حدثنا أبو مروان العثماني قال : حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أنه قال : من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال : اللهم إني أسألك بحق محمد عليك ، قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال : يارب ! رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك .

فانضمام هذا الأثر إلى حديث عبد الرحمن بن زيد يفيده قوة كما لا يخفى .

الجنة حرام على الأنبياء حتى يدخلها محمد ρ

ومن أمثال هذا التفضل الإلهي على حضرة النبي ρ ما جاء في الحديث من كون الجنة حراماً على الأنبياء حتى يدخلها نبينا ρ ، عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن رسول الله ρ قال :

((الجنة حرمت على الأنبياء وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي)) .. (رواه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي : إسناده حسن) .. [مجمع الزوائد ج10 ص69].

ارتباط الكون باسمه صلى الله عليه وسلم

ومن أمثال هذا التفضل الإلهي ما جاء في الآثار من انتشار اسمه محمد في الملأ الأعلى ، قال كعب الأحبار : إن الله أنزل على آدم عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين ، ثم أقبل على ابنه شيث فقال : ابني أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى ، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين ، ثم إني طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه ، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوباً عليه ، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين وعلى ورق قصب آجام الجنة وعلى ورق شجرة طوبى ، وعلى ورق سدرة المنتهى ، وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة ، فأكثروا ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها . اهـ (المواهب اللدنية ج1 ص186) .

قال الزرقاني في شرحه : رواه ابن عساكر .

قلت : وقد ذكر نحو هذا الخبر الشيخ ابن تيمية ، فقال : وقد روى أن الله كتب اسمه على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروى في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ .

وفي رواية لابن الجوزي عن ميسرة قال : قلت : يا رسول الله ! متى كنت نبياً ؟
قال :

((لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله

خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله إنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه)) .

اهـ (الفتاوى ج2 ص150) .

فوائد مهمة من حديث توسل آدم :

وفي الحديث التوسل برسول الله ρ قبل أن يتشرف العالم بوجوده فيه وأن المدار في صحة التوسل على أن يكون للمتوسل به القدر الرفيع عند ربه عز وجل وأنه لا يشترط كونه حياً في دار الدنيا .

ومنه يعلم أن القول بأن التوسل لا يصح بأحد إلا وقت حياته في دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله .

حاصل البحث في درجة الحديث :

والحاصل أن هذا الحديث صححه بشواهده[7] ونقله جماعة من فحول العلماء وأئمة الحديث وحفاظه الذين لهم مقامهم المعروف ومكانتهم العالية وهم الأمناء على السنة النبوية فمنهم الحاكم والسيوطي والسبكي والبلقيني .

ونقله البيهقي في كتابه الذي شرط فيه أن لا يخرج الموضوعات ، والذي قال فيه الذهبي : عليك به فإنه كله هدى ونور . [كذا في شرح المواهب وغيره] .

وذكره ابن كثير في البداية واستشهد به ابن تيمية في الفتاوى ، وكون العلماء اختلفوا فيه فرده بعضهم وقبله البعض ليس بغريب لأن كثيراً من الأحاديث النبوية جرى فيها الخلاف بأكثر من هذا وانتقدها النقاد بأعظم من هذا .

وبسبب ذلك ظهرت هذه المؤلفات العظيمة ، وفيها الاستدلالات والتعقبات والمراجعات والمؤاخذات ، ولم يصل ذلك إلى الرمي بالشرك

[7-8] انظر الملحق آخر الكتاب رقم 8/7 .

والكفر والضلال والخروج عن دائرة الإيمان لأجل الاختلافات في درجة حديث من الأحاديث ، وهذا الحديث من جملة تلك الأحاديث[8] .

توسل اليهود به ρ

قال تعالى : { وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ } .

قال القرطبي قوله تعالى : ولما جاءهم – يعني اليهود – كتاب – يعني القرآن – من عند الله مصدق – نعت لكتاب ويجوز في غير القرآن نصبه على الحال وكذلك هو في مصحف أبي بالنصب فيما روى – لما معهم – يعني التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيها – وكانوا من قبل يستفتحون – أي يستنصرون ، والاستفتاح : الاستنصار استفتحت استنصرت ، وفي الحديث كان النبي ρ يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بدعائهم وصلاتهم . ومنه :

فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، والنصر فتح شيء مغلق فهو يرجع إلى قولهم : فتحت الباب .

وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ρ قال :

((إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم)) ..

وروى النسائي أيضاً عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ρ يقول :

((أبغوني الضعيف فإنكم إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)) ..

قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود فدعت يهود بهذا الدعاء ، وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ، فلما بعث النبي ρ كفروا ، فأنزل الله تعالى : { وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ } أي بك يا محمد إلى قوله : { فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ } . تفسير القرطبي (ج2 ص26 و27)[9] .

* * *

التوسل بالنبي ρ في حياته وبعد وفاته

عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ρ وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي قائد وقد شق عليَّ ، فقال رسول الله ρ :

((ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قال اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ρ نبي الرحمة يامحمد إني أتوجه بك إلى ربك فيجلي لي عن بصري ، اللهم شفعه فيَّ وشفعني في نفسي ، قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر)) ..

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الذهبي عن الحديث : أنه صحيح (ج1 ص519) .

وقال الترمذي في أبواب الدعوات آخر السنن : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي .

قلت : والصواب أن أبا جعفر هو الخطمي المدني كما جاء مصرحاً به في روايات الطبراني والحاكم والبيهقي ، وزاد الطبراني في المعجم الصغير أن اسمه عمير ابن يزيد وأنه ثقة ، قال العلامة المحدث الغماري في رسالته ((اتحاف الأذكياء)) : وليس من المعقول أن يجمع الحفاظ على تصحيح حديث في سنده مجهول خصوصاً الذهبي والمنذري والحافظ .

قال المنذري : ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه . (كذا في الترغيب كتاب النوافل باب الترغيب في صلاة الحاجة (ج1 ص438) .

وليس هذا خاصاً بحياته ρ بل قد استعمل بعض الصحابة هذه الصيغة من التوسل بعد وفاته ρ فقد روى الطبراني هذا الحديث وذكر في أوله قصة وهي أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان

رضي الله عنه في حاجة له ، وكان عثمان رضي الله عنه لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقى الرجل عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه ، فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل :

اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ρ نبي الرحمة ، يامحمد ! إني أتوجه بك إلى ربك فيقضي حاجتي . وتذكر حاجتك ..

فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ثم قال : ما كانت لك حاجة فائتنا ، ثم إن الرجل لما خرج من عنده لقى عثمان بن حنيف وقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فيَّ ، فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله ρ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبي ρ :

أو تصبر ؟ فقال : يارسول الله ! ليس لي قائد ، وقد شق عليَّ ، فقال له النبي :

((إئت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط)) ..

قال المنذري : رواه الطبراني ، وقال بعد ذكره : والحديث صحيح . (كذا في الترغيب ، [ج1 ص440 وكذا في مجمع الزوائد ج2 ص279] .

وقال الشيخ ابن تيمية : قال الطبراني روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسي : والحديث صحيح .

قلت : قال الشيخ ابن تيمية : ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح ابن عبادة عن شعبة ، وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر (اهـ. التوسل والوسيلة ص 101) .

وبهذا ظهر أن هذه القصة صححها الحافظ الطبراني والحافظ أبو عبد الله المقدسي ، ونقل ذلك التصحيح الحافظ المنذري والحافظ نور الدين الهيثمي والشيخ ابن تيمية[10] .

وحاصل القصة أن عثمان بن حنيف الراوي للحديث المشاهد للقصة

علم من شكا إليه إبطاء الخليفة عن قضاء حاجته هذا الدعاء الذي فيه التوسل بالنبي ρ والنداء له مستغيثاً به بعد وفاته ρ ، ولما ظن الرجل أن حاجته قضيت بسبب كلام عثمان مع الخليفة ، بادر ابن حنيف بنفي ذلك الظن وحدثه بالحديث الذي سمعه وشهده ليثبت له أن حاجته إنما قضيت بتوسله به ρ ونداءه له واستغاثته به ، وأكد ذلك له بالحلف أنه ما كلم الخليفة في شأنه .

استعمال آخر وتأييد ابن تيميّة له

روى ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعاء قال : حدثنا أبو هاشم سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد ابن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ ، قال : ما هو ؟ قال : الدُّبَيْلَة ، وهي خرّاج ودمل كبير تظهر في الجوف فتقتل صاحبها غالباً ، قال : فتحول الرجل فقال : الله الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً ، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة ρ ،

---

8 أنظر الملحق في آخر الكتاب رقم 10 .

يامحمد إني أتوجه بك إلى ربك وربّي يرحمني ممّا بي . قال : فجس بطنه فقال : قد برئت ، ما بك علة .

قال الشيخ ابن تيمية : قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنه دعا به السّلف. اهـ [رواه الشيخ ابن تيمية في قاعدة جليلة ص94] .

ومعلوم أن ابن تيمية أورد هذا الخبر ليبين به مقصوده ويوجهه كما يريد ، ولكن الذي يهمنا هنا هو أنه أثبت استعمال السلف لذلك وحصول الشفاء به ، وهذا القدر من المسألة هو الذي يهمنا ، أما تعليقه عليه فهذا رأيه هو ، ونحن لا يهمنا إلا ثبوت النص فقط لنستدل به على ما نريد ، وهو له أن يستدل به كما يريد .

[محاولات يائســة]

وقد طنطن ودندن بعضهم حول حديث توسل آدم وعثمان بن حنيف وغيره ، وبذل جهده في ردّها بكل ما أوتي من قوة ، وحاول وحاور وجادل وقام وقعد وأرغى وأزبد في هذا الموضوع ، وكل ذلك لا فائدة منه لأنه مهما حاول ردّ الأحاديث الواردة في هذا الباب فقد قال ساداته من العلماء الكبار كلمتهم وهم أوفر منه عقلاً وأوسع علماً وأطول باعاً وأعمق فهماً وأكثر نوراً وتقوى وإخلاصاً ، مثل الإمام أحمد بن حنبل ، وهو يقول بالتوسل كما نقله عنه ابن تيمية والعز ابن عبد السلام ، وابن تيمية نفسه في قول له بالتوسل بالنبي ρ خاصة ، ثم نهاية المطاف عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أنكر على من نسب القول إليه بتكفير المتوسلين ، بل وصرح في فتاواه بأن التوسل من الفروع ، لا من الأصول وكل ذلك سيأتي مفصلاً إن شاء الله في هذا الكتاب .

هذا وقد صنف الشيخ العلامة المحدث عبد الله الغماري رسالة خاصة في الكلام عن هذا الحديث سماها ((مصباح الزجاجة في صلاة الحاجة)) ، أجاد فيها وأفاد وأتى بما يشفي ويكفي ويغني ، جزاه الله خير الجزاء .

التوسل به ρ في عرصات يوم القيامة

أما التوسل بع في عرصات يوم القيامة فلا حاجة للإطالة فيه فإن أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر وكل ذلك فيه النصوص الصريحة التي تفيد بأن أهل الموقف إذا طال عليهم الوقوف واشتد الكرب استغاثوا في تفريج كربتهم بالأنبياء فيستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فيحيلهم على سيد المرسلين حتى إذا استغاثوا به ρ ، سارع إلى إغاثتهم وأسعف طلبتهم ، وقال : أنا لها أنا لها ، ثم يخر ساجداً ولا يزال كذلك حتى ينادي أن ارفع رأسك واشفع تشفع .

فهذا إجماع من الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين وتقرير من رب العالمين بأن الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين من أعظم مفاتيح الفرج ومن موجبات رضى رب العالمين .

مشروعية التوسل على طريقة الشيخ ابن تيمية

يقول الشيخ ابن تيمية في كتابه [قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة] عند الكلام على قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } ، فابتغاء الوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه ، وهذا التوسل بالإيمان به وبطاعته فرض على كل أحد في كل حال باطناً وظاهراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته في مشهده ومغيبه لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا يعذر من الأعذار ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا بالتوسل به وبطاعته وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق ، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاهاً عند الله ، وقال تعالى عن موسى : { وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً } ، وقال عن المسيح : { وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ، ومحمد ρ أعظم جاهاً من الأنبياء والمرسلين ، ولكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً .

وفي الفتاوى الكبرى : سئل شيخ الإسلام رحمه الله هل يجوز التوسل بالنبي ρ أم لا ؟ فأجاب : الحمد لله ، أما التوسل بالإيمان به

ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه فهو مشروع باتفاق المسلمين .
[الفتاوى الكبرى ج1 ص140] .
قلت : فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية أمران :
الأول :
أن المسلم المطيع المحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتبع له

المصدق بشفاعته يشرع له أن يتوسل بطاعته ومحبته وتصديقه ذلك .
وإننا إذا توسلنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فالله يشهد أننا إنما نتوسل بالإيمان به وبمحبته وبفضله وشرفه فهذا هو المقصود الأصلي من التوسل ولا يتصور أن يتوسل أحد بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لغير هذا المعنى ، ولا يمكن أن يكون سوى ذلك من جميع المسلمين المتوسلين ، غير أن المتوسل قد يصرح به وقد لا يصرح اعتماداً على المقصود الأصلي من التوسل الذي هو الإيمان بالنبي ومحبته صلى الله عليه وآله وسلم لا غير .
الثاني :
مما يستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية أن من دعا له الرسول ρ صح له أن يتوسل إلى الله بدعائه ρ له ، وقد جاء أنه ρ قد دعا لأمته كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة .
منها : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لما رأيت من النبي ρ طيب النفس ، قلت : يارسول الله ! أدع الله لي ، فقال :
((اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسرت وما أعلنت فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك ، فقال لها رسول الله ρ أيسرك دعائي ، فقالت : وما لي لا يسرني دعاؤك ، فقال ρ : إنها لدعائي لأمتي في كل صلاة)) .

رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادي وهو ثقة ، (كذا في مجمع الزوائد) ، لذا فإنه يصح لكل مسلم أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بذلك فيقول : اللهم إن نبيك محمداً ρ قد دعا لأمته وأنا من أفراد هذه الأمة فأتوسل إليك بهذا الدعاء أن تغفر لي وأن ترحمني إلى آخر ما يريد ، فإذا قال ذلك لم يخرج عن الأمر المتفق عليه بين كافة علماء المسلمين ، فإن قال : اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد ρ فقد فاته التصريح بما ينويه وبيان ما ينعقد عليه قلبه وهو مقصود كل مسلم ومراده لا يخرج عن هذا الحد لأن المتوسل بالنبي ρ لا يقصد بذلك إلا تلك المعاني المتعلقة بذاته ρ من محبة وقربة وجاه ورتبة وفضل ودعاء وشفاعة ، خصوصاً وأنه صلى الله عليه وسلم في برزخه يسمع الصلاة والسلام ويرد على ذلك بما يليق ويناسب من سلام واستغفار لما قد جاء في الحديث عن النبي ρ :

((حياتي خير لكم ومماتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، تعرض أعمالكم عليَّ فإن وجدتُّ خيراً حمدت الله ، وإن وجدت شراً استغفرت الله لكم)).

رواه الحافظ إسماعيل القاضي في جزء الصلاة على النبي ρ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وصححه بقوله : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح كما سيأتي.

وهذا صريح بأنه صلى الله عليه وسلم يستغفر للأمة في برزخه والاستغفار دعاء والأمة تنتفع بذلك

وجاء في الحديث أن النبي ρ قال :

((ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد السلام)) ..

رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال النووي : إسناده صحيح . فهذا صريح بأن النبي ρ يرد السلام على المسلم ، والسلام هو الأمان فهو دعاء بالأمان للمسلم وهو ينتفع بذلك .

* * *

مشروعية التوسل بالنبي ρ خاصة عند الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية

على أن الشيخ ابن تيمية في بعض المواضع من كتبه أثبت جواز التوسل بالنبي ρ دون تفريق أو تفصيل بين حياته وموته وحضوره وغيابه ، ونقل عن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام جواز ذلك في الفتاوى الكبرى .

قال الشيخ : وكذلك مما يشرع التوسل به صلى الله عليه وسلم في الدعاء

كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه :

((أن النبي ρ علم شخصاً أن يقول : اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ρ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيجلي حاجتي ليقضيها فشفعه فيَّ)) ..

فهذا التوسل به حسن . اهـ (الفتاوى ج3 ص276) .

وقال أيضاً : والتوسل إلى الله بغير نبينا ρ سواء سمي استغاثة أو لم يسم لا نعلم أحداً من السلف فعله ولا روى فيه آثاراً ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبي ρ ففيه حديث في السنن ، رواه النسائي والترمذي وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبي ρ فقال : يارسول الله ! إني أصبت في بصري فادع الله لي ، فقال له النبي ρ :

((توضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد يامحمد إني أتشفع بك في رد بصري اللهم شفع نبيك فيَّ ، وقال : فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك . فرد الله بصره)) ..
فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به . اهـ
(الفتاوى ج1 ص105)
وقال الشيخ ابن تيمية أيضاً في موضع آخر :
ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي صاحبه : أنه يتوسل بالنبي ρ في دعائه ، ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوَّز القسم به ، فلذلك جوَّز التوسل به .
(ج1 ص140 من الفتاوى)

* * *

جواز التوسل عند الإمام الشوكاني

قال الإمام المحدث السلفي الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) : أما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه في مطلب يطلب العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام : إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي ρ إن صح الحديث فيه . ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي وصححه ابن ماجة وغيرهم أن أعمى أتى النبي ρ فذكر الحديث ، قال : وللناس في معنى هذا قولان : أحدهما أن التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب لما قال : كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا هو في صحيح البخاري وغيره ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ρ في حياته في الاستسقاء ثم توسل بعمه العباس بعد موته وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى والنبي ρ كان في مثل هذا شافعاً وداعياً لهم .
والقول الثاني : أن التوسل به ρ يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه ، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به ρ في حياته ، وثبت

التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنه ، وعندي أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي ρ كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لأمرين :

الأول : ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

والثاني : أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة إذ لا يكون فاضلاً إلا بأعماله ، فإذا قال القائل : اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني فهو باعتبار ما قام به من العلم ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي ρ حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركاً كما زعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام ، ومن قال بقوله من أتباعه لم تحصل الإجابة لهم ولا سكت النبي ρ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم ، وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } ، ونحو قوله تعالى : { فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً } ، ونحو قوله تعالى : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ }. ليس بوارد بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه ، فإن قولهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مصرح بأنهم عبدوهم لذلك ، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبده بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك ، وكذلك قوله : { فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً } فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول بالله وبفلان ، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله فإنما وقع منه التوسل عليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم ، وكذلك قوله : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ } الآية .

فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم ، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعاء غيره معه ، فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجاً زائداً على ما ذكرناه كاستدلالهم بقوله تعالى : {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ

مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَـا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْـأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّـهِ } .
فإن هذه الآية الشريفة ليست فيها دلالـة إلا أنـه تعالى هو المنفرد بـالأمر فـي يوم الـدين وأنـه لـيس لغيره من الأمـر شـيء ، والمتوسل بنبـي مـن الأنبياء أو عالم من العلماء هو لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر يوم الـدين ، ومـن اعتقد هذا لعبد من العبـاد سواء كـان نبياً أو غير نبي فهو في ضلال مبين ، وهكذا الاستدلال على منـع التوسـل بقولـه : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ } ، { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً } فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنـه لـيس لرسـول الله ρ مـن أمـر الله شيء وأنه لا يملك لنفسـه نفعاً ولا ضـراً فكيـف يملـك لغيـره ، ولـيس فيهمـا منـع التوسل به وبغيره من الأنبيـاء أو الأوليـاء أو العلمـاء ، وقـد جعـل الله لرسول الله ρ المقـام المحمـود مقام الشفاعة العظمى وأرشد الخلق إلى أن يـسألوه ذلـك ويطلبوه منه ، وقال لـه : سل تعطـه واشـفع تـشفع ، وقيل ذلـك فـي كتابـه العزيز بأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنـه ولا تكـون إلا لمـن ارتـضى ، وهكـذا الاسـتدلال علـى منـع التوسـل بقولـه ρ لمـا نـزل قولـه تعـالى : { وَأَنـذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } : يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئاً ، يا فلانـة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئاً ، فإن هذا لـيس فيـها إلا التصريح بأنـه ρ لا يستطيع نفـع مـن أراد الله ضـره ولا ضـر مـن أراد الله تعالى نفعه ، وأنـه لا يملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً مـن الله ، وهذا معلوم لكل مسلم ، وليس فيه أنـه لا يتوسل به إلى الله فـإن ذلك هو طلب الأمر ممن لـه الأمر والنهـي وإنمـا أراد الطالـب أن يقدم بـين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابـة ممـن هـو المنفرد بالعطـاء والمنـع وهـو مـالك يوم الدين . انتهى كلام الشوكاني .

* * *

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول بجواز التوسل

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء : [(لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد : (يتوسل بالنبي ρ خاصة) مع قولهم : إنه لا يستغاث بمخلوق] ؟

فقال: فالفرق ظاهر جداً ، وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين ، وبعضهم يخصه بالنبي ρ ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه ، فهذه المسألة من مسائل الفقه ، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد ، ولكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين، أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده ، لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين فأين هذا مما نحن فيه .

(انتهى من فتاوى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص68 التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) .

وهذا يدل على جواز التوسل عنده غاية ما يرى أنه مكروه في رأيه عند الجمهور ، والمكروه ليس بحرام فضلاً عن أن يكون بدعة أو شركاً .

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتبرأ عمّن يكفر المتوسلين

وقد جاء عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته الموجهة لأهل القصيم الاستنكار الشديد على من نسب إليه تكفير المتوسل بالصالحين ، وقال : إن سليمان بن سحيم افترى عليَّ أموراً لم أقلها ، ولم يأت أكثرها على بالي ، فمنها : أني أكفر من توسل بالصالحين ، وأني أكفر البوصيري لقوله : يا أكرم الخلق ، وأني أحرق دلائل الخيرات .

وجوابي عن هذه المسائل : أني أقول سبحانك هذا بهتان عظيم .

وجاء أيضاً تأييد قوله هذا في رسالة أخرى له بعثها إلى أهل المجمعة يقول فيها : إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها ، منها ما هو من البهتان الظاهر ، وهو قوله : أني أكفر من توسل بالصالحين ، وأني أكفر البوصيري إلى آخر ما قال ، ثم قال : وجوابي فيها أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم .

[أنظر الرسالة الأولى والحادية عشرة من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الخامس 12 وص64] .

* * *

التوسل بآثاره ρ

ثبت أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بآثاره ρ وهذا التبرك ليس له إلا معنى واحد ألا وهو التوسل بآثاره إلى الله تعالى لأن التوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد .

أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ؟

هل يصح أن يتوسل بالفرع ولا يصح بالأصل ؟ .

هل يصح أن يتوسل بالأثر الذي ما شرف ولا عظم وكرم إلا بسبب صاحبه محمد ρ ، ثم يقول قائل : إنه لا يصح أن يتوسل به ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! .

والنصوص الواردة في هذا الباب كثيرة جداً نقتصر على أشهرها ، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يدفن بقرب رسول الله ρ لما حضرته الوفاة فيبعث ولده عبد الله ليستأذن السيدة عائشة في ذلك وإذا بالسيدة عائشة تعلن أنها كانت تريد هذا المكان لنفسها ، فتقول كنت أريده لنفسي ولأوثرنه على نفسي فيذهب عبد الله ويبشر أباه بهذه البشارة العظيمة وإذا بعمر يقول : الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ نم ذلك . وانظر تفصيل القصة في البخاري فما معنى هذا الحرص من عمر ومن عائشة ؟ .

ولماذا كان الدفن بقرب رسول الله أهم شيء وأحب شيء إلى عمر ؟ ليس لذلك تفسير إلا التوسل بالنبي ρ بعد وفاته بالتبرك بالقرب منه .

وهذه أم سليم تقطع فم القربة التي شرب منها رسول الله ρ يقول أنس فهو عندنا .

وهؤلاء الصحابة يتسابقون لأخذ شعرة واحدة من شعر رأسه لما حلقه .

وهذه أسماء بنت ابي بكر تحتفظ بجبة رسول الله ρ وتقول : فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها .

وهذا خاتم رسول الله ρ يحتفظ به بعده أبو بكر وعمر وعثمان ثم يسقط منه في البئر .

وكل هذه الأحاديث ثابتة وصحيحة كما ذكرناه في مبحث التبرك والذي نريد أن نقوله هو أننا نتساءل لماذا هذه المحافظة منهم رضي الله تعالى عنهم على آثار النبي صلى الله عليه وسلم .

[فم القربة ، الشعر ، العرق ، الجبة ، الخاتم ، المصلى] فما مقصودهم من ذلك أهي الذكرى مجرد الذكرى أم هي المحافظة على الآثار التاريخية لوضعها في المتحف ، فإن كانت الأولى فلماذا يعتنون بها عند الدعاء والتوجه إلى الله إذا أصابهم البلاء أو المرض ، وإذا كانت الثانية فأين هذا المتحف ومن أين جاءتهم هذه الفكرة المبتدعة ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

لم يبق إلا التبرك بآثاره ρ للتوسل بها إلى الله في الدعاء لأن الله هو المعطي وهو المسؤول والكل عبيده وتحت أمره لا يملكون شيئاً لأنفسهم فضلاً عن غيرهم إلا بإذن الله سبحانه وتعالى .

* * *

التوسل بآثار الأنبياء

قال تعالى : { وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } الآية من سورة البقرة .

قال الحافظ ابن كثير في التاريخ : قال ابن جرير عن هذا التابوت : وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره ، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم اهـ .
قال ابن كثير : وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ، وكان فيه طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء اهـ (البداية ج2 ص8) .
وقال ابن كثير في التفسير : كان فيه عصا موسى وعصا هارون ولوحان من التوراة وثياب هارون ومنهم من قال : العصا والنعلان اهـ .
[تفسير ابن كثير ج1 ص313] .
وقال القرطبي : والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام فكان في بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة وسلبوا التابوت منهم . اهـ . (تفسير القرطبي ج3 ص247) .
وهذا في الحقيقة ليس إلا توسلاً بآثار أولئك الأنبياء إذ لا معنى لتقديمهم التابوت بين أيديهم في حروبهم إلا ذلك والله سبحانه وتعالى راض عن ذلك بدليل أنه رده إليهم وجعله علامة وآية على صحة ملك طالوت ولم ينكر عليهم ذلك الفعل .

* * *

توسل النبي ρ بحقه وحق الأنبياء والصالحين

جاء في مناقب فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب إنها لما ماتت حفر رسول الله ρ لحدها بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله ρ فاضطجع فيه فقال :
((الله الذي يحي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين . وكبر عليها أربعاً وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم)) .. رواه

الطبراني في الكبير والأوسط . وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح .
[كذا بمجمع الزوائد ج9 ص257] .

واختلف بعضهم في [روح بن صلاح] أحد رواته ، ولكن ابن حبان ذكره في الثقات ، وقال الحاكم : ثقة مأمون ، وكلا الحافظين صحح الحديث ، وهكذا الهيثمي في [مجمع الزوائد] ورجاله رجال الصحيح[11] .

ورواه كذلك ابن عبد البر عن ابن عباس ، وابن أبي شيبة عن جابر ، وأخرجه الديلمي وأبو نعيم ، فطرقه يشد بعضه بعضاً بقوة وتحقيق[12] .

قال الشيخ الحافظ الغماري في إتحاف الأذكياء ص20 : وروح هذا ضعفه خفيف عند من ضعفه كما يستفاد من عباراتهم ، ولذا عبر الحافظ الهيثمي بما يفيد خفة الضعف كما لا يخفى على من مارس كتب الفن . فالحديث لا يقل عن رتبة الحسن بل هو على شرط ابن حبان صحيح .

ونلاحظ هنا أيضاً أن الأنبياء الذين توسل النبي ρ بحقهم على الله في هذا الحديث وغيره قد ماتوا فثبت جواز التوسل إلى الله [بالحق] وبأهل الحق أحياء وموتى .

توسل النبي ρ بحق السائلين

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ρ : من خرج من بيته إلى الصلاة ، فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تعيذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك .

قال المنذري في الترغيب والترهيب ج3 ص119 : رواه ابن ماجه بإسناد فيه مقال ، وحسنه شيخنا الحافظ أبو الحسن .

وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ج1 ص272 : هذا حديث حسن ، أخرجه أحمد وابن خزيمة في كتاب التوحيد ، وأبو نعيم وابن السني .

(11 – 12) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 12/11 .

وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ج1 ص323 عن الحديث : بأنه حسن.
وقال الحافظ البوصيري في زوائد ابن ماجه المسمى ((بمصباح الزجاجة)) ج1 ص98 : رواه ابن خزيمة في صحيحه .
وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي في المتجر الرابع ص471 : إسناده حسن إن شاء الله .
وذكر العلامة المحقق المحدث السيد علي بن يحي العلوي في رسالته اللطيفة هداية المتخبطين : أن الحافظ عبد الغني المقدسي حسّن الحديث ، وقبله ابن أبي حاتم، وبهذا يتبين لك أن هذا الحديث صححه وحسنه ثمانية من كبار حفاظ الحديث وأئمته ، وهم : ابن خزيمة والمنذري وشيخه أبو الحسن والعراقي والبوصيري وابن حجر وشرف الدين الدمياطي وعبد الغني المقدسي وابن أبي حاتم ، وهؤلاء منهم
فهل يبقى بعد قول هؤلاء كلام المتكلم ، وهل يصح من عاقل أن يترك حكم هؤلاء الفحول من الرجال الحفاظ المتقنين إلى قول المتطفلين على موائد الحديث. { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } . { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } .

التوسل بقبر النبي ρ بإرشاد السيدة عائشة

قال الإمام الحافظ الدارمي في كتابه السنن [باب ما أكرم الله تعالى نبيه ρ بعد موته] : حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة، فقالت : أنظروا قبر النبي ρ فاجعلوا منه كوا إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، قال : ففعلوا ، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل (تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق ، ومعنى كوا أي نافذة). اهـ سنن الدارمي ج1 ص43 .

فهذا توسل بقبره ρ لا من حيث كونه قبراً ، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين وحبيب رب العالمين ، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة واستحق بذلك المنقبة الكريمة .

تخريج الحديث :

أما أبو النعمان فهو محمد بن الفضل الملقب بعارم شيخ البخاري ، قال الحافظ في التقريب عنه : - ثقة ثبت - تغير في آخر عمره .

قلت : وهذا لا يضره ولا يقدح في روايته لأن البخاري روى له في صحيحه أكثر من مائة حديث وبعد اختلاطه لم تحمل عنه رواية ، قاله الدارقطني ، ولا ينبّئك مثل خبير .

وقد ردّ الذهبي على ابن حبان قوله: (بأنه وقع له أحاديث منكرة) فقال: ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثاً منكراً فأين ما زعم؟(كذا في ميزان الاعتدال ج4 ص8).

وأما سعيد بن زيد فهو صدوق له أوهام ، وكذلك حال عمرو بن مالك النكرى كما قال الحافظ ابن حجر عنهما في التقريب .

وقد قرر العلماء بأن هذه الصيغة وهي - صدوق يهم - من صيغ التوثيق لا من صيغ التضعيف (كذا في تدريب الراوي) .

وأما أبو الجوزاء فهو أوس بن عبد الله الربعي وهو ثقة من رجال الصحيحين فهذا سند لا بأس به ، بل هو جيّد عندي ، فقد قبل العلماء واستشهدوا بكثير من أمثاله وبمن هم أقل حالاً من رجاله .

السيدة عائشة وموقفها من قبر النبي ρ :

أما قول بعضهم : بأن هذا الأثر موقوف على عائشة وهي صحابية ، وعمل الصحابة ليس بحجة ، فالجواب هو أنه وإن كان رأياً لعائشة إلا أنها رضي الله عنها معروفة بغزارة العلم ، وفعلت ذلك في المدينة بين علماء الصحابة . ويكفينا من هذه القصة أنها دليل على أن عائشة أم المؤمنين تعلم أن رسول الله ρ لا زال بعد وفاته رحيماً وشافعاً لأمته وأن من زاره واستشفع به شفع له ، كما فعلت أم المؤمنين ، وليس هو من قبيل الشرك أو من وسائل الشرك كما يلغط به هؤلاء المكفرون المضللون ، فإن عائشة ومن شهدها لم يكونوا ممن يجهلون الشرك ولا ما يمت إليه .

فالقصة تدمغ هؤلاء وتثبت أن النبي ρ يهتم بأمته في قبره حتى بعد وفاته ، وقد ثبت أن أم المؤمنين عائشة قالت : كنت أدخل بيتي الذي

فيه رسول الله ρ وأضع ثيابي ، وأقول إنما هو زوجي وأبي ، فلما دفن عمر معهما فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة حياء من عمر . (رواه أحمد) .

قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ج8 ص26) ورواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يعترضه الذهبي بشيء (ج4 ص7) .

ولم تعمل عائشة هذا باطلاً بل هي تعلم أن النبي ρ وصاحبيه يعلمان من هو عند قبورهم .

وقد قال النبي ρ لمعاذ لما أرسله لليمن : فلعلك تمر بقبري ومسجدي . (رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلا يزيد لم يسمع من معاذ ((كذا في مجمع الزوائد ج10 ص55))) فتوفي رسول الله ρ وجاء معاذ إلى قبر النبي ρ باكياً . وشاهده عمر بن الخطاب على هذا الحال وجرت بينهما هذه المحادثة كما رواها زيد ابن أسلم عن أبيه قال : خرج عمر إلى المسجد فوجد معاذ بن جبل عند قبر النبي ρ يبكي ، قال : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته عن رسول الله ρ : ((اليسير من الرياء شرك)) . قال الحاكم : صحيح ولا يعرف له علة ، ووافقه الذهبي فقال : صحيح ولا علة له . (كذا في المستدرك ج1 ص4) .

وقال المنذري في الترغيب والترهيب : رواه ابن ماجه والبيهقي والحاكم وقال : صحيح لا علة له ، وأقره أعني المنذري (ج1 ص32) .

التوسل بقبر النبي ρ في خلافة عمر رضي الله عنه

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا : حدثنا أبو عمر بن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك قال : أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي ρ فقال : يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله ρ في المنام فقال :

((ائت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون ، وقل له : عليك بالكيس الكيس)) ..

فأتى الرجل فأخبر عمر ، فقال : يارب ! ما آلو إلا ما عجزت عنه . وهذا إسناد صحيح .

[كذا قال الحافظ ابن كثير في البداية (ج1 ص91) في حوادث عام ثمانية عشر] .

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري ـ وكان خازن عمر ـ قال : ((أصاب الناس قحط في زمن عمر رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي ρ فقال : يارسول الله ! استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتى الرجل في المنام فقيل له : ائت عمر ، الحديث .

وقد روى سيف في الفتوح : أن الذي رأى في المنام المذكور هو بلال ابن الحارث المزني أحد الصحابة . قال ابن حجر : إسناده صحيح اهـ .

(صحيح البخاري كتاب الاستسقاء) ، [فتح الباري ص415 ج2][14] .

ولم يقل أحد من الأئمة الذين رووا الحديث ولا من بعدهم ممن مر بتصانيفهم من الأئمة أنه كفر وضلال ولا طعن أحد في متن الحديث به ، وقد أورد هذا الحديث ابن حجر العسقلاني وصحح سنده كما تقدم ، وهو من هو في علمه وفضله ووزنه بين حفاظ الحديث مما لا يحتاج إلى بيان وتفصيل .

توسل المسلمين به يوم اليمامة

ذكر الحافظ ابن كثير إن شعار المسلمين في موقعة اليمامة كان :

[محمـــداه] ..

قال ما نصه :

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز وقال : أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد ، ثم نادى بشعار المسلمين ، وكان شعارهم يومئذ [يا محمداه][15] ..

[البداية والنهاية ج6 ص324]

التوسل به في المرض والشدائد

---

[13] أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 13 .

[15] أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 15 .

عن الهيثم بن خنس قال : كنا عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله فقال له رجل : أذكر أحب الناس إليك ، فقال : يا محمد ، فكأنما نشط من عقال .

وعن مجاهد قال : خدرت رِجْل رَجُل عند ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال له ابن عباس : أذكر أحب الناس إليك ، فقال : محمد ρ ، فذهب خدره. [ذكره الشيخ ابن تيمية في الكلم الطيب في الفصل السابع والأربعين ص165].

فهذا توسل في صورة النداء .

التوسل بغير النبي ρ

عن عتبة بن غزوان عن نبي الله ρ قال :

((إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينوني ، فإن لله عباداً لا نراهم . وقد جرب ذلك)) ..

رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر ، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوني يا عباد الله)) ..

رواه الطبراني ورجاله ثقات .

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله ρ :

((إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا. يا عباد الله احبسوا ، فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسه)) ..

رواه أبو يعلى والطبراني وزاد سيحبسه عليكم ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف . اهـ . من مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي (ج10 ص132) .

فهذا توسل في صورة النداء أيضاً .
وجاء في الحديث أن النبي ρ كان يقول بعد ركعتي الفجر :
((اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل ومحمد النبي ρ أعوذ بك من النار)) .
قال النووي في الأذكار : رواه ابن السني ، وقال الحافظ بعد تخريجه : هو حديث حسن . (شرح الأذكار لابن علان ج2 ص139) .
وتخصيص هؤلاء بالذكر في معنى التوسل بهم ، فكأنه يقول :
اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بجبريل إلخ ..
وقد أشار ابن علان إلى هذا في الشرح ، فقال : التوسل إلى الله بربوبية هذه الأرواح العظيمة . وقد صرح ابن علان في شرح الأذكار ج2 ص29 بمشروعية التوسل فقال معلقاً على حديث ((اللهم إني أسألك بحق السائلين)) : فيه التوسل بحق أرباب الخير على سبيل العموم من السائلين ومثلهم بالأولى الأنبياء والمرسلون .

معنى توسل عمر بالعباس

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كانوا إذا قحطوا - استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : [اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا] .
وأخرج الزبير بن بكار في الأنساب من طريق غيره هذه القصة بأبسط من هذا

وتلخيصها : عن عبد الله بن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة [بفتح الراء وتخفيف الميم] سميت بذلك لكثرة تطاير الرماد لاحتباس المطر بالعباس ابن عبد المطلب ، فخطب الناس فقال : يأأيها الناس إن رسول الله ρ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد - فاقتدوا أيها الناس برسول الله ρ في عمه العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله : أدع يا عباس فكان من دعائه رضي الله عنه : اللهم إنه لم ينزل

بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة – وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث واحفظ اللهم نبيك في عمه ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس وأقبل الناس على العباس يتمسحون به ، ويقولون له : هنيئاً لك يا ساقي الحرمين ، وقال عمر – رضي الله عنه – ذلك : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه – وفي ذلك أنشد عباس بن عتبة ابن أخيه أبياتاً منها :

بعمي سقى الله الحجاز وأهله :: عشية يستسقى بشيبته عمر

وقال ابن عبد البر : وفي بعض الروايات فارخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض وعاش الناس ، فقال عمر رضي الله عنه : هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل ، والمكان منه .

وقال حسان بن ثابت :

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد الياس

وقال الفضل بن عباس بن عتبة :

بعمي سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقى بشيبته عمر

توجه بالعباس في الجدب راغباً فماكر حتى جاء بالديمة المطر

وفي رواية: وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمين. كذا في الاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة العباس .

وكان الحق لعمر في أن يؤم الناس مستسقياً لهم لكنه تأخر عن حقه وقدم العباس للاستسقاء تعظيماً لرسول الله ρ وتفخيماً لأهله وتقديماً لعمه صلى الله عليه وآله وسلم على نفسه مبالغة في التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما استطاع ، وحث الناس على اتخاذ الناس لعباس وسيلة إلى الله جل شأنه وكذلك اتخذه هو وسيلة بتقديمه ليدعو ليقيمه بذلك مقام رسول الله ρ حين كان حياً فاستسقى لهم بالمصلى ليكون أبلغ في تعظيمه والإشادة بفضل أهل بيته.

وبين عمر ذلك في دعائه حيث قال : [اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا] .. يعني كنا نتوسل إليك بخروجه بالناس إلى المصلى ودعائه لهم وصلاته بهم ، وإذ قد تعذر ذلك علينا بوفاته عليه الصلاة والسلام فإني أقدم من هو من أهل بيته ليكون الدعاء أرجى للقبول وأرجى للإجابة .

ولما دعا العباس توسل برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

وقد تقرب القوم بي لمكاني من نبيك أي لقرابتي منه فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، يعني اقبل دعائي لأجل نبيك .

فالقضية في الاستسقاء ولا صلة لها بالتوسل الذي نحن بصدد الكلام عنه والذي وقع فيه الخلاف وهذا أمر يعرفه كل ذي عينين لأن القصة تدل على هذا بوضوح فقد أصابهم القحط واحتاجوا إلى إقامة الاستغاثة بصلاة الاستسقاء وهذا يحتاج إلى إمام يصلي بهم ويدعو لهم ويقيم هذه الشعيرة الإسلامية التي كان يقيمها النبي ρ لما كان في دار التكليف كغيرها من شعائر الدين من إمامة وجمعة وخطبة فهي وظائف تكليفية لا

يقوم بها أهل البرزخ لانقطاع التكليف عنهم واشتغالهم بما هو أعظم من ذلك .

ومن فهم من كلام أمير المؤمنين أنه إنما توسل بالعباس – ولم يتوسل برسول الله ρ لأن العباس حي والنبي ميت – فقد مات فهمه وغلب عليه وهمه ونادى على نفسه بحالة ظاهرة – أو عصبية لرأيه قاهرة ، فإنما عمر لم يتوسل بالعباس إلا لقرابته من رسول الله ρ تلمح ذلك في قوله وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا – وهو بذلك قد توسل برسول الله ρ على أبلغ الوجوه .

وقد بعد عن الصواب كل البعد من رمى المسلمين بالشرك بسبب ذلك مع قوله بجواز التوسل بالحي ، فإن التوسل لو كان شركاً ما جاز بالحي ولا الميت – ألا ترى أن اعتقاد الربوبية واستحقاق العبادة لغير الله من نبي أو ملك أو ولي هو شرك وكفر لا يجوز هنا في حياته الدنيا ولا الآخرة .

فهل سمعت من يقول : إن اعتقاد الربوبية لغير الله جائز إذا كان حياً أما بعد وفاته فشرك .

وقد عرفت أن اتخاذ المعظم وسيلة إلى الله تعالى لا يكون عبادة للوسيلة إلا إذا اعتقد انه رب كما كان ذلك شأن عباد الأوثان مع أوثانهم فإذا لم يعتقد ذلك فيه وكان مأموراً منه عز وجل باتخاذه وسيلة كان ذلك الاتخاذ عبادة للآمر سبحانه .

* * *

قصة العتبى في التوسل

قال الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير :

ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل ((الحكاية المشهورة)) عن العتبى قال : كنت جالساً عند قبر النبي ρ فجاء أعرابي فقال السلام عليك يارسول الله سمعت الله يقول : {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً } وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه :: فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه :: فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ρ في النوم فقال : [إلحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له] .

فهذه القصة رواها الإمام النووي في كتابه المعروف بالإيضاح في الباب السادس ص498 ، ورواها أيضاً الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسيره الشهير عند قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } .. الآية .

ورواها أيضاً الشيخ أبو محمد ابن قدامة في كتابه المغني (ج3 ص556)، ونقلها أيضاً الشيخ أبو الفرج ابن قدامة في كتابه الشرح الكبير (ج3 ص495)، ونقلها أيضاً الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه المعروف بكشاف القناع من أشهر كتب المذهب الحنبلي (ج5 ص30)[16] .

وذكر الإمام القرطبي عمدة المفسرين قصة تشبهها في تفسيره المعروف بالجامع قال: روى أبو صادق عن علي قال : قدم علينا أعرابي

---

[16] أنظر الملحق رقم 16 آخر الكتاب .

بعد ما دفنَّا رسول الله ρ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ρ وحثا على رأسه من ترابه فقال : قلت يارسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } .. الآية ، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر : إنه قد غفر لك .[تفسير القرطبي ج5 ص265] .

هذه قصة العتبى وهؤلاء هم الذين نقلوها وسواء أكانت صحيحة أم ضعيفة من ناحية السند الذي يعتمد عليه المحدثون في الحكم على أي خبر فإننا نتساءل ونقول هل نقل هؤلاء الكفر والضلال ؟ .. أو نقلوا ما يدعو إلى الوثنية وعبادة القبور ؟ .

إذا كان الأمر كذلك فأي ثقة فيهم أو في كتبهم ؟؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

أبيات العتبي على شباك النبي ρ

تقدم ذكر البيتين الذين أنشدهما الأعرابي عند زيارته للنبي ρ ، ورواها العتبى وهي :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وهذه الأبيات مكتوبة بفضل الله على المواجهة النبوية الشريفة في العامود الذي بين شباك الحجرة النبوية يراها القاصي والداني منذ مئات السنين حتى في عهد المرحوم الملك عبد العزيز ، فالملك سعود فالملك فيصل فالملك خالد رحمهم الله تعالى ، فالملك فهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله ، وستبقى بإذن الله بناء على توجيهات خادم الحرمين بالمحافظة على كل ما في المسجد النبوي الشريف وعدم إزالة أي أثر قديم .

* * *

الخلاصة :

والخلاصة أنه مما لا شك فيه أن النبي ρ له عند الله قدر علِيّ ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم ، فأي مانع شرعي أو عقلي يمنع التوسل به فضلاً عن الأدلة التي تثبته في الدنيا والآخرة – ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه فنحن ندعوه بما أحب أياً كان ، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما في حديث آدم السابق ، وكما في حديث فاطمة بنت أسد الذي ذكرناه ، وكما في حديث عثمان بن حنيف المتقدم ، وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما في قوله - ρ- [أسألك بأنك أنت الله] أو بصفته أو فعله كما في قوله في الحديث الآخر : [أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك] ، وليس مقصوراً على تلك الدائرة الضيقة التي يظنها المتعنتون .

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به ، وكذا كل من أحبه من نبي أو وليّ ، وهو واضح لدى كل ذي فطرة سليمة ولا يمنع منه عقل ولا نقل بل تضافر العقل والنقل على جوازه والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له ، لا النبي ولا الولي ولا الحي ولا الميت ، { قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } .

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي ρ أولى لأنه أفضل المخلوقات والأعمال منها والله أعظم حبّاً له - ρ - من الأعمال وغيرها – وليت شعري ما المانع من ذلك ، واللفظ لا يفيد شيئاً أكثر من أن للنبي قدراً عند الله ، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ، ومن ينكر قدره عند الله فهو كافر كما قلنا .

وبعد : فمسألة التوسل تدل على عظمة المسؤول به ومحبته ، فالسؤال بالنبي إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه وذلك مما لاشك فيه على أن التوسل بالأعمال متفق عليه ، فلماذا لا نقول : إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التي يحبها الله ، وقد ورد حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ؟ .

ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث أنهم صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها ، كما قلنا في صدر هذا البحث .

* * *

شبهــة مردودة

فهذه الأحاديث والآثار كلها تثبت التوسل وتؤيده ، فإن قيل : إن ذلك خاص بحياته ρ .

فـالجواب : أن هـذا التخـصيص لا دليـل عليـه خـصوصاً وأن الـروح باقية وهي التي يكون بها الإحساس والإدراك والشعور .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الميت يسمع ويحس ويشعر وأنـه ينتفع بالخير ويفرح ويتأذى بالشر ويحزن ، وهذا بالنسبة لكل إنسان ، ولذا نادى ρ أهل القليب من كفار قريش يوم بدر فقال: يا عتبة يا شيبة يا ربيعة ، فقيل لـه: كيف تناديهم وقد جيفوا ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم لكنهم لا يستطيعون الجواب .

فإذا كان هذا عاماً لكل إنسان فكيف بأفضل البشر وأكرمهم وأجلهم ، لا شك أنـه أكمل إحساساً وأتم إدراكاً وأقوى شعوراً على أنـه قد جاء التـصريح فـي الأحاديـث الكثيـرة بأنــه يـسمع الكـلام ويـرد الـسلام وتعـرض عليـه أعمـال الأمـة وأنـه يـستغفر لـسيئاتهم ويحمـد الله علـى حسناتهم .

وقيمـة الإنـسان فـي الحقيقـة إنمـا هـي بمقـدار شـعوره وإحـساسه وإدراكه لا بحياته ، ولذلك نرى كثيراً من الأحياء قد حرمهم الله تعـالى الإحـساس والـشعور الإنـساني مـع بـلادة الطبـع وقلـة الـذوق ولكنهم لا ينتفع بهم بل هم في صفوف الأموات والعياذ بالله .

* * *

زعم بعض الجهلة أن النبي ρ لا يسمعنا ولا يرانا ولا يعرفنا

ومن هؤلاء الموتى من زعم أن النبي ρ لا يسمع ولا يرى ولا يعرف عنا ولا يدعو الله تعالى لنا ، فأي جراءة أعظم من هذا ؟ وأي جهل أقبح من هذا ؟ إضافة إلى سوء الأدب والانتقاص لقدر النبي ρ ، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التي تثبت أن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء أكان مؤمناً أم كافراً .

قـال ابن القيم فـي كتـاب الـروح : والـسلف مجمعون علـى هذا وقد تواترت الآثار عنهم .

وقد سئل الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة فأفتى بما يؤيد ذلك (أنظر الفتاوى ج24 ص331 وص362) .

فإذا كان هذا في حق عامة البشر فما بالك بعامة المؤمنين بل بخاصة عباد الله الصالحين بل بسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ρ ، وقد فصلنا هذه المسألة في مبحث خاص بها في كتابنا هذا بعنوان : ((الحياة البرزخية حياة حقيقية)) بعنوان ((حياة خاصة بالنبي ρ)) .

* * *

بيان أسماء المتوسلين من أئمة المسلمين[17]

ونذكر هنا أسماء أشهر من يقول بالتوسل ، أو ممن نقل أدلته – من كبار الأئمة وحفاظ السنة .

1 – فمنهم الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم في كتابه [المستدرك] على الصحيحين ، فقد ذكر حديث توسل آدم بالنبي ρ وصححه .

2 – ومنهم الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه [دلائل النبوة] ، فقد ذكر حديث آدم وغيره ، وقد التزم أن لا يخرج الموضوعات .

3 – ومنهم الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه [الخصائص الكبرى] فقد ذكر حديث توسل آدم .

4 – ومنهم الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه (الوفاء) ، فقد ذكر الحديث وغيره .

---

[17] أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 17 .

5 – ومنهم الإمام الحافظ القاضي عياض في كتابه ((الشفا في التعريف بحقوق المصطفى)) ، فقد ذكر في باب الزيارة وباب فضل النبي ρ كثيراً من ذلك .

6 – ومنهم الإمام الشيخ نور الدين القاري المعروف بملا علي قاري في شرحه على الشفا في المواطن السابقة .

7 – ومنهم العلامة أحمد شهاب الدين الخفاجي في شرحه على الشفا المسمى ((بنسيم الرياض)) ، في المواطن السابقة .

8 – ومنهم الإمام الحافظ القسطلاني في كتابه [المواهب اللدنية] في المقصد الأول من الكتاب .

9 – ومنهم العلامة الشيخ محمد عبد الباقي الزرقاني في شرحه على المواهب (ج1 ص44).

10 – ومنهم الإمام شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى النووي في كتابه الإيضاح [في الباب السادس ص498] .

11 – ومنهم العلامة ابن حجر الهيتمي في حاشيته على الإيضاح ص499 ، وله رسالة خاصة في هذا الباب تسمى بـ[الجوهر المنظم] .

12 – ومنهم الحافظ شهاب الدين محمد بن محمد بن الجوزي الدمشقي في كتابه [عدة الحصن الحصين] في فضل آداب الدعاء .

13 – ومنهم العلامة الإمام محمد بن علي الشوكاني في كتابه [تحفة الذاكرين] ص161 .

14 – ومنهم العلامة الإمام المحدث علي بن عبد الكافي السبكي في كتابه [شفاء السقام في زيارة خير الأنام] .

15 – ومنهم الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسير قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } .. فقد ذكر قصة العتبي مع الأعرابي الذي جاء زائراً قاصداً مستشفعاً بالنبي ρ ، ولم يعترض عليها بشيئ ،

وذكر قصة توسل آدم بالنبي ρ في [البداية والنهاية] ولم يحكم بوضعها (ج1 ص180) .

وذكر قصة الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ρ وتوسل به وقال : إن إسنادها صحيح (ج1 ص91) .

- وذكر أن شعار المسلمين يامحمداه (ج6 ص324) .

16 – ومنهم الإمام الحافظ ابن حجر الذي ذكر قصة الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ρ وتوسل به وصحح سندها في فتح الباري (ج2 ص495) .

17 – ومنهم الإمام المفسر أبو عبد الله القرطبي في تفسير قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } (ج5 ص265) .

* * *

الصحابة يطلبون من النبي ρ الشفاعة

زعم بعضهم أنه لا يجوز أن تطلب الشفاعة من النبي ρ في الدنيا بل ذهب البعض الآخر من المتعنتين إلى أن ذلك شرك وضلال ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : { قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً } وهذا الاستدلال باطل ولا يدل على فهمهم الفاسد وذلك من وجهين .

أولاً :

أنه لم يرد نص لا في الكتاب ولا في السنة ينهى عن طلب الشفاعة من النبي ρ في الدنيا .

ثانياً :

أن هذه الآية لا تدل على ذلك بل شأنها شأن غيرها من الآيات التي جاءت لبيان اختصاص الله سبحانه وتعالى بما هو ملك له دون غيره بمعنى أنه هو المتصرف فيه ، وهذا لا ينفي أنه يعطيه من يشاء إذا أراد فهو مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ونظير

هذا قولـه عز وجل { لَـهُ الْمُلْكُ وَلَـهُ الْحَمْدُ } ، ووصف نفسه أنـه مالـك الملك مع قوله سبحانه وتعالى : { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء } ، وقوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّـهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً } مع قولـه عز وجل : { وَلِلَّـهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } ، وكذلك في الـشفاعة قـال : { قُل لِّلَّـهِ الـشَّفَاعَةُ جَمِيعـاً } .. مـع قولـه تعـالى : { لَـا يَمْلِكُونَ الـشَّفَاعَةَ إِلَّـا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الـرَّحْمَنِ عَهْداً } ، وقولـه عز وجل : { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِـهِ الـشَّفَاعَةَ إِلَّـا مَن شَـهِدَ بِـالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ، فكمـا أنـه سبحانه وتعـالى أعطـى مـن شـاء مـا شـاء ـ وجعل مـن العزة التـي هـي لـه مـا شـاء لرسـولـه والمـؤمنين ـ كذلك الشفاعة كلها لـه وقد أعطاها للأنبيـاء وعبـاده الـصالحين بـل وكثيـر من عامة المؤمنين كما نطقت به صحاح الأحاديث المتواترة معنوياً .

وأي حرج في أن يطلب الإنسـان من المالك بعض ما يملكـه لا سيما إذا

كان المسئول كريماً والسائل في أشد الحاجة إلى ما سأله ، وهل الشفاعة إلا الدعاء والدعـاء مـأذون فيـه ، مقدور عليـه ، مقبول لا سيما الأنبيـاء والصالحين في الحياة وبعد الوفاة في القبر ويوم القيامة فالشفاعة معطاة لمن اتخذ عند الله عهداً ، ومقبولـة لديـه عز وجل فـي كـل مـن مـات علـى التوحيد .

وقد ثبت أن بعض الـصحابة سأل النبـي ρ الـشفاعة ، ولـم يقل ρ : إن طلبك الشفاعة مني شرك فاطلبها من الله ولا تشرك بربك أحداً .

هذا أنس بن مالك رضي الله عنـه يقول : يـا نبـي الله اشـفع لـي يـوم القيامة فيقول له ρ :

((أنا فاعل إن شاء الله)) ..

رواه الترمذي في السنن وحسنه في باب ما جاء في صفة الصراط ، وكذلك سأل الشفاعة غير أنس .

فهذا سواد بن قارب يقول بين يدي رسول الله ρ :

وأشهد أن الله لا رب غيره :: وأنك مأمون على كل غائب

وأنك أدنى المرسلين وسيلة :: إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

إلى أن يقول :

فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة :: سواك مغن عن سواد بن قارب

رواه البيهقي في دلائل النبوة ، ورواه أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ، وأقره رسول الله ρ ولم ينكر طلب الشفاعة منه .

وطلب الشفاعة منه أيضاً مازن بن العضوب لما جاء مسلماً وأنشد يقول :

إليك رسول الله خبت مطيتي :: تجوب الفيافي من عمان إلى العرج

لتشفع لي يا خير من وطئ الحصا :: فيغفر لي ربي فأرجع بالفلج

(رواه أبو نعيم في دلائل النبوة ص77)

وطلب الشفاعة منه عكاشة بن محصن حين ذكر ρ السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فقال عكاشة : أدع الله أن يجعلني منهم ، فقال مباشرة وبلا مراجعة : (أنت منهم) .

ومعلوم أنه لا ينال أحد كائناً من كان هذه الأسبقية إلا بعد شفاعته الكبرى ρ في أهل الموقف كما هو ثابت في الأحاديث المتواترة ، فهذا في معنى طلب الشفاعة .

ونظائر هذا كثيرة في كتب السنة المشرفة وهي كلها تدل على جواز طلب الشفاعة منه ρ في الدنيا ، منهم من طلبها بالتعيين بقوله : إشفع لي أو طلب دخول الجنة أو طلب أن يكون من السابقين ، أو طلب أن يكون من أهل الحوض أو طلب مرافقته في الجنة كما حصل من ربيعة الأسلمي إذ قال : أسألك مرافقتك في الجنة فأرشده النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطريق بقوله : أعنّي على نفسك بكثرة السجود ، ولم يقل له ولا لغيره ممن طلب الجنة أو طلب المعية أو تمنى أن يكون من أهل الجنة ، أو أن يكون من أهل الحوض ، أو أن يكون من المغفور لهم : إن هذا حرام ، ولا يجوز أن يطلب الآن ، وأن وقته لم يأت ، وانتظر حتى يأذن الله في الشفاعة ، أو في دخول الجنة ، أو في الشرب من الحوض مع أن هذه الأمور المطلوبة كلها لا تكون إلا بعد الشفاعة العظمى فهي في معنى طلب الشفاعة والنبي ρ بشرهم بذلك ووعدهم بما جبر خواطرهم وأقر أعينهم ، وحاشا أن يكون ذلك ممنوعاً ثم لا يبين لهم حكمه مجاملة أو مداراة وهو الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ، وإنما يجبر الخواطر ويرضي النفوس بما هو دائر في فلك الحق ونابع من أصل الدين وبعيد عن كل باطل أو نفاق .

وإذا صح طلب الشفاعة منه في الدنيا قبل الآخرة فإن معنى ذلك أنه سينالها حقيقة في محلها يوم القيامة وبعد أن يأذن الله تعالى للشفعاء بالشفاعة ، لا أنه ينالها هنا قبل وقتها .

وهذا في الحقيقة نظير بشارته بالجنة لكثير من المؤمنين فإن معناه أنهم سيدخلون الجنة يوم القيامة وبعد أن يأذن الله تعالى بالدخول في الوقت المعلوم ،

لا أنه سيدخلها هنا في الدنيا أو البرزخ ، ولا أظن أن عاقلاً من عوام المسلمين يعتقد خلاف ذلك .

وإذا صح طلب الشفاعة منه في الدنيا في حياته فإننا نقول : لا بأس بطلبها منه أيضاً بعد موته بناء على ما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة من حياة الأنبياء الحياة البرزخية ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكملهم وأعظمهم في ذلك إذ يسمع الكلام وتعرض عليه أعمال الأمة ويستغفر الله لهم ويحمد الله ، وتبلغه صلاة من يصلي عليه ولو كان في أقصى المعمورة ، كما جاء في الحديث الذي صححه جمع من الحفاظ وهو : حياتي خير لكم تحدثون وتحدث لكم ، ومماتي خير لكم تعرض أعمالكم عليّ فإن وجدت خيراً حمدت الله ، وإن وجدت شراً استغفرت الله لكم .

وهذا الحديث صححه من الحفاظ ، العراقي والهيثمي والقسطلاني والسيوطي وإسماعيل القاضي ، وقد فصلنا تخريجه في غير هذا الموضع .

فلو طلبت منه الشفاعة فإنه قادر على أن يدعو الله ويسأله ، كما كان يفعل في حياته ، ثم ينالها العبد في محلها بعد أن يأذن الله تعالى ، كما تحصل الجنة لمن بشّر بها في الدنيا ، فإنه ينالها في وقتها بعد أن يأذن الله بدخول الجنة ، فهذه وتلك سواء .

هذا ما نعتقده ونعقد عليه قلوبنا .

* * *

تفسير ابن تيمية لآيات الشفاعة ويستفاد منه جواز طلب الشفاعة من النبي ρ في الدنيا

ذكر الشيخ ابن تيمية في الفتاوى تحليلاً نفيساً للآيات الواردة في منع الشفاعة وعدم الانتفاع بها والنهي عن طلبها مع أن هذه الآيات هي التي يستدل بها بعضهم على منع طلب الشفاعة من النبي ρ في الدنيا .

ويظهر من كلام الشيخ ابن تيمية في معنى تلك الآيات أن الاستدلال بها على ما يزعمون في غير محله وتحريف لها عن مواضعها . قال الشيخ :

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : { وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} وبقوله : { وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ } ، وبقوله : { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } ، وبقوله : { فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان :

أحدهما :

أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى في نعتهم : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ {42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ {43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ {44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ {45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ {46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ {47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا .

والثاني :

أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدعة من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيتشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله .

قلت هذا كلام الشيخ ابن تيمية بلفظه ، ومنه يظهر جلياً حقيقة هذه الآيات التي يستدل بها المنكرون لطلب الشفاعة من النبي ρ في الدنيا ، أو القائلون بأنها شرك وضلال .

وخلاصة كلامه هو أن المراد بذلك هو أن الشفاعة لا تنفع المشركين . فالآيات واردة في هذه القضية ، أو أن المراد بذلك هو نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك وهي أن يعتقد أن الشافع يملك ذلك بغير إذن الله سبحانه وتعالى ، وهذا الذي ذكره الشيخ هو ما نعتقده بفضل الله ، ونقول : إن طالب الشفاعة منه ρ إن اعتقد أو ظن أنه ρ يشفع بغير إذن الله فهذا شرك أو ضلال لا نشك في ذلك ولا نرتاب – ولكنه حاشا وكلا ثم حاشا وكلا أن نعتقد ذلك أو نظنه ونبرأ إلى الله من ذلك .

وإننا حين نطلب الشفاعة فإننا نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا يشفع أحد إلا بإذنه سبحانه وتعالى ، ولا يقع شيء إلا برضاه وتأييده .

وإنما هذا كطلب دخول الجنة وطلب الشرب من الحوض المورود وطلب النجاة على الصراط ، فكلها لا تحصل إلا بإذن الله وفي وقتها الذي قدره الله تعالى لها ، وهل يشك في ذلك عاقل أو يخفى على من له أدنى معرفة أو قراءة في كتب السلف من أصغر طلاب العلم الشريف .

اللهم افتح مسامع قلوبنا ونور أبصارنا .

* * *

إياك نعبد وإياك نستعين

إننا نعتقد اعتقاداً جازماً لازماً لا شك فيه ولا ريب أن الأصل في الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء ، والسؤال هو أن يكون لله سبحانه وتعالى فهو المعين والمغيث والمجيب .

قال الله تعالى : { وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ{106}وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ } ، وقال : { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } ، وقال : {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } الآيتين ، وقال : { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ } فالعبادة بجميع أنواعها لابد أن تصرف لله وحده ولا يجوز صرف شيء منها لغير الله كائناً من كان { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } .

فلا نذر إلا لله ولا دعاء إلا له ولا ذبح إلا له ولا استغاثة ولا استعاذة ولا استعانة ولا حلف إلا بالله ولا توكل إلا عليه سبحانه وتعالى عما يشرك به المشركون علواً كبيراً .

ونحن نعتقد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا ميت ، وليس لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق أو إحياء أو إماتة ، وليس أحد من الخلق قادراً على الفعل أو الترك بنفسه استقلالاً دون الله أو بالمشاركة مع الله أو أدنى من ذلك .

فالمتصرف في الكون هو الله سبحانه وتعالى ولا يملك أحد شيئاً إلا إذا ملكه الله ذلك وأذن له في التصرف فيه ، ولا يملك أحد لنفسه فضلاً عن غيره نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا نشوراً إلا ما شاء الله بإذن الله فالنفع والضر حينئذ محدود بهذا الحد ومقيد بهذا القيد ونسبته إلى الخلق على سبيل التسبب والتكسب لا على سبيل الخلق أو الإيجاد أو التأثير أو العلة أو القوة والنسبة في الحقيقة مجازية

ليست حقيقية ، ولكن الناس يختلفون في التعبير عن هذه الحقائق[14] ، فمنهم من يسرف في استعمال المجاز إسرافاً شديداً حتى يقع في شبه لفظية هو منها برئ وقلبه سليم منعقد على كمال التوحيد والتنزيه لله سبحانه وتعالى .

ومنهم من يتمسك بالحقيقة تمسكاً زائداً عن حد الاعتدال فيصل به إلى التعنت والتشدد والإساءة إلى الناس بمعاملتهم على خلاف معتقدهم وحملهم على ما لا يقصدون وإلزامهم بما لا يريدون والحكم عليهم بما هم عنه بريئون والواجب الاعتدال والبعد عن كل ذلك فهو أسلم للدين وأحوط في حماية مقام التوحيد . والله أعلم .

---

[14] هذه النقطة مفصلة في مبحث خاص بها بعنوان : (المجاز العقلي واستعماله) .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية خلاصة موجزة مفيدة في بيان ما يختص بالحق سبحانه وتعالى وهو عين ما نعتقده وندين الله تعالى به .. لأن عقيدتنا سلفية بفضل الله وطريقتنا محمدية ونقول بهذا الذي يقول به ابن تيمية .

قال الشيخ ابن تيمية والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ، ولا الدعاء إلا له ، ولا التوكل إلا عليه ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرهبة إلا منه ، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، ولا حول ولا قوة إلا به ، { وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } ، { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } .

{ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً {94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً }،وقال تعالى: { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وكذلك في قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}،فالإيتاء لله والرسول، وأما التوكل فعلى الله وحده ، والرغبة إلى الله وحده.

(كذا في الفتاوى ج11 ص98)

* * *

الاستعانة والتوجه بالطلب للنبي ρ

ذكرنا فيما تقدم أننا نعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه ولا ريب أن الأصل في الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال هو أن يكون لله سبحانه وتعالى فهو المعين والمغيث والمجيب ، يقول الله عز وجل : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } فمن استعان بمخلوق أو استغاث به أو ناداه أو سأله أو طلبه سواء كان حياً أو ميتاً معتقداً أنه ينفع أو يضر بنفسه استقلالاً دون الله فقد أشرك ، لكن الله أجاز للخلق أن يستعين بعضهم ببعض وأن يستغيث بعضهم ببعض ، وأمر من استعين أن يعين ، ومن استغيث أن يغيث ومن نودي أن يجيب ، والأحاديث على هذا كثيرة جداً كلها تدل على إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج وتفريج الكربات والنبي ρ أعظم من يستغاث به إلى الله سبحانه وتعالى في كشف الكربات وقضاء الحاجات .

فأي شدة أكبر من شدة يوم القيامة حين تطول الوقفة وتشتد الزحمة ويتضاعف الحر ويلجم العرق من شاء الله ومع عظم هذه الشدة وبلوغها الغاية فإن الناس يستغيثون إلى الله بخيرة خلقه كما قال الرسول ρ : وبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ، الحديث ، وقد عبر فيه ρ بلفظ الاستغاثة ، وهو بهذا اللفظ في صحيح البخاري .

وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستعينون به ρ ويستغيثون ويطلبون منه الشفاعة ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدين والعجز ويفزعون إليه عند الشدائد ويطلبون منه ويسألونه معتقدين أنه ليس إلا واسطة وسبباً في النفع والضر والفاعل حقيقة هو (الله) .

* * *

أبو هريرة يشكو النسيان

أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان لما يسمعه من حديثه الشريف وهو يريد أن يزول عنه ذلك – فقال رضي الله عنه : يا رسول الله ! [إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه فأحب أن لا أنسى فقال ρ :

((ابسط رداءك)) فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء في الرداء ثم قال : ضمه فضمه ، قال أبو هريرة : فما نسيت شيئاً بعد .

رواه البخاري في كتاب العلم باب حفظ العلم [رقم الحديث 119] .

فها هو أبو هريرة يطلب منه عليه الصلاة والسلام عدم نسيان شيء وهو مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل – فلم ينكره ولم يرمه بشرك ، لما يعلم كل أحد أن الموحد إذا طلب شيئاً من ذوي الجاه عند الله فلا يريد منهم أن يخلقوا شيئاً ولا هو معتقد فيهم شيئاً من ذلك وإنما يريد أن يتسببوا له بما أقدرهم الله عليه من دعاء وما شاء الله من تصرف .

وها أنت ذا ترى أنه عليه الصلاة والسلام أجابه إلى مطلبه ، ولم يرد أنه دعا له في هذه القصة ، وإنما غرف له من الهواء ، وألقاه في الرداء وأمره فضمه إلى صدره فجعل الله ذلك تفضلاً سبباً لقضاء حاجته .

وكذلك لم يقل له عليه الصلاة والسلام : مالك تسألني والله أقرب إليك مني ؟ لما هو معلوم عند كل أحد أن المعول عليه في قضاء الحوائج من بيده مقاليد الأمور إنما هو أقربية الطالب منه عز وجل وكمال مكانته عنده .

قتادة يستغيث به لإصلاح عينه :

وقد ثبت أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها ، فقال : لا حتى أستأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأمره ، فقال : لا ، ثم وضع راحته على حدقته ثم غمزها فعادت كما كانت فكانت أصح عينيه .

رواه البغوي وأبو يعلى وأخرجه الدارقطني وابن شاهين والبيهقي في الدلائل ، ونقلها الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج3 ص225) ، والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (ج4 ص297) ، والحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى .

وآخر يستعين به في زوال سلعته :

عن محمد بن عقبة بن شرحبيل عن جده عبد الرحمن عن أبيه قال : أتيت رسول الله ρ وبكفي سلعة فقلت : يا نبي الله ! هذه السلعة قد أورمتني لتحول بيني وبين قائم السيف أن أقبض عليه وعن عنان الدابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((أدن مني)) ..

قال : فدنوت ففتحها فنفث في كفي ثم وضع يده على السلعة فما زال يطحنها بكفه حتى رفع عنها وما أرى أثرها .

رواه الطبراني وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (ج8 ص298) .

والسلعة (دمل) تظهر تحت الجلد .

معاذ يطلب منه إصلاح يده :

وفي يوم بدر ضرب عكرمة بن أبي جهل معاذ بن عمرو بن الجموح على عاتقه أثناء القتال يقول معاذ : فضرب يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها .

قال في المواهب : وجاء معاذ بن عمرو يحمل يده ، وضربه عليها عكرمة ، إلى رسول الله ρ ، كما ذكر القاضي عياض عن ابن وهب ، فبصق عليه الصلاة والسلام عليها فلصقت .

ذكر هذه القصة الزرقاني وأسندها إلى ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم .

الاستعانة والاستغاثة به إلى الله في البلاء :

وقد استفاضت النصوص الصحيحة التي تنطق بأنهم كانوا إذا أصابهم القحط وانقطع عنهم المطر فزعوا إليه مستشفعين متوسلين طالبين مستغيثين به إلى الله فيعرضون عليه حالهم ويشكون ما نزل بهم من البلاء والشر .

فهذا أعرابي يناديه وهو صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ويقول :

((يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا فدعا الله وجاء المطر إلى الجمعة الثانية ، فجاء وقال : يا رسول الله تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي .. يعني من كثرة المطر فدعا ρ فانجاب السحاب وصار المطر حول المدينة)) ..

(رواه البخاري في كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا) .

وروى أبو داود بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت شكا الناس إلى رسول الله قحوط المطر .

رواه أبو داود في كتاب الصلاة أبواب الإستسقاء .

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس ، بسند ليس فيه متهم بالوضع وانظر فتح الباري (ج2 ص495) .

عن أنس بن مالك أن أعرابياً جاء إلى النبي ρ فقال : يا رسول الله ! أتيناك ومالنا بعير يئط ، ولا صبي يغط ، ثم أنشد :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها

وقد شغلت أم الصبي عن الطفل

وألقـى بكفيه الفتى استكانـة

من الجوع ضعفـاً ما يمر ولا يحلى

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا

سوى الحنظل العامي والعلهز الغسل

ولـيس لنـا إلا إليك فرارنا

وأيـن فرار النـاس إلا إلى الـرسل

فقام يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه فقال :

((اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير رائث تملأ به الضرع ، وتنبت به الزرع ، وتحيي به الأرض بعد موتها . قال فما رد رسول الله ρ يديه حتى ألقت السماء بأردافها ، وجاء الناس يضجون الغرق ، فقال ρ : حوالينا ولا علينا)) ..

فانجاب السحاب عن المدينة .

فانظر كيف أسند ρ الإغاثة والنفع ونحوهما – إلى الغيث على سبيل المجاز في الإسناد ، وكيف أقر الشاعر على قوله وليس لنا إلا إليك فرارنا – البيت ولم يعده مشركاً – لأن القصر فيه إضافي ، وهل كان يخفى عليه ρ قوله تعالى : { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ } ، وقد أنزلت عليه .

والمعنى أن الفرار المرجو نفعه المؤكد – إليك لا إلى من دونك ، وإلى الرسل لا إلى من دونهم – فإن المرسلين أعلى من بهم يتوسل إلى الله عز وجل ، وأعظم من يقضي الله الحوائج على أيديهم للملتجئين إليهم والمستغيثين وتأمل جيداً – تأثره الشديد ρ بما أنشده هذا الشاعر ، وشدة سرعته إلى نجدتهم وإغاثتهم حيث قام إلى المنبر يجر رداءه – ولم يتمهل حتى يصلحه استعجالاً لإجابة داعيه ، وإسراعاً إلى إغاثة مناديه ، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

* * *

النبي ρ هو ركننا وعصمتنا وملاذنا

ولقد نـاداه حسان بن ثابت ووصفه بأنـه الركن الذي يعتمد عليـه والعصمة الذي يلجأ إليه ، فقال :

يا ركـن معتمـد وعصمـة لائذ

ومـلاذ منتجـع وجـار مجاور

يا مـن تخيره الإلـه لخلقـه

فحباه بالخلـق الزكـي الطاهر

أنت النبـي وخير عصبـة آدم

يا مـن يجود كفيض بحر زاخـر

ميكـال معك وجبرئيـل كلاهما

مدد لنصرك من عزيـز قادر

أنظر الإصابة : (264/1) والروض الأنف : (91/2) .

حمزة فاعل الخيرات وكاشف الكربات

عند ابن شاذان من حديث ابن مسعود : ما رأينـا رسول الله ρ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب وضعه في القبلـة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول : يا حمزة يا عم رسول الله ρ وأسد الله وأسد رسوله يا حمزة يا فاعل الخيرات يا حمزة يا كاشف الكربات يا ذاب عن وجه رسول الله – من المواهب اللدنيـة (ج1 ص212) .

لا فرق بين الحياة والموت :

فإن قال قائل : إن الاستغاثة به ρ وشكوى الحال إليه وطلب الشفاعة والعون منه وكل ما يكون في هذا الباب إنما يصح في حياته ، أما بعد موته فهو كفر وربما تسامح فقال : (غير مشروع) أو قال : (لا يجوز) .

فنقول : إن الاستغاثة والتوسل إن كان المصحح لطلبها هو الحياة كما يقولون فالأنبياء أحياء في قبورهم وغيرهم من عباد الله المرضيين .

ولو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل والاستغاثة به ρ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى فإنه حيي الدارين دائم العناية بأمته ، متصرف بإذن الله في شؤونها خبير بأحوالها تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته ويبلغه سلامهم على كثرتهم .

ومن اتسع علمه بشئون الأرواح وما جعلها الله عليه من الخصائص لا سيما العالية منها اتسع قلبه للإيمان بذلك فكيف بروح الأرواح ونور الأنوار نبينا عليه الصلاة والسلام .

ولو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به عليه الصلاة والسلام شركاً وكفراً – كما توهموه – لما جاز في حال من الأحوال لا في الحياة الدنيا ولا في الحياة الأخرى لا يوم القيامة ولا قبلها فإن الشرك ممقوت عند الله في كل حال .

* * *

دعوى باطلة

أما دعوى أن الميت لا يقدر على شيء فهي باطلة لأنه إن كان ذلك لكونهم يعتقدون أن الميت صار تراباً فهذا عين الجهل بما ورد عن نبينا ρ بل عن ربنا جل جلاله من ثبوت حياة الأرواح وبقائها بعد مفارقة الأجسام ومناداة النبي ρ - لها يوم بدر :

((يا عمرو بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا فلان ابن فلان إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً)) ..

فقيل له : ما ذلك ؟ فقال :

((ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)) ..

ومن ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله :

((السلام عليكم يا أهل الديار)) ..

ومن ذلك عذاب القبر ونعيمه ، وإثبات المجئ والذهاب إلى الأرواح إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي جاء بها الإسلام وأثبتتها الفلسفة قديماً وحديثاً .

ولنقتصر هنا على هذا السؤال :

أيعتقدون أن الشهداء أحياء عند ربهم كما نطق القرآن بذلك أم لا ؟
فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم لأنهم كذبوا القرآن حيث يقول : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } .. { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } .

وإن اعتقدوا ذلك فنقول لهم : إن الأنبياء وكثيراً من صالحي المسلمين الذين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية فإذا ثبتت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى على أن حياة الأنبياء مصرح بها في الأحاديث الصحيحة .

فإذن نقول : حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية فلا يسعنا بعد

ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما إن نفي اللازم يوجب نفي الملزوم كما هو معروف .
وأي مانع عقلاً من الاستغاثة إلى الله بها والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة في قضاء حوائجه أو كما يستعين الرجل بالرجل [وأنت بالروح لا بالجسم إنسان] .
وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى مماسة ولا آلة ، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا فإنها من عالم آخر ، { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ، وماذا يفهمون من تصرف الملائكة أو الجن في هذا العالم ؟
ولا شك أن الأرواح لها من الاطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء بل أشد وأعظم .
فإن كانوا لا يعرفون إلا المحسوسات ولا يعترفون إلا بالمشاهدات فهذا هو شأن الطبيعيين لا المؤمنين على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئاً ولكن نقول لهم : إذا فرضنا ذلك وسلمنا جدلاً فلنا أن نقرر أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح في هذا العالم ، بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم كما يدعو الرجل

الصالح لغيره ، فيكون من دعاء الفاضل للمفضول ، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه ، وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون ، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب الترابية وعدم منازعات الشهوات البشرية .

وقد جاء في الحديث [15] : أن أعمالنا تعرض عليه - ρ - فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا ، ولنا أن نقول : إن المستغاث به والمطلوب منه الإغاثة هو الله تعالى ، ولكن السائل يسأل متوسلاً إلى الله بالنبي ρ في أنه يقضي حاجته ، فالفاعل هو الله ، ولكن أراد السائل أن يسأله تعالى
ببعض المقربين لديه الأكرمين عليه ، فكأنه يقول : أنا من محبيه [أو محسوبيه] فارحمني لأجله وسيرحم الله كثيراً من الناس لأجل النبي ρ - وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة فإكرام الله لبعض أحباب النبي ρ لأجل نبيه بل بعض العباد لبعض ، أمر معروف غير مجهول ، ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم : وقد جئناك شفعاء فشفعنا .

* * *

هل طلب ما لا يقدر عليه إلا الله شرك ؟

ومن جملة الدعاوى الباطلة التي يستمسك بها هؤلاء المكفرون لمن يتوسل بالنبي ρ أو يطلب منه هو قولهم: إن الناس يطلبون من الأنبياء والصالحين الميتين ما لا يقدر عليه إلا الله وذلك الطلب شرك .

وجوابه أن هذا سوء فهم لما عليه المسلمون في قديم الدهر وحديثه فإن الناس إنما يطلبون منهم أن يتسببوا عند ربهم في قضاء ما طلبوه من الله عز وجل بأن يخلقه سبحانه بسبب تشفعهم ودعائهم وتوجههم كما صح ذلك في الضرير وغيره ممن جاء طالباً مستغيثاً متوسلاً به إلى الله وقد أجابهم إلى طلبهم وجبر خواطرهم وحقق مرادهم بإذن الله ولم يقل ρ لواحد منهم : أشركت ، وهكذا كل ما طلب منه من خوارق العادات كشفاء الداء العضال بلا دواء وإنزال المطر من السماء حين الحاجة إليه ولا سحاب ، وقلب الأعيان ونبع الماء من الأصابع ،

---

[15] ذكرنا هذا الحديث في غير موضع من هذا الكتاب مع تخريجه .

وتكثير الطعام وغير ذلك فهو مما لا يدخل تحت قدرة البشر عادة وكان يجيب إليه ولا يقول عليه الصلاة والسلام لهم : إنكم أشركتم فجددوا إسلامكم فإنكم طلبتم مني ما لا يقدر عليه إلا الله .

أفيكون هؤلاء أعلم بالتوحيد وبما يخرج عن التوحيد من رسول الله وأصحابه ، هذا ما لا يتصوره جاهل فضلاً عن عالم .

وحكى القرآن المجيد قول نبي الله سليمان لأهل مجلسه من الجن والإنس : { يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } .. فهو يطلب منهم الإتيان بالعرش العظيم من اليمن إلى موضعه بالشام على طريقة خارقة للعادة ليكون ذلك آية لصاحبته داعية إلى إيمانها .

ولما قال عفريت من الجن : { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } ، يعني في ساعات قليلة ، قال نبي الله عليه الصلاة والسلام : أريد أعجل من ذلك ، فقال الذي عنده علم من الكتاب وهو أحد الصديقين من أهل مجلسه من الإنس : { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } يعني قبل أن يرجع إليك طرفك إذا أرسلته ، فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك أريد فدعا الرجل فإذا بالعرش بين يديه .

فالإتيان بالعرش على هذه الطريقة هو مما لا يقدر عليه إلا الله وليس داخلاً تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة وقد طلبه سليمان من أهل مجلسه ، وقال ذلك الصديق له : أنا أفعل ذلك ، أفكفر نبي الله سليمان بذلك الطلب وأشرك وليّ الله بهذا الجواب حاشاهما من ذلك ، وإنما إسناد الفعل في الكلامين على طريقة المجاز العقلي ، وهو سائغ بل شائع .

وكشف الخفاء عن هذا اللبس إن كان ثم خفاء هو أن الناس إنما يطلبون منهم التشفع إلى الله في ذلك وهو مما أقدرهم الله عليه ، وملكهم إياهم ، فالقائل يا نبي الله إشفني أو اقض ديني ، فإنما يريد إشفع لي في الشفاء وادع لي بقضاء ديني وتوجه إلى الله في شأني

فهم ما طلبوا منه إلا ما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه من الدعاء والتشفع .

وهذا هو الذي نعتقده فيمن قال ذلك وندين الله على هذا فالإسناد في كلام الناس من المجاز العقلي الذي لا خطر فيه على من نطق به كقوله سبحانه وتعالى : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ } ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ((إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم)) ..

وهو في كلام الله ورسوله والخاصة والعامة كثير جداً وليس فيه محذور فإن صدوره من الموحدين قرينة على مرادهم وليس فيه شيء من سوء الأدب ، وقد فصلنا هذه الحقيقة في مبحث خاص بها من هذا الكتاب .

إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله

[هذا طرف من الحديث المشهور الذي رواه الترمذي وصححه عن ابن عباس مرفوعاً] .

وهذا الحديث يخطئ كثير من الناس في فهمه ، إذ يستدل به على أنه لا سؤال ولا استعانة مطلقاً من كل وجه وبأي طريق إلا بالله ويجعل السؤال والاستعانة بغير الله من الشرك المخرج من الملة ، وهو بهذا ينفي الأخذ بالأسباب والاستعانة بها ويهدم كثيراً من النصوص الواردة في هذا الباب .

والحق أن هذا الحديث الشريف ليس المقصود به النهي عن السؤال والاستعانة بما سوى الله كما يفيده ظاهر لفظه ، وإنما المقصود به النهي عن الغفلة عن أن ما كان من الخير على يد الأسباب فهو من الله ، والأمر بالانتباه إلى أن ما كان من نعمة على يد المخلوقات فهو من الله وبالله ، فالمعنى : وإذا أردت الاستعانة بأحد من المخلوقين ، ولابد لك منها فاجعل كل اعتمادك على الله وحده ولا تحجبنك الأسباب عن رؤية المسبب جل جلاله ، ولا تكن ممن يعلمون ظاهراً من هذه الارتباطات والعلاقات بين الأشياء المترتب بعضها على بعض ، وهم عن الذي ربط بينها غافلون .

وقد أومأ هذا الحديث نفسه إلى هذا المعنى ، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام عقب هذه الجملة الشريفة : ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن

اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)) فأثبت لهم كما نرى نفعاً وضراً بما كتبه الله للعبد أو عليه .

فهذا منه ρ يوضح مراده .

وكيف ننكر الاستعانة بغيره ، وقد جاء الأمر بها في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة ، قال تعالى : {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} ، وقال : { وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ } .

وحكي عن العبد الصالح ذي القرنين قوله : { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ } ، وفي مشروعية صلاة الخوف الثابتة بالكتاب والسنة مشروعية استعانة بعض الخلق ببعض ، وكذا في أمره تعالى المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم .

وكذا في ترغيبه عليه الصلاة والسلام للمؤمنين في قضاء حوائج بعضهم بعضاً ، والتيسير على المعسر والتفريج عن المكروب ، وفي ترهيبه من إهمال ذلك ، وهو في السنة كثير ، روى الشيخان : من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام : ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)) . وقال ρ :

((إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله)) .

فانظر إلى قوله ρ :

((يفزع إليهم في حوائجهم)) ولم يجعلهم مشركين بل ولا عاصين ..

وروي أيضاً مرفوعاً :

((إن لله عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يملوهم ، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم)) ..

وروى هو وابن أبي الدنيا عنه ρ :

((إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، يقرهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم)) ..

قال الحافظ المنذري : ولو قيل بتحسين سنده لكان ممكناً . وقال ρ :

((لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته – وأشار باصبعه – أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين)) ..

رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

* * *

وإذا سألت فاسأل الله

أما قوله صلى الله عليه وسلم :

((وإذا سألت فاسأل الله)) ..

فإنه لا مستمسك فيه ولا دليل لمنع السؤال أو التوسل ، ومن فهم من ظاهره منع السؤال من الغير مطلقاً أو منع التوسل بالغير على الإطلاق فقد أخطأ الطريق وغالط نفسه كل المغالطة وذلك لأن من اتخذ الأنبياء والصالحين وسيلة إلى الله ، لجلب خير منه عز وجل أو دفع خير كذلك ، فهو ليس إلا سائلاً الله وحده أن ييسر له ما طلب أو يصرف عنه ما شاء متوسلاً إليه بمن توسل به ، وهو في ذلك آخذ بالسبب الذي وضعه الله لينجح العبيد في قضاء حوائجهم منه عز وجل ، ومن أخذ بالسبب الذي أمر الله بسلوكه لنيل جوده فما سأل السبب بل سأل واضعه فقول القائل : يا رسول الله أريد أن ترد عيني أو يزول عنا البلاء أو أن يذهب مرضي ، فمعنى ذلك طلب هذه الأشياء من الله بواسطة شفاعة رسوله ρ وهو كقوله : ادع لي بكذا واشفع لي في كذا ، لا فرق بينهما إلا أن هذه أصرح في المراد من ذلك ، ومثلهما في ذلك أوضح قول المتوسل : اللهم إني أسألك بنبيك تيسير كذا مما ينفع أو دفع كذا من الشر ، فالمتوسل في ذلك كله ما سأل في حاجته إلا الله عز وجل .

وبهذا تعلم أن الاحتجاج على منع التوسل بقوله عليه الصلاة والسلام :

((إذا سألت فاسأل الله)) ..

هو مغالطة في حمل الحديث على ما هو ظاهر الفساد ، من أنه لا يصح لأحد أن يسأل غير الله شيئاً ، فإن من فهم هذا من الحديث فقد أخطأ الخطأ كله ويكفي في بيان الخطأ ، أن الحديث نفسه ، إنما هو جواب منه عليه الصلاة والسلام لسؤال ابن عباس راوي الحديث بعد تشويق رسول الله ρ أن يسأله فإنه قال : يا غلام ! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، فأي تحريض على السؤال أجمل من هذا ؟

قال ابن عباس : بلى ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الذي منه هذه الجملة .

ولو جرينا على هذا الوهم ، ما صح على مقتضاه ، أن يسأل جاهل عالماً ، ولا واقع في مهلكة غوثاً ، ممن تتوقف نجاته على إغاثته ، ولا دائن مديناً قضاء ما عليه ، ولا مستقرض قرضاً ، ولما صح للناس يوم

القيامة أن يسألوا النبيين الشفاعة ولا صح لنبي الله عيسى أن يأمرهم بسؤالها سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فإن الدليل على هذا الوهم الذي توهموه عام ، يشمل عدم صحة ما ذكرناه وما لم نذكره .

فإن قالوا : إن الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء والصالحين من أهل القبور في برازخهم لأنهم غير قادرين ، وقد سبق رد هذا الوهم مبسوطاً ، وإجماله : إنهم أحياء قادرون على الشفاعة والدعاء ، وحياتهم حياة برزخية لائقة بمقامهم يصح بها نفعهم بالدعاء والاستغفار ، والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كاد يلحق بالتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام ، الدال على أن موتى المؤمنين لهم في حياتهم البرزخية العلم والسماع والقدرة على الدعاء وما شاء الله من التصرفات فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين وسائر الصالحين .

وفي حديث الإسراء الصحيح بل المشهور – ما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع خيرهم محمد ρ من الصلاة خلفه والخطب بين يديه – والدعاء له في السماوات – حتى أن الأمة ما ظفرت بتخفيف خمسين صلاة – إلى خمس في كل يوم وليلة بشفاعته ρ المتعددة – إلا بعد إشارة كليم الله موسى بن عمران بها عليه ، صلى الله عليهما وسلم .

وبهذا يتبين أن المقصود من الحديث – ليس ما توهموه فإنه فاسد واضح الفساد كما تبين ، وإنما المقصود منه الترهيب من سؤال الناس أموالهم بلا حاجة طمعاً فيها ، والقناعة بما يسر الله ولو كان قليلاً ، والتعفف عما لا تدعو إليه الحاجة مما بأيدي الناس ، وأن يستغني بسؤال الله من فضله فإنه يحب الملحين في الدعاء – والناس على العكس .

الله يغضب إن تركت سؤاله :: وبني آدم حين يسأل يغضب

فالمعنى – إنك إذا رأيت في يد أحد من المال ما أعجبك وطمحت إليه نفسك فلا تسأله ما في يده واستعن بسؤال الله من فضله – عن سؤال عبده فالحديث إرشاد إلى القناعة ، والتنزه عن الطمح ، وأين هذا من سؤال الله بأنبيائه وأوليائه أو سؤال أنبيائه الشفاعة للسائلين فيما جعل الله شفاعتهم فيه الذي هو من أقوى الأسباب في النجاح ، ولكن الإنسان إذا ركب الهوى شط به في مجال الأوهام ، وخرج به عن جادة الأفهام .

[][][][]

[][][]

[][]

[]

○

○

إنـه لا يسـتـغاث بي

جاء في الحديث إنه كـان فـي زمـن النبـي ρ منـافق يـؤذي المـؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسـول الله ρ مـن هذا المنـافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

((إنـه لا يستغاث بي وإنمـا يستغاث بالله))..

رواه الطبراني في معجمه الكبير .

وهذا الحـديث قد يستدل بـه مـن يقـول بمنـع الاسـتغاثة بـه ρ ، وهذا استدلال باطل من أصله وذلك لأنـه لـو أجـراه علـى ظـاهره لكـان المقصود به منـع الاستغاثة بـه ρ مطلقاً ، كما هو ظاهر اللفظ ، وهذا منقوض بفعل الـصحابة معـه ρ إذ كـانوا يـستغيثون ويستـسقون بـه ويطلبـون منـه الدعاء وهو يستجيب لذلك بفرح وسرور وحينئـذ فلابـد مـن تأويلـه بمـا يناسب عمومات الأحاديث لينـتظم شمل النـصوص فنقـول : إن المـراد بقولـه ذلك هو إثبـات حقيقـة التوحيد فـي أصل الاعتقـاد وهو أن المغيـث حقيقة هو الله تعالى والعبد مـا هو إلا واسطـة فـي ذلـك أو أنـه أراد أن

يعلمهم أنه لا يطلب من العبد ما لا يقدر عليه كالفوز بالجنة والنجاة من النار والهداية التي هي العصمة من الغواية وضمان الختم على السعادة .
والحديث لا يدل على تخصيص الاستعانة والإغاثة بالحي دون الميت ولا يمت بصلة إلى هذا التفريق بل إن ظاهره يمنع الاستغاثة أبداً بما سوى الله دون تفريق بين حي وميت وهذا غير مقصود لما قدمناه .
وقد أشار الشيخ ابن تيمية في الفتاوى إلى نحو هذا المعنى حيث قال : قد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله فهذا يرد عليه فهمه ، كما روى الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي ρ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله ρ من هذا المنافق ، فقال النبي ρ :
((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)) ..
فهذا إنما أراد به النبي ρ المعنى الثاني وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به كما في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : ربما تذكرت الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ρ يستسقى فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه :: ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ألفاظ مستعملة وردت في هذا الباب

وقد وردت ألفاظ في مدح النبي ρ حصل بسببها اللبس عند بعضهم فحكم بالكفر على قائليها وذلك كقولهم : ليس لنا ملاذ سوى النبي ρ .
ولا جاء إلا هو ..
وأنا مستجير به ..
وإليه يفزع في المصائب
وإن توقفت فمن أسأل
ومقصودهم ليس لنا ملاذ أي من الخلق ، ولا رجاء أي من البشر ، وإليه يفزع في المصائب أي من سائر الخلق لكرامته عند مولاه وليقوم هو بالتوجه إلى الله والطلب منه وإن توقفت فمن أسال أي من عباد الله .
ومع أننا في دعائنا وتوسلنا لا نستعمل مثل هذه الألفاظ ولا ندعو إليها ولا نحث عليها دفعاً للإيهام وابتعاداً عن الألفاظ المختلف فيها وتمسكاً بالظاهر الذي لا خلاف فيه إلا أننا نرى أن الحكم على قائليها بالكفر تسرع ليس بمحمود وتصرف لا حكمة فيه وذلك لأنه لابد من أن نأخذ في الاعتبار أن قائليها هم من الموحدين يشهدون أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله ويقيمون الصلاة ويصدقون بجميع أركان الدين ويؤمنون بالله رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً وبذلك صارت لهم ذمة أهل الدين وحرمة الإسلام ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((من صلى صلاتنا وأسلم واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله في ذمته)) ..
رواه البخاري .

ومن هنا فإن الواجب علينا أننا إذا وجدنا في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله سبحانه وتعالى فإنه يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة فصدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسناداً مجازياً لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك وليس في المسلمين إطلاقاً من يعتقد لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق أو إحياء أو إماتة وما جاء من الألفاظ الموهمة فإن مقصود أصحابها هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة فالمقصود هو الله سبحانه وتعالى وليس من المسلمين رجل واحد يعتقد فيمن يطلبه أو يسأله أنه قادر على الفعل والترك دون التفات إلى الله تعالى من قريب أو بعيد أو مع التفات هو أدنى إلى الشرك بالله ونعوذ بالله أن نرمي مسلماً بشرك أو كفر من أجل خطأ أو جهل أو نسيان أو اجتهاد[16] .

ونحن نقول : إن كان كثير من هؤلاء يخطئون في التعبير بطلب المغفرة والجنة والشفاء والنجاح وسؤالهم ذلك من رسول الله ρ مباشرة فإنه لا يخطئهم التوحيد ، لأن المقصود هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة فكأنه يقول : يا رسول الله ! اسأل الله أن يغفر لي وأن يرحمني ، وأنا أتوسل بك إليه في قضاء حاجتي وتفريج كربتي وتحقيق رغبتي .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يستعينون به صلى الله عليه وسلم ويستغيثون ويطلبون منه الشفاعة ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدين والعجز ، كما ذكرناه .

---

[16] تكرر إيراد هذه الحقيقة في كتابنا هذا لتعدد المناسبات ، وقد عقدنا لها مبحثاً خاصاً بعنوان : ((المجاز العقلي)) وبه ينجلي كثير من الأشكال وسوء الفهم .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل ذلك بنفسه استقلالاً بذاته أو بقوته ، وإنما هو بإذن الله وأمره وقدرته وهو عبد مأمور له مقامه وجاهه عند ربه ، وله كرامته التي يدخل بها على الله عامة البشر ممن يؤمنون به ويصدقون برسالته ويعتقدون فضله وكرامته .

ونحن نعتقد أن من اعتقد خلاف هذا فقد أشرك بلا خلاف .

ولذلك تراه صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان ينبه على هذا إذا ظهر له بطريق الوحي أو الحال أن السائل أو السامع ناقص الاعتقاد ففي موقف يخبر أنه سيد ولد آدم ، وفي موقف آخر ينبههم على أن السيد هو الله ، وفي موقف يستغيثون به ويعلمهم أن يتوسلوا به ، وفي موقف يقول لهم : إنما يستغاث بالله ولا يستغاث بي ، وفي موقف يسألونه ويستغيثون به فيجيبهم إلى طلبهم ، بل ويخيرهم بين أمرين ، الصبر على البلاء مع ضمانة الجنة أو كشف البلاء سريعاً كما خير الأعمى وخير المرأة التي تصرع ، وخير قتادة الذي ذهبت عينه ، وفي موقف يقول : من فرج عن مؤمن كربة .. وفي موقف يقول : لا يأتي بالخيرات إلا الله .

وبهذا يظهر لك أن عقيدتنا بحمد الله أصفى عقيدة وأطهر ، فالعبد لا يفعل شيئاً بنفسه مهما كانت رتبته أو درجته حتى أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم ، إنما يعطي ويمنع ويضر وينفع ويجيب ويعين بالله سبحانه وتعالى .

فإذا استغيث به أو استعين أو طلب فإنما يتوجه إلى المولى جل شأنه سبحانه وتعالى ، فيطلب ويدعو ويسأل ويشفع فيجاب ويشفع .

وما كان يقول لهم : لا تطلبوا مني شيئاً ولا تسألوني ولا تشكوا حالكم إليَّ بل توجهوا إلى الله واسألوه فبابه مفتوح وهو قريب مجيب لا يحتاج إلى أحد ، وليس بينه وبين خلقه حجاب ولا بواب .

* * *

موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذه الألفاظ التي زعموا أنها شرك أو ضلال

وللشيخ محمد بن عبد الوهاب موقف عظيم ورأي حكيم في هذا الباب وخصوصاً بالنسبة لبعض الألفاظ المشتهرة على الألسنة ، والتي

زعم من يدعي حماية التوحيد والغيرة عليه أنه شرك ، وإن قائلها مشرك ـ وها هو إمام التوحيد ورأس الموحدين يقول : كلمته السديدة بحكمته الرشيدة التي بسببها انتشرت دعوته بين الأنام واشتهرت طريقته عند الخاص والعام ، استمع إلى قوله رحمه الله في عقيدته ضمن رسالته رحمه الله إلى عبد الله بن سحيم مطوع أهل المجمعة :

إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها منها : ما هو من البهتان الظاهر ، وهي قوله : إني مبطل كتب المذاهب ، وقوله : إني أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء ، وقوله : إني أدعي الاجتهاد ، وقوله إني خارج عن التقليد ، وقوله : إني أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وقوله : إني أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إني أكفر البوصيري لقوله : ياأكرم الخلق ، وقوله : إني أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إني أقول : لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب، وقوله : إني أنكر زيارة قبر النبي ρ ، وقوله : إني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهم ، وإني أكفر من يحلف بغير الله ، فهذه اثنتا عشرة مسألة ، جوابي فيها أن أقول : { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } ، ولكن قبله من بهت النبي محمداً ρ أنه يسب عيسى ابن مريم ، ويسب الصالحين ، { تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } .

كذا في الرسالة الحادية عشرة من رسائل الشيخ ضمن مجموعة مؤلفاته القسم الخامس ص 61 .

وقد نشرتها جامعة محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب .

الخلاصـــة

والحاصل أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى ، والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها فإنه من اعتقد الإيجاد لغير الله كفر على خلاف للمعتزلة في خلق الأفعال ، وإن اعتقد التسبب والاكتساب لم يكفر .

وأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس في الأموات هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء لا أنهم خالقون موجدون كالإله إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون في الأحياء إلا الكسب والتسبب ، فإذا كان هناك غلط فليكن في اعتقاد التسبب والاكتساب لأن

هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن في المخلوق وإلا لم يكن مؤمناً والغلط في ذلك ليس كفراً ولا شركاً .

ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد في الميت أكثر مما يعتقد في الحي فيثبت الأفعال للحي على سبيل التسبب ، ويثبتها للميت على سبيل التأثير الذاتي والإيجاد الحقيقي فإنه لا شك أن هذا مما لا يعقل .

فغاية أمر هذا المستغيث بالميت ـ بعد كل تنزل ـ أن يكون كمن يطلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ، ومن يستطيع أن يقول : إن ذلك شرك ؟ على أن التسبب مقدور للميت وفي إمكانه أن يكتسبه كالحي بالدعاء لنا فإن الأرواح تدعوا لأقاربهم .

وجاء عن النبي ρ أنه قال : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم إلى ما هديتنا ، أخرجه أحمد وله طرق يشد بعضها بعضاً ، أنظر الفتح الرباني ترتيب المسند ج7 ص89 وشرح الصدور للسيوطي .

وجاء عن ابن المبارك بسنده إلى أبي أيوب ، قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع بهم . (أنظر كتاب الروح لابن القيم) .

الباب الثاني
مبَاحث نبويّة

وفيها بيان خصائص النبيّ صلى الله عليه وسَلم
وحقيقة النبوّة وحقيقة البشرية وحقيقة الحياة البرزخية

الخصائص المحمدية وموقف العلماء منها

اعتنى العلماء بالخصائص النبوية اعتناء عظيماً بالتأليف والشرح والجمع والإفراد بالبحث وأشهرها وأجمعها ((الخصائص الكبرى)) للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي .

وهذه الخصائص كثيرة جداً منها ما صح سنده ومنها ما لم يصح ومنها ما هو مختلف فيه بين العلماء إذ يرى بعضهم أنه صحيح ويرى الآخرون خلاف ذلك فهي مسائل خلافية .

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ والصحة والبطلان ، لا بين الكفر والإيمان ، والعلماء يختلفون في كثير من الأحاديث ويرد بعضهم على بعض في تصحيحها وتضعيفها أو ردها لاختلاف أنظارهم في تقييم أسانيدها ونقد رجالها ، فمن صحح منها الضعيف أو ضعف الصحيح أو أثبت المردود أو رد الثابت بحجة أو تأويل أو شبهة دليل فقد سلك مسلك العلماء في البحث والنظر ، وذلك من حقه كإنسان له عقله وفهمه والمجال مفتوح والميدان فسيح والعلم مشاع بين الجميع .

وقد شجع عليه إمام العقلاء وسيد العلماء النبي الأعظم والرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعل للمجتهد المصيب أجرين وللمجتهد المخطئ أجراً .

ولم يزل العلماء يتسامحون في نقل الخصائص النبوية وينظرون إليها على أنها داخلة في فضائل الأعمال ولا تتعلق بالحلال والحرام وعلى هذا بنى العلماء قاعدتهم في العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ما دام أنه ليس موضوعاً ولا باطلاً بشروطهم المعتبرة في هذا الباب ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه ، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ لما أمكن لنا ذكر شيء من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعد البعثة مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول ، والذين منهم عرفنا ما يجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف نجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل وما أخذ عن الكهان وأشباههم في خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن ذلك مما يجوز ذكره في هذا المقام .

كتب السلف والخصائص :

ولو رجعنا إلى كتب السلف لوجدنا كثيراً من علماء الأمة وأئمة الفقه يذكرون في كتبهم جملة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وينقلون من هذه الخصائص عجائب وغرائب ولو توقف الباحث في قبولها على صحة سندها لما صفا له من ذلك إلا نزر يسير بالنسبة لمقدار ما نقوله منها ، وهذا كله اعتماداً على ما هو معروف من قواعد العلماء وأصولهم المقررة في هذا الباب .

* * *

ابن تيمية والخصائص النبوية

أما الشيخ ابن تيمية وهو معروف بتشدده فقد نقل في كتبه بعض الأقوال في هذا الموضوع التي لم يصح سندها واستشهد بها في كثير من المسائل واعتبرها معتمدة في بيان أو تأييد ما يفسره من الحديث ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في الفتاوى الكبرى : قد روي أن الله كتب اسمه أي النبي ρ على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروى في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حين قال : وقد تقدم لفظ الحديث الذي في المسند عن ميسرة الفجر لما قيل له : متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ، وقد رواه أبو الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في الوفا بفضل المصطفى ρ : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو وحدثنا أحمد بن إسحاق ابن صالح حدثنا محمد بن صالح حدثنا محمد بن سنان العوفى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة قال : قلت : يا رسول الله ! متى كنت نبياً ؟ قال :

((لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه)) .. اهـ .

(الفتاوى ج2 ص151)

ابن تيمية والكرامات :

والخصائص والكرامات من جنس واحد من ناحية الحكم عليها ونقلها وعدم التشدد فيها مكا نتشدد في نقل الأحكام من الحلال والحرام فهي كلها تدور في فلك المناقب والفضائل .

ومن هنا كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من كرامات الأولياء نفس موقفه من خصائص الأنبياء .

وقد نقل في كتبه جملة صالحة من الكرامات وخوارق العادات التي وقعت في الصدر الأول .

ولو بحثنا عن درجاتها وأسانيدها وطريق ثبوتها لوجدنا أن منها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف ومنها المقبول ومنها المردود ومنها المنكر ومنها الشاذ .

وكل ذلك في هذا الباب مقبول وعن العلماء محمول ومنقول فمن ذلك قوله في كرامات لبعض الصحابة – رضي الله عنهم :

1- خرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

2- وهذا سفينة مولى رسول الله ρ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ρ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

3- وهذا البراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براء ! اقسم على ربك ، فيقول : يا رب ! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم ، وقتل البراء شهيداً.

4- وهذا خالد بن الوليد حاصر حصناً منيعاً فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره .

5- وهذا عمر بن الخطاب لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً يسمى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل يا سارية الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدو فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

6- وهذا العلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ρ على البحرين وكان يقول في دعائه : يا عليم ، يا حليم ، يا علي ، يا عظيم فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضوا لما عدموا الماء والاسقاء لما بعدهم فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه في اللحد .

7- وجرى مثل ذلك لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار ، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : اتبعني

فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً ، وقدم المدينة بعد موت النبي ρ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ρ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله ، ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره وخببت[17] امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت ، وجاءت وتابت فدعا لها الله فرد عليها بصرها .

8- وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ρ أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره .

9- وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يوماً في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

10- وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط . اهـ .

(من الفتاوى الكبرى للشيخ ابن تيمية ج11 ص281)

الشيخ ابن القيم وجلوس النبي ρ على العرش[188]

وقد نقل الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن القيم خصوصية عجيبة غريبة وعزاها إلى كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم – وهي قوله :

[فائدة] قال القاضي صنف المروزي كتاباً في فضيلة النبي ρ وذكر فيه إقعاده على العرش قال القاضي : وهو قول أبي داود وأحمد بن أصرم ويحيى ابن أبي طالب وابي بكر بن حماد وأبي جعفر الدمشقي وعياش الدوري وأسحاق ابن راهويه وعبد الوهاب الوراق وإبراهيم

---

[17] الخب : الخداع .

[188] أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 18 .

الأصبهاني وإبراهيم الحربي وهارون ابن معروف ومحمد بن إسماعيل السلمي ومحمد بن مصعب العابد وأبي بكر بن صدقة ومحمد بن بشر ابن شريك وأبي قلابة وعلي ابن سهل وأبي عبد الله بن عبد النور وأبي عبيد والحسن ابن فضل وهارون بن العباس الهاشمي وإسماعيل بن إبراهيم الهاشمي ومحمد بن عمران الفارسي الزاهد ومحمد بن يونس البصري وعبد الله بن الإمام أحمد المروزي وبشر الحافي ، انتهى ، قال الشيخ ابن القيم : [قلت] : وهو قول ابن جرير الطبري وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير وهو قول أبي الحسن الدارقطني ومن شعره فيه :

حديث الشفاعة عن أحمد إلى أحمد المصطفى مسنده

وجاء حديث بإقعاده على العرش أيضاً فلا نجحده

أمرّوا الحديث على وجهه ولا تدخلوا فيه ما يفسده

ولا تنكروا أنه قاعد ولا تنكروا أنه يُقعده

اهـ (بدائع الفوائد للشيخ ابن القيم ج4 ص40).

كشاف القناع وخصائص عجيبة

ذكر الفقيه العلامة الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه ((كشاف القناع)) جملة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم قد يستغربها كثير ممن يقصر عقله عن فهم هذه الأصول واستيعاب تلك القواعد .

فمنها قوله : والنجس منا طاهر منه ρ ومن سائر الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ويجوز أن يستشفى ببوله ودمه لما رواه الدارقطني أن أم أيمن شربت بوله ، فقال : [إذن لا تلج النار بطنك] ، لكنه ضعيف ، ولما رواه ابن حبان في الضعفاء [إن غلاماً حجم النبي ρ فلما فرغ من حجامته شرب دمه ، فقال : ويحك ما صنعت بالدم ؟ قال : غيبته في بطني ، قال : [اذهب فقد أحرزت نفسك من النار] . قال الحافظ ابن حجر : وكان السر في ذلك ما صنعه الملكان من غسلهما جوفه .

ومنها قوله : ولم يكن له ρ [فيء] أي ظل [في الشمس والقمر لأنه نوراني والظل نوع ظلمة] . ذكره ابن عقيل وغيره ، ويشهد له أنه سأل الله أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نوراً وختم بقوله واجعلني نوراً ، [وكانت الأرض تجتذب أثقاله] للأخبار.

ومنها قوله : المقام المحمود جلوسه ρ على العرش ، وعن عبد الله بن سلام على الكرسي ذكرهما البغوي .
وقوله : إنه كان لا يتثاءب .
وأنه عرض عليه الخلق من آدم إلى من بعده كما علم آدم أسماء كل شيء لحديث الديلمي : [مثلت لي الدنيا بالماء والطين فعلمت الأشياء كلها] ، وعرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم لحديث الطبراني : [عرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها صُوِّروا لي بالماء والطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه] ، وعرض عليه أيضاً ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة لحديث أحمد وغيره [أدريت ما تلقى أمتي بعدي وسفك بعضهم دماء بعض] .

ومنها قوله : [وزيارة قبره مستحبة للرجال والنساء] لعموم ما روى الدارقطني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ : [من حج وزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي] اهـ (كشاف القناع ج5 ص30) طبع بأمر الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود – رحمه الله .

فهذه الخصائص التي ذكروها ونقلوها منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف ومنها ما لادليل له أصلاً .

فلا أدري ماذا يقول المعترض في هذه الخصائص التي نقلها كبار الأئمة من أهل السنة ولم يعترضوا عليها بشيء وسلموها وتسامحوا في نقلها اعتماداً على قاعدة التسامح في نقل الفضائل مع أن في هذه الخصائص من الأقوال ما لو سمعه المعترض أو المنكر لحكم على قائله بما هو أعظم من الكفر وأين ما نقلناه بجانب من قال : إن سيدنا محمداً ρ يجلسه الله يوم القيامة على عرشه كما نقله الإمام الشيخ ابن القيم عن كبار أئمة السلف في كتابه المعروف [بدائع الفوائد] بلا برهان ولا دليل صحيح من كتاب ولا سنة ، وأين ما نقلناه من الخصائص بجانب ما جاء في كشاف القناع من أن النبي نور وأنه لا ظل له وأن ما يخرج منه من الغائط تبتلعه الأرض فلا يبقى شيء منه على وجه الأرض ، وأين ما نقلناه من الخصائص بجانب ما نقله الشيخ ابن تيمية من الخصائص كقوله : إن اسمه ρ مكتوب على ساق العرش وعلى أوراق الجنة وأشجارها وأبوابها وثمارها وقبابها ، فأين المعلقون والمحققون كيف فاتت عليهم هذه المسائل دون نقد وتمحيص .

* * *

الجنة تحت أقدام الأمهات فكيف لا تكون تحت أمر النبي ρ

ومن الخصائص النبوية التي جرى فيها البحث بين أهل العلم ما جاء من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقطع أرض الجنة ، وقد ذكر هذه الخصوصية الحافظ السيوطي والقسطلاني والزرقاني في شرحه على المواهب اللدنيّة ، ومعلوم أن هذا الإقطاع لا يكون إلا لمن يستحقه من أهل التوحيد وبإذن من الله سبحانه وتعالى إما من طريق الوحي أو الإلهام أو التفويض من الله سبحانه وتعالى ، وقد أشار إلى ذلك ρ بقوله : إنما أنا قاسم والله معطي . وإذا صح التعبير بأن الجنة تحت أقدام الأمهات ، فكيف لا يصح التعبير أن الجنة تحت أمره ρ بل تحت قدمه ، والمعنى واحد ومعروف عند أدنى طلاب العلم معرفة فهو تعبير مجازي المقصود منه أن الوصول إلى الجنة هو من طريق بر الوالدين وخدمتهما وخصوصاً الأم ، وهو بالنسبة للنبي ρ من حيث طاعته ومحبته وموالاته .

ولهذه الخصوصية أمثال كثيرة تشهد لصحتها سنذكر أهمها .

النبي ρ يضمن الجنة :

ويأتي في معنى إقطاع أرض الجنة ضمانة النبي ρ الجنة لبعضهم ، وهذا ما حصل لأهل بيعة العقبة ، فعن عبادة بن الصامت قال : كنت ممن حضر العقبة الأولى وفيه فبايعنا رسول الله ρ على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان عظيم نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. ذكره ابن كثير في باب بدء إسلام الأنصار (السيرة ج2 ص176).

وجاء في الصحيح التصريح بأن تلك البيعة مشروطة بالجنة ، قال عبادة ابن الصامت : إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا ننهب بالجنة إن فعلنا ذلك[19]. رواه البخاري في كتاب (مناقب الأنصار باب بيعة العقبة) . وفي رواية : إنه ρ قال : فمن وفى فله الجنة . كذا في البداية (ج3 ص150) .

وعن قتادة أنهم قالوا : يا رسول الله ! فما لنا بذلك إن وفينا ؟ قال : الجنة اهـ

(البداية ج3 ص162)

وعن ابن مسعود أن النبي ρ قال :

((فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة وعليّ)) ..

رواه الطبراني أنظر (كنز العمال ج1 ص63) ومجمع الزوائد (ج6 ص47).

وعن عتبة بن عمرو الأنصاري أنه ρ قال :

((فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة وعليّ)) ..

رواه ابن أبي شيبة وابن عساكر – أنظر كنز العمال (ج1 ص67) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

((إن رسول الله ρ أعطاه نعليه ، فقال له : اذهب فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله فبشره بالجنة)) ..

رواه مسلم في كتاب الإيمان .

صكوك لدخول الجنة بيده ρ

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :

---

(19) أي بايعناه بالجنة على فعل ذلك ، يعني اشترطوا عليه ضمانة الجنة لهم ، فأعطاهم .

((قال رسول الله ρ : يوضع للأنبياء منابر من نور يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه ، أو قال : لا أقعد عليه ، قائماً بين يدي ربي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعد ، فأقول : يا رب ! أمتي أمتي ، فيقول الله عز وجل : يا محمد ! ما تريد أن أصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم ، فيدعى بهم فيحاسبون ، فمنهم من يدخل الجنة برحمته ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار حتى إن مالكاً خازن النار ليقول : يا محمد ! ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة)) ..

رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في البعث . قال المنذري : وليس في رواته متروك .

النبي صلى الله عليه وسلم يعطي الجنة :

جاء في رواية عن جابر رضي الله عنه إنه قال : فقلنا فعلام نبايعك ؟ فقال :

((على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكم الجنة)) .. الحديث .

قال الحافظ ابن حجر : ولأحمد من وجه آخر عن جابر قال : كان العباس آخذاً بيد رسول الله ρ فلما فرغنا قال رسول الله ρ :

((أخذت وأعطيت)) .. اهـ (فتح الباري ج7 ص223) ، رواه أحمد [مجمع الزوائد ج6 ص48] أي أخذت البيعة وأعطيت الجنة .

قلت : وقد جاء في رواية أخرى التصريح بما هو أبلغ من ذلك قال جابر : إن النبي ρ قال لهم : تبايعوني على السمع والطاعة إلى أن قال : ولكم الجنة ، قال : فقالوا : والله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً فبايعناه فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة . قال الهيثمي روى أصحاب السنن طرفاً منه ، رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح اهـ . (مجمع الزوائد ج6 ص46) .

النبي ρ يبيع الجنة وعثمان يشتريها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : اشترى عثمان الجنـة من النبـي صلـى الله عليـه وسلم مـرتين بيـع الحـق حيث حفر بئـر معونـة وحيث جهز جيش العسرة . رواه الحاكم في مستدركه (ج3 ص107) وصححه .

وكـل عاقـل يـدري أن الجنــة لله سـبحانه وتعـالى لا يملكهـا أحـد ولا يتـصرف فيهـا أحـد مهمـا كانـت قيمتـه ودرجتـه لا ملـك ولا نبـي ولا رسول ولكن الله يمن على رسله ويعطيهم من المنح التي تميزهم عن غيـرهم وذلـك لكـرامتهم عنـده وعلـو مقـامهم لديـه ، فتنـسب إلـيهم تلـك العطايـا وتـضاف إلـيهم تلـك التـصرفات علـى جهـة التكـريم والتعظـيم والاحترام والتقديم ، ومن هذا المنطلق جاء التعبير في خصائص النبي ρ من أنه يقطع أرض الجنة أو يضمن الجنة أو يبيع الجنـة أو يبشر بالجنـة مـع أن الجنـة لله سبحانه وتعالى لا يشك فـي ذلك ولا يرتـاب إلا جاهل ليس عنده أدنى معرفة بأبسط مسائل العلم .
اللهم نور بصائرنا وافتح مسامع قلوبنا وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه .

ما هو المقصود بليلة المولد المفضلة :

ذكـر بعـض العلمـاء فـي الخـصائص النبويـة أن ليلـة المولـد النبـوي أفضل من ليلة القدر وعقد مقارنـة فـي هذا الموضوع بين الليلتين ، والذي نحب أن نذكره هنا هو أن المقصود بهذه الليلـة هـي الليلـة التـي وقع فيها الميلاد النبوي حقيقـة وهـي قد مضت منذ مئات السنين وهـي كانت قبل أن تعرف أو تظهر ليلة القدر بلا شك وليس المقصود بذلك ليلـة المولد المتكررة كل عام ، والتي هي نظائر ليلة الميلاد الحقيقي ، والحق أن البحث في هذه المسألة ليس بكبير فائدة ولا يترتب علـى إنكـاره أو الإقرار به ضرر أو خطر ولا يعارض ذلك شيئاً من أصول العقيدة ، وقد بحث العلماء في مسائل حقيرة وألفوا فيها رسائل خاصة وهـي لا تـساوي شيئاً أمام هذه المسألة ، والحاصل أننـا نعتقد أن هذه المفاضلة هـي بين ليلة المولد الحقيقي ، وبين ليلة القدر ، وأن الليلة التي وقع فيها المولد النبوي والتي جرى فيها بحث المفاضلة والمقارنـة قد مضت وانتهت ولا وجـود لهـا اليـوم ، أمـا ليلـة القـدر فهـي موجـودة ومتكـررة فـي كـل عـام ولذلك فهي أفضل الليالي لقوله تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ {1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ {2} لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ } .

والبحث فـي هذه المسألة وأمثالهـا جرى بـين أئمـة العلـم وتكلـم فيـه كبار السلف ، فهذا الشيخ الإمام ابن تيمية يتكلم عن مسألة المقارنـة بين ليلة القدر وليلـة الإسراء ويبحث فيهـا بدقـة وإتقـان مـع أنـه لـم يثبت أنـه

بحث فيها أو تكلم عنها أحد قبله من أئمة السلف وأهل القرون الأولى فضلاً عن الصحابة فضلاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فتوى ابن تيمية في الموضوع :

قال الإمام الشيخ ابن القيم : سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل ، فأيهما مصيب ؟ فأجاب الحمد لله ، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر فإن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي ρ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ρ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين وهو معلوم الفساد بالإطراد من دين الإسلام ، وإن أراد الليلة المعينة التي أسري فيها النبي ρ وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة فهذا صحيح .

(انظر مقدمة زاد المعاد لابن القيم) .

* * *

لا تطروني

فهم بعض الناس من قوله ρ : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . النهي عن مدحه ρ واعتبار ذلك من الإطراء والغلو المذموم المؤدي إلى الشرك وأن كل من مدحه ρ ورفعه عن

غيره من عامة البشر وأثنى عليه ووصفه بما يميزه عن غيره فقد ابتدع في الدين وخالف سنة سيد المرسلين .

وهذا فهم سيء ويدل على قصر نظر صاحبه وذلك أن النبي ρ نهى أن يطرى كما أطرت النصارى ابن مريم إذ قالوا : ابن الله .

ومعنى ذلك أن من أطراه ρ ووصفه بما وصف به النصارى نبيهم فقد صار مثلهم .

أما من مدحه ووصفه بما لا يخرجه عن حقيقة البشرية معتقداً أنه عبد الله ورسوله مبتعداً عن معتقد النصارى فإنه ولا شك من أكمل الناس توحيداً .

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فإن فضل رسول الله ليس له   حد فيعرب عنه ناطق بفم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وأنه خير خلق الله كلهم

لقد تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه مدح نبيه المصطفى ρ فقال : { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } وأمر بالأدب معه في الخطاب والجواب ، فقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } ، ونهانا أن نعامله كما يعامل بعضنا بعضاً ، أو أن نناديه كما ينادي بعضنا بعضاً ، فقال :

{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً } ..

وذم الذين يسوّون بينه وبين غيره في المعاملة والأسلوب فقال : { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } .

وقد كان الصحابة الكرام يمتدحون النبي ρ ، فهذا حسان بن ثابت يقول :

أغرّ عليه للنبوة خاتم   من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة   من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً   يلوح كما لاح الصقيل المهند
فأنذرنا ناراً وبشر جنة   وعلمنا الإسلام فلله نحمد

ويقول أيضاً :

يا ركن معتمد وعصمة لائذ ومـلاذ منتجـع وجـار مجـاور
يا من تخـيّـره الإلـه لخلقه فحبـاه بالخلـق الزكـي الطاهـر
أنت النبي وخير عصبـة آدم يـا مـن يجود كفيض بـحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما مـدد لنصـرك مـن عزيـز قادر

وهذه صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ρ :

ألا يا رسـول الله كنت رجاءنا وكنـت بنـا براً ولم تك جافيـا
وكنـت رحيماً هاديـاً ومعلماً ليبك عليك اليوم من كان باكيـا
صدقت وبلغت الرسالة صادقاً رمـت صليب العود أبلج صافيـا
فدىً لرسـول الله أمي وخالتي وعمـي وآبائي ونفسـي وماليـا
لعمـرك ما أبكـي النبي لفقده ولكن لما أخشـى من الهـرج آتيا
كأن على قلبي لذكـر محمـد وما خفت بعد النبـي مطاوياً
فلـو أن رب النـاس أبقى نبينا سعدنـا ولكـن أمره كان ماضياً
عليك من الله السـلام تحيـة وادخلت جنـات من العدن راضيا
أفاطـم صلى الله رب محمد على جـدث أمسى بطيبـة ثاوياً

وهذا كعب بن زهير يمدح النبي ρ بقصيدته المعروفة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

قال :

أنبئـت أن رسـول اللـه أوعـدني والعفـو عند رسول الله مأمول
إن الرسـول لنـور يسـتضـاء بـه مهنـد مـن سيوف الله مسلول
في عصبـة من قريـش قال قائلهـم ببطـن مكـة لما أسلمـوا زولوا
يمـشون مـشي الجمـال الزهـر يعـصمهم ضـرب إذا عـود الـسود التنـابيل

وفي رواية أبي بكر ابن الأنباري أنه لما وصل إلى قولـه :

إن الرسول لنور يستضاء به :: مهند من سيوف الله مسلول

رمى – عليه الصلاة والسلام – إليه بردة كانت عليه ، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف ، فقال : مـا كنت لأوثر برسول الله ρ أحداً ، فلمـا مـات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم .

وها هو ρ يمدح نفسه بنفسه قال :

أنا خير أصحاب اليمين .
أنا خير السابقين .
أنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر .

(رواها الطبراني والبيهقي في الدلائل)

وقال : أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر

(رواه الترمذي والدارمي)

وقال : ((لم يلتق أبواي على سفاح قط)) .

(رواه ابن عمر العدني في مسنده)

ويقول جبريل عليه السلام: ((قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم)) .

(رواه البيهقي وأبو نعيم والطبراني عن عائشة رضي الله عنها)

وعن أنس رضي الله عنه :

((أن النبي ρ أتى بالبراق ليلة أسري به فاستصعب عليه ، فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا ؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفضّ عرقاً)) ..

(رواه الشيخان)

وفي حديث أبي سعيد قال :

((قال رسول الله ρ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)) ..

(رواه الترمذي وقال : حسن صحيح)

وعن أنس قال :

قال رسول الله ρ : ((أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي ولواء الحمد يومئذ)) ..

((وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف على ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور)) ..

(رواه الترمذي والدارمي)

وعن أبي هريرة عن النبي ρ قال :

أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم على يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري)) ..

(رواه الترمذي وقال : حسن صحيح)

* * *

الأنبياء بشر ولكن ..

يظن بعض الناس أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يساوون غيرهم من البشر في كل أحوالهم وأعراضهم ، وهذا خطأ واضح وجهل فاضح ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة .

وهم وإن كانوا يشتركون مع جميع بني آدم في حقيقة الأصل التي هي البشرية من قوله جل ذكره : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } إلا أنهم يختلفون عنهم في كثير من الصفات والعوارض وإلا فما هي مزيتهم ؟ وكيف تظهر ثمرة اصطفائهم على غيرهم واجتبائهم على من سواهم .

وسنذكر في هذا المبحث شيئاً من صفاتهم في الدنيا وخصائصهم في البرزخ التي ثبتت لهم بنص الكتاب والسنة .

الأنبياء سادة البشر :

الأنبياء هم الصفوة المختارة من عباد الله شرّفهم الله بالنبوة وأعطاهم الحكمة ورزقهم قوة العقل وسداد الرأي واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه يبلغونهم أوامر الله عز وجل ويحذرونهم غضبه وعقابه ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد اقتضت حكمة الله أن يكونوا من البشر ليتمكن الناس من الاجتماع بهم والأخذ عنهم والاتباع لهم في سلوكهم وأخلاقهم ، والبشرية هي عين إعجازهم فهم بشر من جنس البشر لكنهم متميزون عنهم بما لا يلحقهم به أحد ، ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية .

فمن ذلك قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال : { فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا } سورة هود : 27 ، ومن ذلك قول قوم موسى وعيسى في حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال : { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } المؤمنون : 47 .

ومن ذلك قول أصحاب ثمود له فيما حكاه الله عنه بقووله : { مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } الشعراء : 154 .

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله : {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ{185}وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ}

الشعراء :

.185،186

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاق } .

صفات الأنبياء :

والأنبياء صلوات الله عليهم وإن كانوا من البشر يأكلون ويشربون ويصحون ويمرضون وينكحون النساء ويمشون في الأسواق وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت إلا أنهم يمتازون بخصائص ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم ومن أهم الضروريات وهذه الصفات نلخصها فيما يلي :

1- الصدق .
2- التبليغ .
3- الأمانة .
4- الفطانة .
5- السلامة من العيوب المنفرة .
6- العصمة .

وليس هذا محل تفصيل هذه الصفات فقد تكفلت بها كتب التوحيد وسنذكر هنا بعض الصفات التي يتميز بها سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم عن عامة البشر .

يرى من خلفه كما يرى من أمامه :

أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((هل ترون قبلتي هاهنا ؟ فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري)) ..

وأخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ρ قال :

((أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود فإني أراكم من أمامي ومن خلفي)) ..

وأخرج عبد الرزاق في جامعه والحاكم وأبو نعيم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((إني لأنظر إلى ما ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي)) ..

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ρ :

((إني أراكم من وراء ظهري)) ..

يرى ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع :

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ρ :

((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)) .

قال أبو ذر : يا ليتني كنت شجرة تعضد . رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

إبطه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج الشيخان عن أنس قال : ((رأيت رسول الله ρ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه)) .

وأخرج ابن سعد عن جابر قال : ((كان النبي ρ إذا سجد يرى بياض إبطيه)). وقد ورد ذكر بياض إبطيه ρ في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة.

قال المحب الطبري : من خصائصه ρ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره . وذكر القرطبي مثل ذلك وزاد وأنه لا شعر فيه .

حفظه صلى الله عليه وسلم من التثاؤب :

أخرج البخاري في التاريخ وابن أبي شيبة في المصنف وابن سعد عن يزيد ابن الأصم قال : [ما تثاءب النبي ρ قط] .
وأخرج ابن أبي شيبة عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال : [ما تثاءب نبي قط] .

عرقه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج مسلم عن أنس قال : [دخل علينا رسول الله ρ فقال[20] عندنا فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فاستيقظ النبي ρ فقال : يا أم سليم ! ما هذا الذي تصنعين ؟ قالت : عرق نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب].
وأخرج من وجه آخر عن أنس [أن النبي ρ كان يأتي أم سليم فيقيل[1] عندها فتبسط له نطعاً فيقيل عليه وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير ، فقال : [يا أم سليم ! ما هذا] ؟ قالت : عرقك أدوف به طيبي].

طوله صلى الله عليه وسلم :

أخرج ابن خثيمة في تاريخه والبيهقي وابن عساكر عن عائشة قالت : [لم يكن رسول الله ρ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ρ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما ، فإذا فارقاه نسب رسول الله ρ إلى الربعة – وذكر

---

(20) من القيلولة

ابن سبع في الخصائص ذلك وزاد – أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين] .

ظله صلى الله عليه وسلم :

أخرج الحكيم الترمذي عن ذكوان أن رسول الله ρ لم يكن له ظل في شمس ولا قمر ، قال ابن سبع : من خصائصه أن الظل كان لا يقع على الأرض ، وأنه كان نوراً إذا مشى في الشمس أو القمر لا ينظر له ظل ، قال بعضهم : ويشهد له حديث قوله ρ في دعائه :

((واجعلني نورا)) ..

وذكر القاضي عياض في الشفاء والعزفيُّ في مولده : أن من خصائصه ρ أنه كان لا ينزل عليه الذباب ، وذكره ابن سبع في الخصائص بلفظ : أنه لم يقع على ثيابه ذباب قط ، وزاد أن من خصائصه أن القمل لم يكن يؤذيه .

دمه صلى الله عليه وسلم :

أخرج البزار وأبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن الزبير أنه أتى النبي ρ وهو يحتجم فلما فرغ ، قال : [يا عبد الله ! إذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد فشربه ، فلما رجع قال : يا عبد الله ! ما صنعت ؟ قال : جعلته في أخفى مكان علمت أنه مخفي عن الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قلت : نعم ، قال : [ويل للناس منك وويل لك من الناس ، فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم] .

نومه صلى الله عليه وسلم :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : يا رسول الله ! أتنام قبل أن توتر ؟ قال :

((يا عائشة ! إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي)) ..

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ρ :

((تنام عيني ولا ينام قلبي)) ..

وقال ρ :

((الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)) ..

جماعه صلى الله عليه وسلم :

أخرج البخاري من طريق قتادة عن أنس قال : [كان النبي ρ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة ، قلت لأنس : أو كان يطيقه ؟ قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين] .

حفظه ρ من الاحتلام :

أخرج الطبراني من طريق عكرمة عن أنس وابن عباس والدينوري في [المجالسة] من طريق مجاهد عن ابن عباس قال :

((ما احتلم نبي قط وإنما الاحتلام من الشيطان)) ..

بوله صلى الله عليه وسلم :

أخرج الحسن بن سفيان في مسنده وأبو يعلى والحاكم والدارقطني وأبو نعيم عن أم أيمن قالت : قام النبي ρ من الليل إلى فخارة في جانب البيت ، فبال فيها ، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها فلما أصبح أخبرته فضحك وقال :

((إنك لن تشتكي بطنك بعد يومك هذا أبداً)) ..

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرت أن النبي ρ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره ، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء ، فقال لامرأة يقال لها : بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة: أين البول الذي كان في القدح ؟ قالت : شربته ، قال : صحة يا أم يوسف ، وكانت تكنى أم يوسف ، فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه . قال ابن دحية : هذه قضية أخرى غير قضية أم أيمن ، وبركة أم يوسف غير بركة أم أيمن[21].

خلاصة مفيدة :

وقد نظم بعضهم جملة من الخصائص التي تميز بها صلى الله عليه وسلم عن غيره من جهة الصفات البشرية العادية فقال :

خص نبينا بعشرة خصال لم يحتلم قط وما له ظلال
والأرض ما يخرج منه تبتلع كذلك الذباب عنه ممتنع
تنام عيناه وقلب لا ينام من خلفه يرى كما يرى أمام
لم يتثاءب قط وهي السابعة ولد مختوناً إليها تابعة
تعرفه الدواب حين يركب تأتي إليه سرعة لا تهرب
يعلو جلوسه جلوس الجلسا صلى عليه الله صبحا ومسا

[21] سيأتي مزيد تفصيل لهذه الوقائع في مفهوم التبرك .

وقد ذكرنا في (مباحث نبوية) من الباب الثاني بعض الخصائص النبوية وخلاصة ما نراه في ذلك ، وهو أن هذه الخصائص كثيرة جداً ، منها ما صح سنده ، ومنها ما لم يصح ، ومنها ما هو مختلف فيه بين العلماء إذ يرى بعضهم أنه صحيح ، ويرى الآخرون خلاف ذلك ، فهي مسائل خلافية .

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ ، والصحة والبطلان ، لا بين الكفر والإيمان ، وقد نقلنا جملة نم هذه الخصائص التي منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو ليس بصحيح ، ومنها المقبول ، ومنها غير ذلك .

نقلناها لتكون شواهد على ما ذكرناه من تسامح بعض أئمة الحديث في نقل ذلك دون تحقيق أو نقد ، وليس المقصود من ذلك الكلام حول صحتها وعدم صحتها ، أو ثبوتها وعدم ثبوتها . فتدبّر .

* * *

مفهوم التبرك

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التبرك بالنبي ρ وآثاره وآل بيته وورّاثه من العلماء والأولياء رضي الله عنهم ، فيصفون كل من يسلك ذلك المسلك بالشرك والضلال كما هي عادتهم في كل جديد يضيق عنه نظرهم ويقصر عن إدراكه تفكيرهم .

وقبل أن نبين الأدلة والشواهد الناطقة بجواز ذلك ، بل بمشروعيته ينبغي أن نعلم أن التبرك ليس هو إلا توسلاً إلى الله سبحانه وتعالى بذلك المتبرَّك به سواء أكان أثراً أو مكاناً أو شخصاً .

أما الأعيان فلاعتقاد فضلها وقربها من الله سبحانه وتعالى مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شر إلا بإذن الله .

وأما الآثار فلأنها منسوبة إلى تلك الأعيان فهي مشرفة بشرفها ومكرمة ومعظمة ومحبوبة لأجلها .

وأما الأمكنة فلا فضل لها لذاتها من حيث هي أمكنة وإنما لما يحل فيها ويقع من خير وبر كالصلاة والصيام وجميع أنواع العبادات مما يقوم به عباد الله الصالحون ، إذ تتنزل فيها الرحمات وتحضرها

الملائكة وتغشاها السكينة وهذه هي البركة التي تطلب من الله في الأماكن المقصود لذلك .

وهذه البركة تطلب بالتعرض لها في أماكنها بالتوجه إلى الله تعالى ودعائه واستغفاره وتذكر ما وقع في تلك الأماكن من حوادث عظيمة ومناسبات كريمة تحرك النفوس وتبعث فيها الهمة والنشاط للتشبه بأهلها أهل الفلاح والصلاح ، وإليك هذه النصوص المقتبسة من رسالتنا الخاصة في موضوع البركة .

التبرك بشعره وفضل وضوءه وبصاقه وعرقه :

1- عن جعفر بن عبد الله بن الحكم أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك ، فقال : أطلبوها ، فلم يجدوها – فقال : أطلبوها فوجدوها ، فإذا هي قلنسوة خلقة – أي ليست بجديدة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله ρ فحلق رأسه فابتدر الناس جوانب شعره – فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصر .

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح ، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة فلا أدري سمع من خالد أم لا (349/9) ، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (ج4 ص90) ، وفيه يقول خالد : (فما وجهت في جهة إلا فتح لي) .

2- وعن مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي الخزرجي عن أبيه عن جده أبي أسيد وله بئر بالمدينة يقال لها : بئر بضاعة ، قد بصق فيها النبي ρ فهو يشربها ويتيمن بها . رواه الطبراني ورجاله ثقات .

وصف عروة بن مسعود حال الصحابة مع النبي ρ :

3- قال الإمام البخاري بسنده : ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ρ بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ρ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت[22] ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ρ محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا

---

[22] أي ما رأيت .

يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. رواه البخاري في كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد. (فتح الباري ج5 ص330).

تعليق الحافظ ابن حجر على هذه القصة :

وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة

ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم ، وكأنهم قالوا بلسان الحال : من يحب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه ؟ بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه وبنصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضاً بمجرد الرحم ، فيستفاد منه جواز التوصل إلى المقصود بكل طريق سائغ .

(كذا في فتح الباري ج5 ص341)

النبي ρ يرشد إلى المحافظة على بقية وضوئه :

4- عن طلق بن علي قال : خرجنا وفداً إلى رسول الله ρ فبايعناه وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا فاستوهبناه من فضل طهوره ، فدعا بماء فتوضأ وتمضمض ثم صبه لنا في إداوة وأمرنا فقال لنا : [اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجداً] ، قلنا : إن البلد بعيد والحر شديد والماء ينشف ، فقال : [مدّوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيباً] .

رواه النسائي كذا في المشكاة (رقم 716) . وهذا الحديث من الأصول المعتبرة المشتهرة الدالة على مشروعية التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه فإنه ρ أخذ وضوءه ثم جعله في إناء ثم أمرهم أن يأخذوه معهم إجابة لطلبهم وتحقيقاً لمرادهم ، فلابد أن هناك سراً قوياً متمكناً في نفوسهم دفعهم إلى طلب هذا الماء بخصوصه ، والمدينة مملوءة بالمياه ، بل وبلادهم مملوءة بالماء فلم هذا التعب والتكلف في حمل قليل من الماء من بلد إلى بلد مع بعد المسافة وطول السفر وحرارة الشمس ؟ .

نعم كل ذلك لم يهمهم لأن المعنى الذي يحمله هذا الماء يهون عليهم كل مشقة ألا وهو التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه وهو لا

يوجد في بلدهم ولا يتوافر على كل حال عندهم ، بل ويتأكد تأييده لهم ρ ورضاه عن فعلهم بجوابه لهم لما قالوا : إن الماء ينشف لشدة الحر إذ قال لهم : [مدوه من الماء] ، فبين لهم أن بركته التي حلت في الماء لا تزال باقية مهما زادوا فيه فهي مستمرة متصلة.

التبرك بشعره ρ بعد موته :

5- عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال : أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبي ρ وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة قال : فاطلعت في الجلجل فرأيت شعرات حمراء . رواه البخاري في كتاب اللباس باب ما يذكر في الشيب .

قال الإمام الحافظ ابن حجر في الفتح : وقد بينه وكيع في مصنفه فقال : كان جلجلاً من فضة صيغ صوانا لشعرات النبي ρ التي كانت عند أم سلمة والجلجل ـ هو شبه الجرس يتخذ من الفضة أو الصفر أو النحاس ، وقد تنزع منه الحصاة التي تتحرك فيه فيوضع فيه ما يحتاج إلى صيانته .

كذا في فتح الباري (ج10 ص353) .

قال الإمام العيني : وبيان ذلك على التحرير : أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبي ρ حمر في شيء مثل الجلجل ، وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها ، ويستشفون من بركتها ، ويأخذون من شعره ويجعلونه في قدح من الماء ، فيشربون الماء الذي فيه الشعر ، فيحصل لهم الشفاء ، وكان أهل عثمان أخذوا منها شيئاً وجعلوه في قدح من فضة ، فشربوا الماء الذي فيه ، فحصل لهم الشفاء ، ثم أرسلوا عثمان بذلك القدح إلى أم سلمة ، فأخذته أم سلمة ، ووضعته في الجلجل ، فاطلع عثمان في الجلجل ، فرأى فيه شعرات حمراء .

(قوله : وكان إذا أصاب الإنسان إلى آخره) كلام عثمان بن عبد الله بن موهب : أي كان أهلي كذا فسره الكرماني .

وقال بعضهم : وكان أي الناس إذا أصاب الإنسان : أي منهم ، والذي قاله الكرماني أصوب يبين به أن الإنسان إذا أصابه عين أو شيء من الأمراض بعث أهله إليها : أي إلى أم سلمة ، مخضبة ـ بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة ـ وهي الإجانة ، ويجعل فيها ماء وشيء من الشعر المبارك ، ويجلس فيها ، فيحصل له الشفاء ، ثم يرد الشعر إلى الجلجل .

(عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج18 ص79) .

النبي ρ يقسم شعره بين الناس :

روى مسلم من حديث أنس :

((أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى منى فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، وقال للحلاق : خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس)) ..

وروى الترمذي من حديث أنس أيضاً قال : (لما رمى رسول الله ρ الجمرة نحر نسكه ثم ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ، فأعطاه أبا طلحة ، ثم ناوله شقه الأيسر فحلقه ، فقال : اقسم بين الناس) .

ثم ظاهر رواية الترمذي : أن الشعر الذي أمر أبا طلحة بقسمته بين الناس هو شعر الشق الأيسر ، وهكذا رواية مسلم من طريق ابن عيينة ، وأما رواية حفص بن غياث وعبد الأعلى ففيهما : أن الشق الذي قسمه بين الناس هو الأيمن وكلا الروايتين عند مسلم .

توزيع شعره صلى الله عليه وسلم شعرة شعرة :

وقد جاء في رواية حفص عند مسلم أيضاً بلفظ : (فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس ، ثم قال بالأيسر فصنع به مثل ذلك) .

وقال أبو بكر في روايته عن حفص : (قال للحلاق : هاء ، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن هكذا ، فقسم شعره بين من يليه ، قال : ثم أشار إشارة إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر فحلقه فأعطاه أم سليم) .

الناس يتهافتون على شعره ρ :

وفي رواية أحمد في المسند ما يقتضي أنه أرسل شعر الشق الأيمن مع أنس إلى أمه – أم سليم – امرأة أبي طلحة – فإنه قال فيها : (لما حلق رسول الله ρ رأسه بمنى أخذ شق رأسه الأيمن بيده ، فلما فرغ ناولني فقال : ياأنس! انطلق بهذا إلى أم سليم ، قال فلما رأى الناس ما خصنا به تنافسوا في الشق الآخر ، هذا يأخذ الشيء وهذا يأخذ الشيء) .

تحقيق الكلام في الموضوع :

وقد اختلفت الروايات في هذا الموضوع كما ترى ، ففي بعضها أن الذي

أعطاه لأبي طلحة هو الشق الأيمن ، والذي قسمه بين الناس هو الأيسر ، وفي بعضها العكس ، وفي بعضها أنه أعطى الأيسر لأم سليم .

ويجمع بين هذه الروايات بما جاء عن صاحب المفهم إذ قال : [إن قوله : لما حلق رسول الله ρ شق رأسه الأيمن أعطاه أبا طلحة] ليس مناقضاً لما في الرواية الثانية : أنه قسم شعر الجانب الأيمن بين الناس وشعر الجانب الأيسر أعطاه أم سليم ، وهي امرأة أبي طلحة وهي أم أنس – رضي الله عنها – قال : وحصل من مجموع هذه الروايات : أن النبي ρ لما حلق الشق الأيمن ناوله أبا طلحة ليقسمه بين الناس ، ففعله أبو طلحة ، وناول شعر الشق الأيسر ليكون عند أبي طلحة ، فصحت نسبة كل ذلك إلى من نسب إليه والله أعلم .

وقد جمع المحب الطبري في موضع إمكان جمعه ، ورجح في مكان تعذره فقال : والصحيح أن الذي وزعه على الناس الشق الأيمن ، وأعطى الأيسر أبا طلحة وأم سليم ، ولا تضاد بين الروايتين لأن أم سليم امرأة أبي طلحة ، فأعطاه ρ لهما فنسب العطية تارة إليه وتارة إليها . انتهى .

وفيه التبرك بشعره ρ وغير ذلك من آثاره بأبي وأمي ونفسي هو ، وقد روى أحمد في مسنده إلى ابن سيرين أنه قال : فحدثنيه عبيدة السلماني ، يريد هذا الحديث فقال : لأن يكون عندي شعرة منه أحب إليَّ من كل بيضاء وصفراء على وجه الأرض وفي بطنها ، وقد ذكر غير واحد أن خالد بن الوليد – رضي الله عنه – كان في قلنسوته شعرات من شعره ρ ، فلذلك كان لا يقدم على وجه إلا فتح له ، ويؤيد ذلك ما ذكره الملا في السيرة أن خالداً سأل أبا طلحة حين فرق شعره ρ بين الناس أن يعطيه شعر ناصيته ، فأعطاه إياه فكان مقدم ناصيته مناسباً لفتح كل ما أقدم عليه . انتهى عمدة القاري شرح البخاري (ج8 ص230-231) .

التبرك بعرقه :

6- عن عثمان عن أنس أن أم سليم كانت تبسط للنبي ρ نطعاً فيقيل عندها على ذلك النطع ، قال : فإذا نام النبي صلى الله عليه وسلم أخذت من عرقه

وشعره فجمعته في قارورة ثم جمعته في سُكّ وهو نائم ، قال : فلما حضر أنس ابن مالك الوفاة أوصى إلى أن يجعل في حنوطه من السك قال : فجعل في حنوطه . رواه البخاري في كتاب الاستئذان باب من زار قوماً فقال عندهم .

7- وفي رواية عند مسلم دخل علينا النبي ρ فقال عندنا فعرق ، فجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ فقال : يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين ؟ قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب .

8- وفي رواية إسحاق بن أبي طلحة [عرق فاستنقع عرقه على قطعة أديم عتيدة فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها فأفاق ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : نرجو بركته لصبياننا ، فقال : أصبت .

ووفي رواية أبي قلابة [فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير فقال : ما هذا ؟ قالت : عرقك أذوف به طيبي] .

ويستفاد من هذه الروايات إطلاع النبي ρ على فعل أم سليم وتصويبه ولا معارضة بين قولها إنها كانت تجمعه لأجل طيبه وبين قولها للبركة ، بل يحمل على أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معاً . انتهى. (فتح الباري الجزء الحادي عشر ص72).

التبرك بمس جلده صلى الله عليه وسلم :

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال : كان أسيد بن حضير رضي الله عنه رجلاً صالحاً ضاحكاً مليحاً ، فبينما هو عند رسول الله ρ يحدث القوم ويضحكهم ، فطعن رسول الله ρ في خاصرته ، فقال : أوجعتني قال ρ : اقتص قال : يا رسول الله ! إن عليك قميصاً ولم يكن عليَّ قميص ، قال : فرفع رسول الله ρ قميصه فاحتضنه ثم جعل يقبل كشحه ، فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ! أردت هذا .

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي فقال : صحيح.

وأخرجه ابن عساكر عن أبي ليلى رضي الله عنه مثله كما في الكنز (ج7 ص701) قلت: والحديث عند أبي داود والطبراني عن أسيد بن حضير نحوه كما في الكنز (ج4 ص43) .

وأخرج ابن إسحاق عن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه أن رسول الله ρ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم ، فمر بسواد ابن غزية رضي الله عنه – حليف بني عدي بن النجار ، وهو مستنصل من الصف أي خارج – فطعنه في بطنه بالقدح وقال : إستو يا سواد ، فقال : يارسول الله ! أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني ، فكشف رسول الله ρ عن بدنه ، فقال : استقد ، فاعتنقه ، فقبل بطنه فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يارسول الله ! حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ، فدعا له رسول الله ρ بخير . وقاله كذا في البداية (ج3 ص271) .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن أن النبي ρ لقى رجلاً مختضباً بصفرة وفي يد النبي ρ جريدة ، فقال النبي ρ : خط ورس ، فطعن بالجريدة بطن الرجل وقال : ألم أنهك عن هذا ؟ فأثر في بطنه دماً أدماه ، فقال : القود يارسول الله ! فقال الناس : أمن رسول الله ρ تقتص ؟ فقال : ما لبشرة أحد فضل على بشرتي ، فكشف النبي ρ عن بطنه ثم قال : اقتص ، فقبل الرجل بطن النبي ρ وقال : أدعها لك أن تشفع لي يوم القيامة[23]. كذا في الكنز (ج15 ص91) .

وأخرج ابن سعد (ج3 ص72) عن الحسن أن رسول الله ρ رأى سواد بن عمرو هكذا قال إسماعيل : متلحفاً ، فقال : خط خط ورس ورس ، ثم طعن بعود أو سواك في بطنه فماد في بطنه فأثر في بطنه فذكر نحوه .

---

[23] وقوله : أدعها لك أي أترك المقاصة .

وأخرج عبد الرزاق أيضاً كما في الكنز (ج15 ص19) عن الحسن قال : كان رجل من الأنصار يقال له : سوادة بن عمر رضي الله عنه يتخلق كأنه عرجون ، وكان النبي ρ إذا رآه نغض له فجاء يوماً وهو متخلق فأهوى له النبي ρ بعود كان في يده فجرحه ، فقال له : القصاص يارسول الله ! فأعطاه العود وكان على النبي ρ قميصان فجعل يرفعهما فنهره الناس وكف عنه حتى إذا انتهى إلى المكان الذي جرحه رمى بالقضيب وأخذ يقبله وقال : يانبي الله ! بل أدعها لك تشفع لي بها يوم القيامة .

وأخرج البغوي نحوه كما في الإصابة (ج2 ص96) .

* * *

((خبر زاهر)) :

وكان ρ يقول : زاهر باديتنا ونحن حاضرته وكان ρ يحبه فمشى ρ يوماً إلى السوق فوجده قائماً فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زاهر بأنه رسول الله .. قال : فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته .

وفي رواية الترمذي في الشمائل : فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي ρ ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ρ حين عرفه فجعل رسول الله ρ يقول : من يشتري العبد ، فقال له زاهر : يارسول الله ! إذا تجدني كاسداً ، فقال ρ : أنت عند الله غال .

وفي رواية للترمذي أيضاً : لكن عند الله لست بكاسد أو قال : أنت عند الله غال . اهـ (المواهب اللدنية ج1 ص297) .

***

التبرك بدم النبي ρ

خبر عبد الله بن الزبير :

عن عامر بن عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما – أن أباه حدثه أنه أتى النبي ρ وهو يحتجم ، فلما فرغ قال :

((يا عبدالله ! اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما برز عن رسول الله ρ عدل إلى الدم فشربه ، فلما رجع قال : يا عبد الله ! ما صنعت بالدم ؟ قال : جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى عن الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، فقال ρ : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس)) ..

قال أبو موسى : قال أبو عاصم : فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم ، كذا في الإصابة (ج2 ص310) . وأخرجه الحاكم (ج3 ص554) والطبراني نحوه ، قال الهيثمي (ج8 ص270): رواه الطبراني والبزار باختصار ، ورجال البزار رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم وهو ثقة انتهى .

وأخرجه أيضاً ابن عساكر نحوه كما في الكنز (ج7 ص57) مع ذكر قول أبي عاصم، وفي رواية : قال أبو سلمة : فيرون أن القوة التي كانت في ابن الزبير – رضي الله عنهما – من قوة دم رسول الله ρ .

وعند أبي نعيم في الحلية (ج1 ص33) عن كيسان مولى عبد الله ابن الزبير – رضي الله عنهما – قال :

((دخل سلمان – رضي الله عنه – على رسول الله ρ وإذا عبد الله ابن الزبير معه طست يشرب ما فيها ، فدخل عبد الله على رسول الله ρ فقال له : فرغت ؟ قال : نعم ، قال سلمان : ما ذاك يا

رسول الله ؟ قال : أعطيته غسالة محاجمي يهريق ما فيها ، قال سلمان : ذاك شربه والذي بعثك بالحق ، قال : شربته ؟ قال : نعم ، قال : لم ؟ قال : أحببت أن يكون دم رسول الله ρ في جوفي ، فقام وربت بيده على رأس ابن الزبير ، وقال : ويل لك من الناس وويل للناس منك ، لا تمسك النار إلا قسم اليمين)) ..

وأخرجه ابن عساكر عن سلمان نحوه مختصراً ، ورجاله ثقات ، كذا في الكنز (ج7 ص56) ، وروى نحوه الدارقطني في سننه .

وفي رواية أن ابن الزبير لما شرب دم رسول الله ρ قال له ρ : فما حملك على ذلك ؟ قال : علمت أن دمك لا تصيبه نار جهنم فشربته لذلك ، فقال : ويل لك من الناس . وعند الدارقطني من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه وفيه: ولا تمسك النار . وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون أنه لما شرب أي عبد الله بن الزبير دمه تضوع فمه مسكاً وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن صلب رضي الله عنه . (كذا في المواهب للحافظ القسطلاني) .

خبر سفينة مولى النبي ρ :

وأخرج الطبراني عن سفينة – رضي الله عنه – قال :

((احتجم النبي ρ ثم قال : خذ هذا الدم فادفنه من الدواب والطير والناس ، فتغيبت فشربته ، ثم ذكرت ذلك له فضحك)) .

قال الهيثمي (ج8 ص280) : رجال الطبراني ثقات .

خبر مالك بن سنان :

وفي سنن سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب أنه بلغه أن مالك ابن سنان والد أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ρ في وجهه الشريف يوم أحد مص جرحه حتى أنقاه ولاح – أي ظهر – محل الجرح بعد المص أبيض ، فقال له ρ : مجه ، فقال : ولا أمجه أبداً ، ثم ازدرده – أي ابتلعه – فقال النبي ρ :

((من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فاستشهد بأحد)) ..

رواه الطبراني أيضاً ، وفيه :

((قال ρ : من خالط دمي دمه لا تمسه النار)) ..

قال الهيثمي : لم أر في إسناده من أجمع على ضعفه اهـ .

وروى سعيد بن منصور أيضاً أنه ρ قال :

((من سره أن ينظر إلى رجل خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان)) .

((حجام آخر يشرب دمه ρ)) :

روى ابن حبان في الضعفاء عن ابن عباس قال : حجم النبي ρ غلام لبعض قريش فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فحسا دمه حتى فرغ ثم أقبل فنظر في وجهه فقال : ويحك ما صنعت بالدم ؟ قلت : غيبته من وراء الحائط ، قال : أين غيبته ؟ قلت : يا رسول الله ! نفست على دمك أن أهريقه في الأرض فهو في بطني ، فقال : اذهب فقد أحرزت نفسك من النار . (ذكره الحافظ القسطلاني في المواهب اللدنية).

((خبر بركة خادم أم حبيبة)) :

قال الحافظ ابن حجر روى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : (أخبرت أن النبي ρ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء ، فقال لامرأة يقال لها : بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة : أين البول الذي كان في القدح ؟ قالت : شربته ، قال : صحة يا أم يوسف ، وكانت تكنى أم يوسف ، فما مرضت قط حتى مرضها الذي ماتت فيه . (كذا في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ج1 ص32).

قلت : وقد رواه أبو داود والنسائي مختصراً ، قال الحافظ السيوطي : وقد أتمه ابن عبد البر في الاستيعاب وفيه أنه سألها عن البول الذي كان في القدح ، فقالت : شربته يا رسول الله ، وذكر الحديث . (كذا في شرح السيوطي على سنن النسائي ج1 ص32) .

((خبر أم أيمن)) :

قال الإمام الحافظ القسطلاني في المواهب : أخرج الحسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن أم أيمن قالت : قام رسول اللـه ρ من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال ، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت

ما فيها وأنا لا أشعر ، فلما أصبح النبي ρ قال : يا أم أيمن ! قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة ، فقلت : قد والله شربت ما فيها ، قالت : فضحك رسول الله ρ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أما والله لا يجعنّ بطنك أبداً .

قال الحافظ ابن حجر في التلخيص : وصحح ابن دحية أنهما قضيتان وقعتا لامرأتين وهو واضح من اختلاف السياق وواضح أن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن مولاته .

(فائدة) : وقع في رواية سلمى امرأة أبي رافع أنها شربت بعض ماء غسل رسول الله ρ فقال لها : ((حرم الله بدنك على النار)) . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديثها ، وفي السند ضعف ـ كذا في التلخيص (ج1 ص32).

قال القسطلاني : وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام البلقيني ، وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ρ .

خبر سرة خادم أم سلمة رضي الله عنها :

وأخرج الطبراني عن حكيمة بنت أميمة عن أمها قالت :

((كان للنبي ρ قدح من عيدان يبول فيه ويضعه تحت سريره ، فقام فطلبه فلم يجده ، فسأل فقال : أين القدح ؟ قالوا : شربته سرة خادم لأم سلمة التي قدمت معها من أرض الحبشة ، فقال النبي ρ : لقد احتظرت من النار بحظار)) ..

قال الهيثمي (ج8 ص271) : رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، وحكيمة وكلاهما ثقات .

* * *

أقوال العلماء في هذا الموضوع

قال الإمام محي الدين النووي في شرح المهذب : واستدل من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين أن أبا طيبة الحجام حجمه ρ وشرب دمه ولم ينكر عليه ، وأن امرأة شربت بوله ρ فلم ينكر عليها . وحديث أبي طيبة ضعيف ، وحديث شرب البول صحيح رواه الدارقطني ، وقال : هو حديث حسن صحيح ، وذلك كاف في الاحتجاج لكل الفضلات قياساً ، ثم قال : إن القاضي حسيناً قال : الأصح القطع بطهارة الجميع . ثم قال في الجواب : عن أنه كان يتنزه منها بأن ذلك على الاستحباب اهـ . (من شرح المهذب ج1 ص233) .

وقال الإمام العلامة بدر الدين العيني شارح البخاري في كتابه المعروف عمدة القاري ج2 ص35 : فأما شعر رسول الله ρ فهو مكرم معظم خارج عن هذا ، قلت : قول الماوردي : وأما

شعر النبي ρ فالمذهب الصحيح القطع بطهارته يدل على أن لهم قولاً بغير ذلك ، فنعوذ بالله من ذلك القول ، وقد اخترق بعض الشافعية وكاد أن يخرج عن دائرة الإسلام حيث قال : وفي شعر النبي ρ وجهان : وحاشا شعر النبي ρ من ذلك وكيف قال هذا ، وقد قيل بطهارة فضلاته فضلاً عن شعره الكريم ، ثم قال العيني : وقد وردت أحاديث كثيرة أن جماعة شربوا دم النبي عليه الصلاة والسلام منهم أبو طيبة الحجام وغلام من قريش حجم النبي ρ وعبد الله بن الزبير شرب دم النبي ρ رواه البزار والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الحلية ، ويروى عن علي رضي الله تعالى عنه أنه شرب دم النبي ρ ، وروى أيضاً أن أم أيمن شربت بول النبي ρ رواه الحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم ، وأخرج الطبراني في الأوسط في رواية سلمى امرأة أبي رافع أنها شربت بعض ما غسل به رسول الله ρ ، فقال لها : حرم الله بدنك على النار .

قال الحافظ القسطلاني في المواهب تعليقاً على قول النووي عن القاضي حسين : أن الأصح القطع بطهارة جميع الفضلات ، وبهذا قال أبو حنيفة كما قاله

العيني ، وقال شيخ الإسلام ابن حجر : قد تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته ρ ، وعد الأئمة ذلك في خصائصه . انتهى .

التبرك بالمكان الذي صلى فيه النبي ρ :

عن نافع أن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي ρ صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي بشرف الروحاء ، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذي صلى فيه النبي ρ يقول : ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي ، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى وأنت ذاهب

إلى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر أو نحو ذلك . رواه البخاري .

التبرك بموضع لامسه فم النبي ρ :

روى الإمام أحمد وغيره عن أنس – رضي الله عنه – أن النبي ρ دخل على أم سليم وفي البيت قربة معلقة فشرب من فيها – أي من فم القربة – وهو نائم قال أنس : فقطعت أم سليم فم القربة فهو عندنا .

والمعنى : أن أم سليم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه ρ واحتفظت به في بيتها للتبرك بأثر النبي ρ .

ورواه الطبراني وفيه البراء بن زيد ولم يضعفه أحمد وبقية رجاله رجال الصحيح .

* * *

التبرك بتقبيل يد من مس رسول الله ρ

عن يحي بن الحارث الذماري قال : لقيت واثلة بن الأسقع رضي الله عنه فقلت : بايعت بيدك هذه رسول الله ρ ؟ فقال : نعم قلت : أعطني يدك أقبلها ، فأعطانيها فقبلتها . قال الهيثمي (ج8 ص42) : وفيه عبد الملك القاري ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . انتهى .

وعند أبي نعيم في الحلية (ج9 ص306) عن يونس بن ميسرة قال : دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين فدخل عليه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، فلما نظر إليه مد يده فأخذ يده فمسح بها وجهه وصدره لأنه بايع رسول الله ρ ، فقال له : يا يزيد ! كيف ظنك بربك ؟ فقال : حسن ، فقال : فأبشر فإني سمعت رسول الله ρ يقول : إن الله تعالى يقول : ((أنا عند ظن عبدي بي)) ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ص144 عن عبد الرحمن بن رزين قال : مررنا بالرّبذة فقيل لنا : ههنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، فأتينا فسلمنا عليه فأخرج يديه فقال : بايعت بهاتين نبي الله ρ ، فأخرج له كفاً له ضخمة كأنها كف بعير ، فقمنا إليها فقبلناها .

وأخرج ابن سعد (ج4 ص39) عن عبد الرحمن بن زيد العراقي نحوه .

وأخرج البخاري أيضاً في الأدب ص144 عن ابن جدعان قال ثابت لأنس رضي الله عنه : أمسست النبي ρ بيدك ؟ قال : نعم ، فقبلها .

وأخرج البخاري أيضاً في الأدب عن صهيب قال : رأيت علياً رضي الله عنه يقبل يد العباس رضي الله عنه ورجليه .

عن ثابت قال : كنت إذا أتيت أنساً يخبر بمكاني فأدخل عليه وآخذ يديه وأقبلهما وأقول : بأبي هاتين اليدين اللتين مستا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عينيه وأقول : بأبي هاتين (العينين) اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (ج2 ص111)، وقال الهيثمي : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أبي بكر المقدمي وهو ثقة ، وسكت عنه البوصيري . اهـ . (كذا في مجمع الزوائد 325/9) .

* * *

التبرك بجبته صلى الله عليه وسلم

عن أسماء بنت أبي بكر : أنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية لها لبنة[24] ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج ، وقالت : هذه جبة رسول الله ρ كانت عند عائشة فلما قبضت قبضتها ، وكان النبي ρ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها . رواه مسلم . (كتاب اللباس والزينة ج3 ص140) .

* * *

التبرك بما مسته يده ρ

عن صفية بنت مجزأة أن أبا محذورة كانت له قصة في مقدم رأسه إذا قعد أرسلها فتبلغ الأرض فقالوا له : ألا تحلقها ؟ فقال : إن رسول الله ρ مسح عليها بيده فلم أكن لأحلقها حتى أموت .

رواه الطبراني وفيه أيوب بن ثابت المكي ، قال أبو حاتم : لا يُحمد حديثه ، كذا في مجمع الزوائد (ج5 ص165) .

وعن محمد بن عبد الملك بن أبي محذورة عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله ! علمني سنة الأذان ، قال فمسح مقدم رأسي قال :

((تقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ترفع بها صوتك)) الحديث ..

وفي رواية : فكان أبو محذورة لا يجز ناصيته ولا يفرقها لأن النبي ρ مسح عليها . أخرجه البيهقي والدارقطني وأحمد وابن حبان والنسائي بمعناه .

---

[24] بكسر اللام وسكون الباء : رقعة في جيب القميص .

* * *

التبرك بقدح النبي ρ ومسجد صلى فيه

عن أبي بردة قال : قدمت المدينة فلقيني عبد الله بن سلام ، فقال لي : انطلق إلى المنزل فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله ρ وتصلي في مسجد صلى فيه النبي ρ ، فانطلقت معه فسقاني وأطعمني تمراً وصليت في مسجده . رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

* * *

التبرك بموضع قدم النبي ρ

جاء في الحديث عن أبي مجلز أن أبا موسى كان بين مكة والمدينة فصلى العشاء ركعتين ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ فيها بمائة آية من النساء ثم قال : ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله ρ قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله ρ . (رواه النسائي 243/3) .

* * *

التبرك بدار مباركة

عن محمد بن سوقة عن أبيه قال : لما بنى عمرو بن حريث داره أتيته لأستأجر منه فقال : ما تصنع به ؟ فقلت : أريد أن أجلس فيه وأشتري وأبيع ، قال : قلت : لأحدثك في هذه الدار بحديث إن هذه الدار مباركة على من سكن فيها مباركة على من باع فيها واشترى ، وذلك أني أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعنده مال موضوع فتناول بكفه منه دراهم فدفعها إليَّ وقال : هاك يا عمرو هذه الدراهم حتى تنظر في أي شيء

تضعها فإنها دراهم أعطانيها رسول الله ρ فأخذتها ثم مكثنا ما شاء الله حتى قدمنا الكوفة فأردت شراء دار ، فقالت لي أمي : يا بني ! إذا اشتريت داراً وهيأت مالها فأخبرني ، ففعلت ، ثم جئتها فدعوتها فجاءت والمال موضوع فأخرجت شيئاً معها فطرحته في الدراهم ثم خلطتها بيدها ، فقلت ، فقلت يا أمه أي شيء هذه ؟ قالت : يا بني ! هذه الدراهم التي جئتني بها فزعمت أن رسول الله ρ أعطاكها بيده فأنا أعلم أن هذه الدار مباركة لمن جلس فيها ، مباركة لمن باع فيها واشترى .

رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى (ج4 ص111 مجمع الزوائد) .

* * *

التبرك بمنبر رسول الله ρ[259]

قال القاضي عياض : رؤي ابن عمر رضي الله عنهما واضعاً يده على مقعد النبي ρ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

وعن أبي قسيط والعتبي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجد حسوا رمانة المنبر التي تلي القبر بميامينهم ثم يستقبلون القبلة يدعون . اهـ (من الشفا للقاضي عياض) .

قال الملا علي قاري شارح الشفا: رواه ابن سعد عن عبد الرحمن بن عبد القاري (ج3 ص518) .

وروى ذلك الشيخ ابن تيمية أيضاً عن الإمام أحمد أنه رخص في التمسح بالمنبر والرمانة ، وذكر أن ابن عمر وسعيد بن المسيب ويحي بن سعيد من فقهاء المدينة كانوا يفعلون ذلك . اهـ . (اقتضاء الصراط المستقيم ص367) .

* * *

---

(259) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم 19 .

التبرك بقبره الشريف

لما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنه عبد الله : انطلق إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم بأمير المؤمنين ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، قال : فاستأذن وسلم ، ثم دخل عليها وهي تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعوني فأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت ، فقال الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملوني ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين .

أخرجه بطوله البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في قبر النبي ρ ، وفي كتاب فضائل الصحابة باب قصة البيعة .

* * *

التبرك بآثار الصالحين والأنبياء السابقين

عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبرنا أن الناس نزلوا مع رسول الله ρ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ρ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا للإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة .

رواه مسلم في كتاب الزهد باب النهي عن الدخول على أهل الحجر .

قال النووي في الشرح ج8 ص118 : وفي هذا الحديث من الفوائد التبرك بآثار الصالحين .

* * *

التبـرك بالتابـوت

ذكر الله تعالى في القرآن فضيلة التابوت فقال :

{ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ } .

وخلاصة القصة : أن هذا التابوت كان عند بني إسرائيل وكانوا يستنصرون به ويتوسلون إلى الله تعالى بما فيه من آثار وهذا هو التبرك بعينه الذي نريده ونقصده ، وقد بين الله جل جلاله محتويات التابوت فقال :

{ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } ، وهذه البقية مما تركه آل موسى وهارون هي عصا موسى وشيء من ثيابه وثياب هارون ونعلاه وألواح من التوراة وطست كما ذكره المفسرون والمؤرخون كابن كثير والقرطبي والسيوطي والطبري ، فارجع إليهم ، وهو يدل على معان كثيرة منها التوسل بآثار الصالحين ، ومنها المحافظة عليها ومنها التبرك بها .

التبرك بمسجد العشـار

عن صالح بن درهم يقول : انطلقنا حاجين ، فإذا رجل فقال لنا : إلى جنبكم قرية يقال لها : الأبلة ، قلنا : نعم ، قال : من يضمن لي منكم أن يصلي لي في مسجد العشار ركعتين أو أربعاً ، ويقول هذه لأبي هريرة : سمعت خليلي أبا القاسم ρ يقول :

((إن الله عز وجل يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء ، لا يقوم مع شهداء بدر غيرهم)) .. (رواه أبو داود) .

وقـال : هـذا المـسجد ممـا يلـي النهـر اهــ (مـشكاة المـصابيح ج3 ص1496).

قال العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفوري في كتابه ((بذل المجهود شرح سنن أبي داود)) : وفي الحديث دلالة على أن الطاعات البدنية توصل إلى الغير أجرها، وأن مآثر الأولياء والمقربين تزار ويتبرك بها. (بذل المجهود ج17 ص225).

وقال العلامة المحدث الشيخ أبو الطيب صاحب عون المعبود : مسجد العشار مسجد مشهور يتبرك بالصلاة فيه (عون المعبود ج11 ص422) .

* * *

نحن في بركة الرسول ρ

نسمع كثيراً من الناس يقولون : نحن في بركة الرسول ρ ، أو معنا بركته ρ وسئل عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : وأما قول القائل : نحن في بركة فلان أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة ، فهذا الكلام صحيح باعتبار ، باطل باعتبار ، فأما الصحيح : فأن يراد به أنه هدانا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، فببركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل ، فهذا كلام صحيح ، كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي ρ في بركته لما آمنوا به وأطاعوه ، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

وأيضاً : إذا أريد بذلك إنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق ، كما قال النبي ρ :

((وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم)).

وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين ممن لا يستحق العذاب ، ومنه قوله تعالى : { وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ – إلى قوله : لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } .

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهراني الكفار لعذب الله الكفار.

وكذلك قال النبي ρ :

((لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام ، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم)) ..

وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها ، وقد قال المسيح عليه السلام : { وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ } ، فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله ، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود ، فمن أراد بالبركة هذا ، وكان صادقاً فقوله حق .

وأما ((المعنى الباطل)) فمثل أن يريد الإشراك بالخلق : مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله ، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله ، فهذا جهل ، فقد كان رسول الله ρ سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة ، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك ، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم ، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدفعونهم إلى ذلك ، وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين ، وببركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم ، وكذلك الخليل ρ مدفون بالشام وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة ، وكان أهلها في شر ، فمن ظن أن الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملاً بمعصية الله فهو غالط .

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعـة الله ورسـوله ، مثـل أن يظـن أن بركـة الـسجود لغيـره ، وتقبيـل الأرض عنده ، ونحو ذلك يحصل لـه السعادة ، وإن لـم يعمل بطاعـة الله ورسوله ، وكذلك إذا اعتقد أن ذلـك الـشخص يـشفع لـه ، ويدخلـه الجنـة بمجـرد محبتـه ، وانتسابه إليـه ، فهذه الأمـور ونحوهـا ممـا فيـه مخالفـة الكتاب والسنة ، فهو من أحوال المشركين وأهل البدع باطل لا يجوز اعتقاده ولا اعتماده .

كذا في الفتاوى (ج11 ص113)

* * *

الإمام أحمد يتبرك والحافظ الذهبي يؤيده

قـال عبـد الله بـن أحمـد : رأيـت أبـي يأخـذ شـعرة مـن شـعر النبـي ρ فيـضعها علـى فيـه يقبّلهـا ، وأحـسِب أنـي رأيتـه يـضعها علـى عينـه ، ويغمسها في الماء ويشربه ويستشفي به .

ورأيتـه أخذ قصعة النبي ρ فغسلها فـي حُبّ المـاء ثم شرب فيهـا ، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه .

قلت : أين المتنطّع المنكر على أحمد ، وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمّن يلمَس رمانة منبر النبي ρ ويمَسّ الحجرة النبويـة ، فقال : لا أرى بذلك بأساً . أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع. (سير أعلام النبلاء ج11 ص212).

الخـلاصــة

والحاصل من هذه الآثار والأحاديث هو أن التبرك به ρ وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه سنة مرفوعة وطريقة محمودة مشروعة ، ويكفـي فـي إثبـات ذلـك فعل خيـار الـصحابة رضـوان الله عـليهم أجمعين ، وتأييد النبي ρ لذلك بل وأمره مرة وإشـارته أخرى إلـى فعل ذلـك ، وبالنـصوص التي نقلناها يظهر كذب من زعم أن ذلـك مـا كـان يعتنـي بـه ويهتم بفعلـه أحد من الصحابة إلا ابن عمر وأن ابن عمر ما كـان يوافقـه علـى ذلـك أحد من أصحاب الرسول ρ .

وهذا جهل أو كذب أو تلبيس ، فقد كان كثير غيره يفعل ذلك ويهتم به ومنهم الخلفاء الراشدون رضي اله عنهم وأم سلمة وخالد بن الوليد وواثلة بن الأسقع وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك وأم سليم وأسيد بن خضير وسواد بن غزية وسواد بن عمرو وعبد الله بن سلام وأبو موسى وعبد الله بن الزبير وسفينة مولى النبي ρ وسرة خادم أم سلمة ومالك بن سنان وأسماء بنت أبي بكر وأبو محذورة ومالك بن أنس وأشياخه من أهل المدينة كسعيد بن المسيب ويحي بن سعيد.

* * *

الباب الثالث

مباحث مختلفـة

وفيها بيان مشروعية الزيارة النبويّة وما يتعلق بها مِنَ الآثار والمشاهد والمناسَبات

الحياة البرزخية حياة حقيقية

الحيـاة البرزخيـة حيـاة حقيقيـة ، وهـذا مـا دلـت عليـه الآيـات البينـات والأحاديث المشهورة الصحيحة .

وهذه الحياة الحقيقيـة لا تعـارض وصـفهم بـالموت كمـا جـاء ذلـك فـي كتـاب الله العزيـز إذ يقـول : { وَمَـا جَعَلْنَـا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ } ، ويقـول : { إِنَّـكَ مَيِّـتٌ وَإِنَّهُـم مَّيِّتُـونَ } ، إن معنـى قولنـا عـن الحيـاة

البرزخية بأنها حقيقية أي ليست خيالية أو مثالية كما يتصورها بعض الملاحدة ممن لا تتسع عقولهم للإيمان إلا بالمشاهد المحسوس دون الغيب الذي لا يطيق العقل البشري تصوره ولا تسليم كيفيته لقدرة الله جل جلاله . إن وقفة تأمل قصيرة عند قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقية لا تبقي من الإشكال أدنى ذرة حتى عند من يقصر فهمه وذوقه عن تعقل المعاني فكلمة [حقيقية] ليست إلا لنفي الباطل وطرد الوهم ونفي الخيال الذي قد يقع في ذهن الإنسان المتشكك المرتاب في أحوال عالم البرزخ وعالم الآخرة وغيرهما من العوالم الأخرى كالنشر والبعث والحشر والحساب .

وهذا المعنى يدركه الإنسان العربي البسيط الذي يعرف أن كلمة [حقيقية] تعني حقيقة وهي ما يقابل الوهم والخيال والمثال ، فحقيقية أي ليست بوهمية وهذا هو المقصود بعينه ، وهذا هو مفهومنا وتصورنا لهذه القضية ، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التي تثبت بأن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء كان مؤمنا أم كافرا .

فمنها حديث القليب وهو ثابت في الصحيحين من وجوه متعددة عن أبي طلحة وعمر وابنه عبد الله :

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فألقوا في طوى من اطواء بدر فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسماهم ((يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا فلان ابن فلان ! أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا)) .. فقال عمر : يارسول الله ! ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون)) ..

هكذا رواه الشيخان من حديث ابن عمر والبخاري من حديث أنس عن أبي طلحة ومسلم من حديث أنس عن عمر ، ورواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح ومن حديث عبد الله بن سيدان نحوه وفيه :

قالوا : يارسول الله ! وهل يسمعون ؟ قال : ((يسمعون كما تسمعون ولكن لا يجيبون)) ..

ومنها ما رواه البزار وصححه ابن حبان من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن أبيه عن أبي هريرة :

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين)) ..

وأخرج ابن حبان أيضا من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ρ نحوه في حديث طويل .

وقال البخاري في صحيحه : ((باب الميت يسمع خفق النعال)) ، ثم روى عن أنس

عن النبي ρ قال : ((العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه)) ..

وذكر الحديث في سؤال القبر ، ورواه مسلم أيضاً وسماع الميت خفق النعال وارد في عدة أحاديث ، منها الأحاديث الواردة في سؤال القبور وهي كثيرة منتشرة ، وفيها التصريح بسؤال الملكين له وجوابه بما يطابق حاله من سعادة أو شقاء ، ومنها ما شرعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته من السلام على أهل القبور ومخاطبتهم بلفظ : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .

قال ابن القيم : وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به ، ثم ذكر جملة منها في ((كتاب الروح)) .. فليراجع .

قلت : وقد روى عبد الرزاق في هذا الباب حديثاً عن زيد بن أسلم قال : مر أبو هريرة وصاحب له على قبر ، فقال أبو هريرة : سَلِّم ، فقال الرجل :
أسلِّمُ على القبر ؟ فقال أبو هريرة : إن كان رآك في الدنيا يوماً قط إنه ليعرفك الآن.

رواه عبد الرزاق في المصنف (ج3 ص577) .

وهذا الذي نقلناه هو عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين وهم أهل السنة والجماعة فلا أدري كيف يغفل هؤلاء الذين يدعون أنهم على مذهب السلف عن هذه الحقيقة .

وقد أفاض الشيخ ابن القيم في كتاب الروح بما يشفي ويكفي وننقل هنا فتوى عظيمة لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في هذا الموضوع كما جاء في الفتاوى الكبرى.

سئل الشيخ عن الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلمون بزيارتهم ؟ وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غيره ؟

فأجاب : الحمد لله ، نعم جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات ، كما روى ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري قال :

[إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض : أنظروا أخاكم يستريح فإنه كان في كرب شديد ، قال : فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان وما فعلت فلانة هل تزوجت] الحديث .

وأما علم الميت بالحي إذا زاره وسلم عليه ففي حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ρ :

((ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام)) ..

قال ابن المبارك : ثبت ذلك عن النبي ρ وصححه عبد الحق صاحب الأحكام . اهـ . (مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية ج24 ص331) .

وجاء في موضع آخر أيضاً سئل الشيخ ابن تيمية : هل الميت يسمع كلام زائره ويرى شخصه ؟ وهل تعاد روحه إلى جسده في ذلك الوقت أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره ؟ وهل تجمع روحه مع أرواح أهله وأقاربه الذين ماتوا قبله ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، نعم ! يسمع الميت في الجملة كما ثبت في الصحيحين عن النبي ρ أنه قال :

((يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه)) ..

ثم ساق أحاديث متعددة في هذا المعنى ، ثم قال : فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ولا يجب أن يكون السمع له دائماً بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحياناً خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له ، وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفي بقوله : { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى } ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ولا امتثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهي ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي وإن سمع الخطاب وفهم المعنى ، كما قال تعالى : { وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ } ، وأما رؤية الميت فقد روي في ذلك آثار عن عائشة وغيرها .

وأما قول القائل : هل تعاد روحه إلى بدنه ذلك الوقت أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره ؟ . فإن روحه تعاد إلى البدن في ذلك الوقت كما جاء في الحديث وتعاد أيضاً في غير ذلك .

ومع ذلك فتتصل بالبدن متى شاء الله وذلك في اللحظة بمنزلة نزول الملك وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم .

وهذا جاء في عدة آثار أن الأرواح تكون في أفنية القبور ، قال مجاهد : الأرواح تكون في أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارقه ، فهذا يكون أحياناً وقال مالك بن أنس : بلغني أن الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت والله أعلم . اهـ . مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (ج24 ص362) .

وقال الشيخ ابن تيمية في موضع آخر : أما ما أخبر الله من حياة الشهيد ورزقه وما جاء في الحديث الصحيح من دخول أرواحهم الجنة فذهبت طوائف إلى أن ذلك مختص بهم دون الصديقين وغيرهم ، والصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السنة أن الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصاً بالشهيد ، كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ويختص الشهيد بالذكر لكون الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة مكا نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق اهـ (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج24 ص332).

لا تؤذ الميت لئلا يؤذيك :

رأى رسول الله ρ رجلاً قد اتكأ على قبر فقال له :

((لا تؤذ صاحب القبر)) ..

ذكره المجد ابن تيمية في المنتقى (ج2 ص104) وعزاه لأحمد في المسند وكذا الحافظ ابن حجر في الفتح (ج3 ص178) وقال : إسناده صحيح .

وأخرجه الطحاوي في معاني الآثار (ج1 ص296) من حديث ابن عمرو ابن حزم بلفظ : رآني رسول الله ρ على قبر ، فقال :

((انزل عن القبر لا تؤذ صاحب القبر ولا يؤذيك)) .. اهـ .

(مجمع الزوائد ج3 ص61) .

معنى الحياة البرزخية :

وينبغي أن نبين للناس معنى تلك الحياة وأنها حياة برزخية وأنها ليست كحياتنا هذه بل هي حياة خاصة لائقة بهم وبالعالم الذي هم فيه لكن لابد أن نبين لهم أيضاً أنها ليست كحياتنا لأن حياتنا أقل وأحقر وأضيق وأضعف .

فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربه وأنه تارة يكون طاهراً وتارة يكون على ضد ذلك ، وتارة يكون في المسجد وتارة يكون في الحمام وأنه لا يدري بم يختم له ؟؟ فقد يكون بينه وبين الجنة ذراع ثم ينقلب الأمر رأساً على عقب فيصير من أهل النار وبالعكس ، أما في البرزخ فإنه إن كان من أهل الإيمان فإنه قد جاوز قنطرة الامتحان التي لا يثبت عندها إلا أهل السعادة ، ثم إنه قد انقطع عنه التكليف وأصبح روحاً مشرقة طاهرة مفكرة سياحة سباحة جوالة في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالى ، لا هم ولا حزن ولا بأس ولا قلق لأنه لا دنيا ولا عقار ولا ذهب ولا فضة فلا حسد ولا بغي ولا حقد .

وإن كان غير ذلك ففي عكس ذلك .

* * *

خصائص الأنبياء البرزخية

وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام في البرزخ خصائص انفردوا بها دون غيرهم من البشر ولو شاركهم غيرهم في بعضها فهو على وجه الإلحاق النسبي وتبقى الخصوصية للأنبياء من جهتين :

الأولى : من جهة الأصالة .

الثانية : من جهة الكمال .

وهذه بعض تلك الخصائص :

كمال حياتهم :

ذكرنا فيما تقدم أن الحياة البرزخية حياة حقيقية وأن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، وأن الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصاً بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ، وهذا هو الصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السنة ، ومن هنا فإن القول بحياة الأنبياء من فضول القول وهو أمر ظاهر كالشمس لا يحتاج إلى إثبات بل إن الصواب هو أن نقرر بأن حياتهم أكمل وأجل وأتم وأعظم ، وهكذا حياة الناس على ظهر الأرض في الدنيا فإنها درجات ومقامات ومراتب متفاوتة فمنهم أموات في صورة أحياء ، قال فيهم المولى جل شأنه :

{ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } .

ومنهم الذين قال فيهم : { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } .

ومنهم من قال فيهم : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } إلى قوله:{ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ }، ومنهم من قال فيهم:{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ{16}كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ {17} وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } (سورة الذاريات : 16-18) .

وهكذا الحياة البرزخية درجات ومراتب ومقامات متفاوتة { وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } .

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن حياتهم ورزقهم ومعرفتهم وسماعهم وإدراكهم وشعورهم وإحساسهم أكمل وأتم وأرفع من غيرهم ، والدليل هو قوله تعالى في حق الشهداء :

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }.

وإذا كانت الحياة معناها هو بقاء الروح فلا تفنى ولا تبلى فلا مزية للشهيد يستحق أن تذكر وتشهر إذ أرواح جميع بني آدم باقية لا تفنى ولا تبلى وهو الصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم كما حققه الشيخ ابن القيم في كتاب الروح ، فلابد من وجود مزية ظاهرة يزيد بها الشهداء على من سواهم وإلا كان ذكر حياتهم عبثاً لا فائدة منه خصوصاً وأن الله تعالى نهى أن نقول عنهم أموات فقال : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ }.

وحينئذ نقول إنه لابد من أن تكون حياتهم أكمل من غيرهم وأشرف ، وهذا ما يؤيده ظاهر النصوص فأرواحهم مرزوقة ترد أنهار الجنة وتأكل ثمارها كما قال تعالى : { عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } ، ثم إحساسهم بذلك الطعام والشراب والنعيم إحساس كامل بشعور تام وتلذذ تام وتمتع حقيقي كما جاء في الحديث : فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا . (قال ابن كثير رواه أحمد) .

وأرواحهم لها تصرف أكبر من غيرها وأوسع فهي تتجول وتسرح في الجنة حيث تشاء ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش . (كذا في الصحيح) .

وهم يسمعون الكلام ويفهمون الخطاب ، فقد جاء في الصحيح : أن الله تعالى يقول لهم : ما تشتهون ؟ فيقولون : كذا وكذا ، ويعود السؤال ويعود الجواب، ثم يطلبون أن يعودوا إلى الدنيا للجهاد ، ثم يطلبون أن يبلغ الله عنهم رسالة منهم

إلى إخوانهم بالدنيا فيها بيان ما أكرمهم الله به ، فيقول الله : أنا أبلغ عنكم .

فإذا ثبت هذا في حق الشهداء ثبت في حق الأنبياء من وجهين :

الأول : أن هذه رتبة شريفة أعطيت للشهيد كرامة له ولا رتبة أعلى من رتبة الأنبياء ، ولا شك أن حال الأنبياء أعلى وأكمل من حال جميع الشهداء فيستحيل أن يحصل كمال للشهداء ولا يحصل للأنبياء لا سيما هذا الكمال الذي يوجب زيادة القربى والزلفى والنعيم والأنس بالعلي الأعلى .

الثاني : أن هذه الرتبة حصلت للشهداء أجراً على جهادهم وبذلهم أنفسهم لله تعالى ، والنبي ρ هو الذي سن لنا ذلك ودعانا إليه وهدانا له بإذن الله تعالى وتوفيقه ، وقد قال ρ :

((من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقصه ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقصه ذلك من آثامهم شيئاً)) ..

والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مشهورة فكل أجر حصل للشهيد حصل للنبي ρ لسعيه مثله والحياة أجر فيحصل للنبي ρ مثلها .

إن حياة الأنبياء البرزخية الحقيقية وخصوصاً نبينا ρ هي أرفع وأكمل من أن يتصور جاهل أو أحمق أننا نعني بها أن يعيشوا كما نعيش فيأكلون ويشربون محتاجين إلى الأكل والشرب ويبولون ويتغوطون مضطرين إلى ذلك ويخرجون من قبورهم لحضور مجالس الذكر ومجامع القرآن ولمشاركة الأمة في أفراحها وأحزانها وأعيادها ومواسمها ثم يرجعون إلى قبورهم تحت الأرض في تلك الحفرة الضيقة وفوقهم التراب ، ليس في هذا أدنى كرامة أو منقبة بل هو عين الإهانة

التـي لا يرضـاها الإنـسان لتـابع أو خـادم لـه فضلاً عن أن يمـن الله تعـالى بذلك على خير خلقه وأجل عبيده حاشا وكلا وألف حاشا وكلا .
إن الحياة البرزخية الحقيقية هي الشعور التام والإدراك الكامل والمعرفة الصادقة ، إنها حياة طيبة صالحة دعاء وتسبيح وتهليل وتحميد وصلاة .

صلاة الأنبياء في قبورهم وعبادات أخرى

ومن ثمرات تلك الحياة البرزخية صلاتهم في قبورهم صلاة حقيقيـة ليست خيالية ولا مثالية ، وقد جاءت أحاديث في هذا الموضوع ، فمنها :
عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ρ :
((الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)) ..
رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبي يعلى ثقات ، كذا في مجمع الزوائد (ج8 ص211) ، قـال الإمـام الحـافظ البيهقـي فـي الجـزء الخـاص بهـذه المسألة .
وفي رواية عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ρ قال :
((إن الأنبيـاء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلـة ، ولكنهم يصلون بين يدي الله تعالى حتى ينفخ في الصور)) ..
قـال البيهقـي : إن صـح بهـذا اللفـظ فـالمراد بـه ـ والله أعلـم ـ لا يتركون لا يصلون إلا هذا المقدار ، ثم يكونـون مصلين بين يدي الله تعالى ، قال البيهقي : ولحياة الأنبياء بعد موتهم شواهد من الأحاديث الصحيحة .
ثم ذكر البيهقي بأسانيده حديث :
((مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره)) ..
وحديث :
((قد رأيتنـي فـي جماعـة مـن الأنبيـاء ، فـإذا موسـى قـائم يصلي وإذا رجل ضرب جعد كأنـه مـن رجـال شنوءة وإذا عيسى بـن مـريم

قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل لي : يا محمد ! هذا مالك صاحب النار فسلم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام)) .

قلت : أخرجه مسلم عن أنس (ج2 ص268) ، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (ج3 ص577) .

وقوله : ضرب ، أي خفيف اللحم الممشوق المستدق .

وقال البيهقي في دلائل النبوة : وفي الحديث الصحيح عن سليمان التيمي وثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ρ قال :

((أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)) ..

قلت : وهو صحيح أخرجه مسلم (ج2 ص268) .

وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن السبب في تخفيف الصلاة علينا من خمسين إلى خمس صلوات هو موسى عليه السلام وهو ميت قد أدى رسالة ربه وانتقل إلى جواره في الرفيق الأعلى ولكنه هو السبب في إيصال أعظم خير إلى الأمة المحمدية حينما طلب من نبينا محمد ρ مراجعة ربه وقال له : سل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فهل هذه المراجعة حقيقية أو خيالية وهل في اليقظة أو في المنام وهل هي صحيحة أم مكذوبة وهل موسى مات أم لا يزال حياً حتى وقت تلك المراجعة ؟

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما :

((أن النبي ρ مر على ثنية فقال : ما هذه ؟ قالوا : ثنية كذا وكذا ، قال : كأني أنظر إلى يونس على ناقة خطامها ليف وعليه جبة من صوف وهو يقول : لبيك اللهم لبيك)) .. اهـ . الدر المنثور (ج4 ص334) .

وفي حديث آخر :

((أراني ليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من الرجال من آدم الرجال ، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم قد رجلها فهي تقطر ماء متكئاً على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالبيت فسألت من هذا ؟ فقيل : هذا المسيح ابن مريم)) ..

وفي حديث آخر :

((إن رسول الله ρ مر بوادي الأزرق ، فقال : كأني أنظر إلى موسى هابطاً من الثنية ، وله جؤار إلى الله بالتلبية ثم أتى على ثنية هرشي فقال : كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة وهو يلبي)) ..

وفي حديث آخر :

((كأني أنظر إلى موسى واضعاً اصبعيه في أذنيه)) ..

وهذه الأحاديث كلها في الصحيح وقد تقدم في موسى وعيسى ، وكذلك صلاتهم قياماً وإمامة النبي ρ بهم ، ولا يقال : إن ذلك رؤيا منام ، وإن قوله أراني فيه إشارة إلى النوم لأن الإسراء وما اتفق فيه كان يقظة على الصحيح الذي عليه جمهور السلف والخلف ، ولو قيل بأنه نوم فرؤيا الأنبياء حق ، وقوله : أراني لا دلالة فيه على المنام بدليل قوله : رأيتني في الحجر ، وكان ذلك في اليقظة كما يدل عليه بقية الكلام .

بقاء أجسادهم :

جاء في الحديث عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ρ :

((أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يقولون بليت ـ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) ..

هذا الحديث أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد في مسنده وابن عاصم في الصلاة له وأبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم والطبراني في معجمه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في صحاحهم والبيهقي في حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه .

واعلم بأن حديث: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء . ورد من طرق كثيرة جمعها الحافظ المنذري في جزء مخصوص وقال في الترغيب والترهيب رواه ابن ماجه بإسناد جيد ورواه أحمد وأبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه ، وقال ابن القيم في كتاب الروح نقلاً عن أبي عبد الله القرطبي : صح عن النبي ρ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه ρ اجتمع مع الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء خصوصاً موسى وقد أخبر :

((ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام)) ..

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم ، وقد نقل كلام القرطبي وأقره أيضاً الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في شرح عقيدة أهل السنة ونصه : قال أبو عبد الله القرطبي : قال شيخنا أحمد بن عمر القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم : والذي يزيح هذا الإشكال أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين .

وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى . وذكر القرطبي أن أجساد الشهداء لا تبلى ، وقد صح عن جابر أن أباه وعمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنهم وهما ممن

استشهد بأحد ودفنا في قبر واحد حفر السيل قبرهما فوجدا لم يتغيرا ، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك ، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت وكان بين ذلك وبين أحد ست وأربعون سنة ، ولما أجرى معاوية العين التي استنبطها بالمدينة وذلك بعد أحد بنحو من خمسين سنة ، ونقل الموتى أصابت المسحاة قدم حمزة رضي الله عنه فسال منه الدم ووجد عبد الله بن حرام كأنما دفن بالأمس ، وروى كافة أهل المدينة أن جدار النبي ρ لما انهدم أيام الوليد بدت لهم قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قد قتل شهيداً .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أنه لما حصل الهدم بدت لهم قدم بساق وركبة ففزع من ذلك عمر بن عبد العزيز فأتاه عروة ، فقال : هذه ساق عمر وركبته فسرى عن عمر بن عبد العزيز . اهـ (اقتضاء الصراط المستقيم 365) .

وقد ألف في هذا الموضوع الإمام الحجة أبو بكر بن الحسين البيهقي رسالة خاصة جمع فيها جملة من الأحاديث التي تدل على حياة الأنبياء وبقاء أجسادهم ، وكذلك ألف الحافظ جلال الدين السيوطي رسالة خاصة بذلك .

* * *

حياة خاصة بنبينا محمد ρ

وقد ثبت لنبينا محمد ρ حياة برزخية أكمل وأعظم من غيره تحدث عنها بنفسه تثبت اتصاله بالأمة المحمدية ومعرفته بأحوالها واطلاعه على أعمالها وسماعه لكلامهم وردّه لسلامهم ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

فمنها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

((إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام))

..

قال المنذري : رواه النسائي وابن حبان في صحيحه اهـ . من الترغيب والترهيب (ج2 ص498) .

قلت : ورواه إسماعيل القاضي وغيره من طرق مختلفة بأسانيد صحيحة لا ريب فيها إلى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله ابن مسعود وصرَّح الثوري بالسماع فقال : حدثني عبد الله بن السائب . هكذا في كتاب القاضي إسماعيل وعبد الله بن السائب وزاذان روى لهما مسلم . ووثقهما ابن معين فالإسناد إذن صحيح .

ومنها : عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ρ قال :

((حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتي خير لكم تعرض أعمالكم عليَّ فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم)) ..

قال الحافظ العراقي في كتاب الجنائز من طرح التثريب في شرح التقريب : إسناده جيد[20] .

وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (ج9 ص24) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، وصححه الحافظ السيوطي في المعجزات والخصائص ، وكذا القسطلاني شارح البخاري ، ونص المناوي في فيض القدير (ج3 ص401) :

بأنه صحيح ، وكذا الزرقاني في شرح المواهب للقسطلاني ، وكذا الشهاب الخفاجى في شرح الشفا (ج1 ص102) .

وكذا الملا علي قاري في شرح الشفا (ج1 ص102) وقال : رواه أيضاً الحارث بن أسامة في مسنده بسند صحيح .

---

[20] انظر الملحق آخر الكتاب رقم 20 .

وذكره ابن حجر في المطالب العالية (ج4 ص22) ، وجاء هذا الحديث من طريق آخر مرسلاً عن بكر بن عبد الله المزني ، ورواه الحافظ إسماعيل القاضي في جزء الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال فيه الشيخ الألباني : مرسل صحيح .

وصححه الحافظ ابن عبد الهادي مع تعنته وتشدده في كتابه الصارم المنكي .

فالحديث صحيح لا مطعن فيه وهو يدل على أن النبي ρ يعلم أعمالنا بعرضها عليه ويستغفر الله لنا على ما فعلنا من سيء وقبيح ، وإذا كان كذلك فإنه يجوز لنا أن نتوسل به إلى الله ونستشفع به لديه لأنه يعلم بذلك فيشفع فينا ويدعو لنا وهو الشفيع المشفع صلى الله عليه وآله وسلم ، وزاده تشريفاً وتكريماً ، وقد أخبر الله في القرآن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهيد على أمته وذلك يقتضي أن تعرض أعمالهم عليه ليشهد على ما رأى وعلم ، قال ابن المبارك : أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبي ρ أمته غدوة وعشياً فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً } .

ومنها : عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

((إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه الله أسماء الخلائق ، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك)).

رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه : قال رسول الله ρ :

((إن الله تبارك وتعالى وكل ملكاً أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت، فليس أحد يصلي عليَّ صلاة إلا قال: يا محمد!

صلى عليك فلان ابن فلان قال : فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً)) ..

(رواه الطبراني في الكبير بنحوه) اهـ . من الترغيب (ج2 ص500) .

ومنها عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيّ عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

((أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً لن يصلي عليَّ إلا عرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها)) .. قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : ((وبعد الموت ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبي الله حي يرزق)) ..

رواه ابن ماجه في السنن ، وفي الزوائد هذا الحديث صحيح إلا أنه منقطع في موضعين ، لأن عبادة روايته عن أبي الدرداء مرسلة ، قاله العلاء . وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة قاله البخاري . انتهى من سنن ابن ماجه (ص524) .

ومنها عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

((ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أردّ عليه السلام)) ..

رواه أبو داود كذا في الترغيب (ج2 ص499) .

قال الشيخ ابن تيمية : هذا الحديث على شرط مسلم ، وقال : وفي مسند ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ρ :

((من صلى عليَّ سمعته ، ومن صلى عليَّ نائياً بلغته)) ..

رواه الدارقطني .

وفي النسائي وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

((إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام)) ..

إلـى أحاديـث أخـر فـي هـذا البـاب متعـددة اهــ . (اقتـضاء الـصراط المستقيم ص324) .

* * *

النبي ρ يجيب من ناداه

النبي ρ يجيب من ناداه قائلاً : يا محمد ..

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي يعلى في ذكر عيسى :

[ولئن قام على قبري فقال : يا محمد لأجيبنه] ..

ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العاليـة 4/ص23 بعنـوان حياتـه ρ في قبره .

* * *

إرسال السلام بالبريد إلى النبي ρ

عن يزيد المهدي قال : لما ودعت عمر بن عبد العزيز قـال : إن لـي إليك حاجة ، قلت : يا أمير المؤمنين ! كيف ترى حاجتك عندي ؟ قال : إني أراك إذا أتيت المدينـة سترى قبر النبي ρ فاقرئـه مني السلام .

وعن حاتم بن وردان قال : كان عمر بن عبد العزيز يوجه البريد قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرئ عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم السلام .

ذكره القاضي عياض في الشفا في باب الزيارة (ج2 ص83) .

وذكر الخفاجي والملا علي قاري في شرح الشفا أنـه رواه ابن أبـي الدنيا والبيهقي في الشعب ، وقال الخفاجي : كان من دأب السلف أنهم يرسلون السلام إلى رسول الله ρ ، وكان ابن عمر يفعله ويرسل لـه عليـه الصلاة والـسلام ولأبـي بكـر وعمـر رضـي الله عنـهمـا ، ورسـول الله ρ وإن كـان يبلغه سلام من سلم عليه وإن كان بعيداً عنه لكن في هذا فضيلة خطابـه عنده ورده عليه السلام بنفسه . اهـ .

من نسيم الرياض للخفاجي (ج3 ص516) .

وذكره الفيروز آبادي في الصّلات والبشر ص153 .

صوت وسلام وآذان يسمع من القبر النبوي

روى الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله الدارمي في كتابه السنن الذي يعتبر من كتب الأصول الحديثيـة الستة ، قـال : أخبرنـا مروان بن محمد عن سعيد ابن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرة لـم يؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ولم يقم ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمـة يسمعها من قبر النبي ρ فذكر معناه . اهـ .

من سنن الدارمي (ج1 ص44) ، ونقله الشيخ محمد بن عبد الوهـاب فـي أحكام تمني الموت من مجموعة مؤلفاته ج3 ص47 .

ونقل هذه الرواية الإمام مجد الدين الفيروز آبـادي صـاحب القـاموس في الصلات والبشر ص154 . وقال إبراهيم بن شيبان : حججت فجئت المدينة فتقدمت إلى قبر النبي صلى الله عليـه وآلـه وسلم ، فسلمت عليـه فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

تأييد ابن تيمية لهذه الوقائع

ذكر الشيخ ابن تيمية هذه الوقائع في معرض كلامه عن اتخاذ القبر مسجداً أو وثناً يعبد ، ثم قال : ولا يدخل في هذا الباب ما يروى من أن قوماً سمعوا رد السلام من قبر النبي ρ أو قبور غيره من الصالحين ، وأن سعيد ابن المسيب كان يسمع الأذان من القبر ليالي الحرة ونحو ذلك اهـ .

(اقتضاء الصراط المستقيم ص373)[20].

ثم قال في موضع آخر : وكذلك ما يذكر من الكرامات وخوارق العادات التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين مثل نزول الأنوار والملائكة عندها وتوقي الشياطين والبهائم لها واندفاع النار عنها وعمن جاورها وشفاعة بعضهم في جيرانه من الموتى واستحباب الإندفان عند بعضهم وحصول الأنس والسكينة عندها ونزول العذاب بمن استهان بها فجنس هذا حق ليس مما نحن فيه ، وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته ، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهمه أكثر الخلق ، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك . اهـ .

(من اقتضاء الصراط المستقيم ص374)

* * *

((ثبوت بعض هذه الكرامات لغير الأنبياء))

وقد روى أهل العلم شيئاً من هذه الكرامات لبعض السلف الصالح رضي الله عنهم حصلت لهم بعد وفاتهم ، ونقلها عنهم الثقات عن الثقات الذين رأوها بأعينهم وسننقل هنا بعض ذلك عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، قال في كتاب أحكام تمني الموت ضمن مجموعة مؤلفاته التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود :

الصلاة في القبر :

ولأحمد عن عفان عن حماد عن ثابت أنه قال : اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره ، فأعطني الصلاة في قبري .

ولأبي نعيم عن جبير قال : أنا – والله الذي لا إله إلا هو – أدخلت ثابتاً البناني في لحده ، ومعي حميد الطويل ، فلما سوينا عليه اللبن ، سقطت لبنة ، فإذا أنا به يصلي في قبره .

قراءة القرآن :

وله ولابن جرير عن إبراهيم بن المهلبي قال : حدثني الذين كانوا يمرون بالجص بالأسحار ، قالوا : كنا إذا مررنا بجبانة قبر ثابت البناني سمعنا قراءة القرآن .

وللترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي ρ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي ρ فأخبره ، فقال رسول الله ρ : [هي المانعة ، هي المنجية ، تنجيه من عذاب القبر] .

وللنسائي والحاكم عن عائشة قالت : قال رسول الله ρ : [نمت فرأيتني في الجنة – ولفظ النسائي : دخلت الجنة – فسمعت صوت قارئ يقرأ ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان] ، فقال رسول الله ρ : [كذاك البر ، كذاك البر ، كذاك البر] وكان أبر الناس بأمه .

ولابن أبي الدنيا عن الحسن قال : بلغني أن المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن أمر حفظته أن يعلّموه القرآن في قبره حتى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله .

وله عن يزيد الرقاشي نحوه ، وروى السلفي معناه من مراسيل عطية العوفي .

تزاور أهل القبور :

ولابـن أبـي شيبة عـن ابـن سـيرين قـال : كـان يحـب حـسن الكفـن ، ويقـول : إنـهـم يتـزاورون فـي أكفـانـهم ، ومعنـاه فـي مـسند ابـن أبـي أسامة عن جابر مرفوعاً ، وفيه ويتباهون ويتزاورون في قبورهم .

ولمسلم من حديثه : [إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه] .

وللترمذي وابن ماجه ومحمد بن يحي الهمداني في صحيحه عن أبي قتادة مرفوعاً : [إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه ، فإنهم يتزاورون في قبورهم] .

رسالة من الدنيا إلى البرزخ مع ميت :

وأخرج ابن أبي الدنيا بسند لا بأس به عن راشد بن سعد : أن رجلاً توفيت امرأته ، فرأى نساء في المنـام ، ولـم يـر امرأتـه معهن ، فسألهن عنها ، فقلن : إنكم قصرتم في كفنها ، فهي تستحي أن تخرج معنا ، فأتى الرجل النبي ρ فأخبره ، قال النبي ρ : [أنظر هل إلى ثقة من سبيل ؟] فـأتى رجـلاً مـن الأنـصار قـد حـضرته الوفـاة ، فـأخبره ، فقـال الأنـصاري : إن كـان أحد يبلـغ الموتى بلغت ، فتوفي الأنـصاري ، فجاء بثوبين مزودين بالزعفران ، فجعلهما في كفن الأنصاري ، فلما كان الليل رأى النسوة ، ومعهن امرأته ، وعليها الثوبان الأصفران.

وروى ابن الجوزي عن محمد بن يوسف الفريـابي : قصة المرأة التي رأت أمها في المنـام ، تشكو إليها الكفن ، فقصوا على محمد وسألوه ، وفيه : أن أمها قالت لها : اشتروا لي كفناً ، وابعثوه مع فلانـة ، قـال الفريـابي : فـذكر الحـديث : أنـهم يتـزاورون فـي أكفـانـهم ، فقلت : اشتروا لها كفناً ، فماتت المرأة في اليوم الذي ذكرت ، ووضعوه معها .

النور على القبور :

ولابن أبي الدنيا عن أبي غالب ـ صاحب أبي أمامة ـ أن فتى بالـشام حضره الموت ، فقال لعمه : أرأيت لو أن الله تعالى دفعني إلى والـدتي مـا

كانت صانعة بي ؟ قال : إذاً والله كانت تدخلك الجنة ، قال : فوالله الله أرحم بي من والدتي ، فقبض الفتى ، فدخلت القبر مع عمه ، فقلنا : باللبن ، فسويناه عليه ، فسقطت منها لبنة ، فوثب عمه فتأخر ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : مليء قبره نوراً ، وفسح له مدّ بصره .

ولأبي داود وغيره عن عائشة قالت : لما مات النجاشي ، كنّا نحدث : أنه لا يزال يرى على قبره نور .

وفي تاريخ ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عمارة قال : حضرت جنازة الأحنف بن قيس ، فكنت فيمن نزل قبره ، فلما سويته رأيته قد فسح له مدّ بصري ، فأخبرت بذلك أصحابي ، فلم يروا ما رأيت .

وعن إبراهيم الحنفي قال : لما صلب ماهان الحنفي على بابه ، كنا نرى الضوء عنده في الليل .

انظر أحكام تمني الموت المصحح على النسخة المصورة / 771 /86 بالمكتبة السعودية بالرياض تحقيق الشيخ عبد الرحمن السدحان والشيخ عبد الله الجبرين ، مجلد الفقه القسم الثاني .

وقد ذكروا في أول المجموعة توثيق هذه النسخ وتصحيح نسبتها إلى الشيخ ، وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بنشر هذه المجموعة كاملة بعد تحقيقها تحت إشرافها بمناسبة أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

لا تشـد الرحـال

يخطئ كثير من الناس في فهم حديث :

((لا تـشد الرحـال إلا إلــى ثلاثــة مـساجد : المـسجد الحــرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى)) ..

فيستدلون بـه علـى تحـريم شد الرحل لزيـارة النبـي ρ ويعتبـرون أن السفر بـذلك سفر معصية ، وهـذا الاستدلال مـردود ، لأنـه مبنـي علـى فهم باطل ، فالحديث كمـا سترى فـي بـاب ، والاستدلال فـي بـاب آخـر ، وبيان ذلك هو أن قولـه ρ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . جاء علـى الأسـلوب المعـروف عنـد اللغـويين بأسـلوب الاسـتثناء ، وهـذا يقتـضي وجـود مـستثنى ومـستثنى منـه ، فالمـستثنى هـو مـا كـان بعـد إلا ، والمستثنى منـه هو مـا كـان قبلهـا ، ولابـد مـن الأمـرين ، إمـا وجـوداً أو تقديراً ، وهذا مقرر ومعروف في أبسط كتب النحو .

وإذا نظرنـا إلـى هذا الحـديث وجدنـا أنـه قد جـاء فيـه التـصريح بـذكر المستثنى وهو قوله : (إلى ثلاثة مساجد) وهو مـا بعد ((إلا)) ولـم يـأت ذكر المستثنى منه وهو ما قبل ((إلا)) فلابد إذن من تقديره .

فإن فرضنا أن المستثنى منه [قبـر] كـان اللفظ المنـسوب لرسـول الله ρ لا تشد الرحال إلـى قبـر إلا إلـى ثلاثـة مـساجد . وهـذا الـسياق ظاهر في عدم الانتظام وغير لائق بالبلاغة النبويـة ، فالمستثنى غيـر داخـل ضـمن المـستثنى منــه ، والأصـل أن يكـون المـستثنى مـن جـنس المستثنى منه ، ولا يطمئن قلب عالم يتحرج من نـسبة كلام للمصطفى ρ لم يقله إلى نـسبة هذه اللفظـة [قبر] وهـي لا تتفق مع الأصل فـي الاستثناء إلى رسول الله ρ فلا تصلح أن تكون هـي المستثنى منـه ، فلنفرض أنـها لفظ [مكان] فيكـون الـسياق المنـسوب لرسـول الله ρ علـى هذا الفرض ، لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى ثلاثة مـساجد ، ومعنـى هذا ألا تسافر إلـى تجـارة أو علـم أو خيـر ، وهـذا ضـرب مـن الـهوس ظـاهر البطلان .

فالحديث اشتمل على ذكر المستثنى وليس فيه ذكر المستثنى منه ، ولذلك فلابد من تقديره باتفاق أهل اللغة ، وتقديره لا يحتمل إلا ثلاثة وجوه لا رابع لها الوجه الأول : أن يكون تقديره بلفظ [قبر] فيكون اللفظ المقدر : لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد .

وهذا التقدير مبني على رأي من يستدل بالحديث على منع السفر للزيارة ، وأنت ترى أنه تقدير بارد ممجوج لا يستسيغه من عنده أدنى إلمام بالعربية ، وهو لا تليق نسبته إلى أفصح من نطق بالضاد صلوات الله وسلامه عليه ، فحاشا أن يرضى بمثل هذا الأسلوب الساقط .

الوجه الثاني : أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ عام وهو لفظ [مكان] وهذا باطل كما تقدم بلا خلاف ولا قائل به .

الوجه الثالث : أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ [مسجد] فيكون سياق الحديث بلفظ : لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد . فنرى أن الكلام قد انتظم وجرى على الأسلوب اللغوي الفصيح ، واختفى التهافت الواضح في الصورتين المتقدمتين وأشرقت فيه روح النبوة . ويطمئن القلب التقي إلى نسبته لرسول الله ρ هذا بفرض أنه لا توجد رواية أخرى مصرحة بالمستثنى منه فإذا وجدت هذه الرواية فلا يحل لمن له دين أن يعدل عنها إلى محض فرض لا يستند إلى فصيح اللغة .

وقد وجدنا بحمد الله في السنة النبوية من طريق الروايات المعتبرة ما فيه التصريح بالمستثنى منه ، فمنها : ما أخرجه الإمام أحمد من شهر بن حوشب قال : سمعت أبا سعيد وذكرت عنده الصلاة والسلام في الطور فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((لا ينبغي للمطي أن يشد رحاله إلى مسجد تبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي)) ..

قال الحافظ ابن حجر : وشهر حسن الحديث وإن كان فيه بعض ضعف .

(فتح الباري ج3 ص65) .

وفي لفظ آخر :

((لا ينبغي للمطي أن تشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)) ..

قال الحافظ الهيثمي : وفيه شهر ، فيه كلام وحديثه حسن .

(مجمع الزوائد ج4 ص3)

ومنها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ρ :

((أنا خاتم النبياء ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل : المسجد الحرام ومسجدي ، صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام)) ..

رواه البزار . (مجمع الزوائد ج4 ص3)

فكلامه ρ في المساجد ليبين للأمة أن ما عدا هذه المساجد الثلاثة متساو في الفضل ، فلا فائدة في التعب بالسفر إلى غيرها ، أما هي فلها مزيد فضل ، ولا دخل للمقابر في هذا الحديث فإقحامها في هذا الحديث يعتبر ضرباً من الكذب على رسول الله ρ ، هذا مع أن الزيارة مطلوبة بل وكثير من العلماء يذكرونها في كتب المناسك على أنها من المستحبات ، ويؤيد هذا أحاديث كثيرة ، نذكر جملة منها .

عن ابن عمر عن النبي ρ قال :

((من زار قبري وجبت له شفاعتي)) ..

رواه البزار وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري وهو ضعيف ، ونقله الشيخ ابن تيمية ، وقال : إنه ضعيف ولم يحكم بوضعه أو كذبه اهـ . (الفتاوى ج27 ص30) في هذا الموضع ، فإن ثبت غير هذا عنه في موضع آخر فمعناه أنه متردد في الحكم عليه ، أو أنه اختلف رأيه فيه ولم نعلم المتقدم من المتأخر فلا يوثق بواحدة حينئذ .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ :

((من جاءني زائراً لا يعلم له حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة)) ..

رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف .

(كذا في المجمع ج4 ص2) .

وقال الحافظ العراقي : صححه ابن السكن (المغني ج1 ص265) .

عن ابن عمر عن النبي ρ قال :

((من حج فزار قبري في مماتي كان مكن زارني في حياتي)) ..

رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه حفص بن أبي داود القارئ وثقه أحمد ، وضعفه جماعة من الأئمة .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ :

((من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي)) ..

قال الهيثمي : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عائشة بنت يونس ، ولم أجد من ترجمها (كذا في مجمع الزوائد 2/4) .

والحاصل أن أحاديث الزيارة لها طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً ، كما نقله المناوي عن الحافظ الذهبي في فيض القدير (ج6 ص140) خصوصاً وإن بعض العلماء صححها أو نقل تصحيحها كالسبكي وابن السكن والعراقي والقاضي عياض في الشفا ، والملا علي قاري

شارحه والخفاجي كذلك في نسيم الرياض (ج3 ص511) ، وكلهم من حفاظ الحديث وأئمته المعتمدين ، ويكفي أن الأئمة الأربعة رضي الله عنهم وغيرهم من فحول العلماء وأركان الدين قالوا بمشروعية زيارة النبي ρ كما نقله عنهم أصحابهم في كتب فقههم المعتمدة ، وهذا كاف منهم في تصحيح أحاديث الزيارة وقبولها لأن الحديث الضعيف يتأيد بالعمل والفتوى ، كما هو معروف من قواعد الأصوليين والمحدثين .

* * *

زيارة القبر هي زيارة المسجد في اعتبار الشيخ ابن تيمية

للشيخ ابن تيمية رأي نفيس جاء ضمن كلامه عن الزيارة ، فبعد أن تكلم عن بدعية شد الرحل للقبر النبوي المحمدي وحده دون المسجد رجع فقال :

وهذا المعترض وأمثاله جعلوا السفر إلى قبور الأنبياء نوعاً من القربة ثم لما رأوا ما ذكره العلماء من استحباب زيارة قبر نبينا ظنوا أن سائر القبور يسافر إليها كما يسافر إليه ، فضلوا من وجوه :

أحدهما : أن السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده وهو مستحب بالنص والإجماع .

الثاني : أن هذا السفر هو للمسجد في حياة الرسول وبعد دفنه وقبل دخول الحجرة وبعد دخول الحجرة فيه ، فهو سفر إلى المسجد سواء كان القبر هناك أو لم يكن ، فلا يجوز أن يشبه به السفر إلى قبر مجرد ....

ثم قال : السادس : أن السفر إلى مسجده – الذي يسمى السفر لزيارة قبره – هو ما أجمع عليه المسلمون جيلاً بعد جيل ، وأما السفر إلى سائر القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان بل ولا عن أتباع التابعين .

ثم قال : والمقصود أن المسلمين ما زالوا يسافرون إلى مسجده ولا يسافرون إلى قبور الأنبياء كقبر موسى وقبر الخليل عليهما السلام ، ولم يعرف عن أحد من الصحابة أنه سافر إلى قبر الخليل مع كثرة مجيئهم إلى الشام وبيت المقدس ، فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذي يسميه بعض الناس زيارة لقبره مثل السفر إلى قبور الأنبياء ؟

فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية فائدة مهمة جداً وهي أنه لا يتصور أبداً أن يشد الزائر رحله قاصداً زيارة القبر وحده ، ثم لا يدخل إلى المسجد ويصلي فيه ليستفيد من بركاته ومضاعفة صلاته ، وروضة الجنة التي فيه ويقابله أنه لا يعقل أبداً أن يشد الزائر رحله قاصداً زيارة المسجد وحده ثم لا يتوجه إلى الزيارة ولا يقف بالقبر الشريف للسلام على النبي ρ وصاحبيه رضي الله عنهما .

ولذلك ترى الشيخ يشير في عبارته إلى هذا المعنى بقوله مثلاً : (فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذي يسميه بعض الناس زيارة) ؟ .

وبقوله : (إن السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده) .

وبقوله : (إن السفر إلى مسجده الذي يسمى السفر لزيارة قبره هو ما أجمع عليه المسلمون) .

فهذا الرأي الجيد النفيس يحل مشكلة كبرى فرقت بيننا معشر المسلمين وبسببها كفر بعضنا بعضاً وأخرجه عن دائرة الإسلام ، ولو

سلك من ادعى أنه متبع للسلف مسلك ابن تيمية إمام السلف في عصره والتمس للناس العذر في مقاصدهم وحسن الظن بهم لسلم جمع غفير من دخول النار وفازوا بالجنة دار القرار .

وهذا هو الحق الذي ندين الله به ونعتقده بكل صدق سواء صرحنا به أو لم نصرح ، فلو قال الواحد منا : أنا مسافر لزيارة النبي ρ أو قبره فهو قاصد في الجملة مسجده الشريف ، ولو قال : أنا مسافر لزيارة المسجد ، فهو قاصد في الجملة القبر ، غاية ما في الأمر أنه فاته التصريح بكل ما يقصده وينويه للارتباط الوثيق بين المسجد والقبر الذي هو في الحقيقة عبارة عن قصد النبي ذاته ρ ، لأن المسافر لزيارة القبر إنما هو مسافر في الحقيقة إلى النبي نفسه ρ .

أما القبر حقيقة فلا يقصده ولا يتوجه إليه مسافر ، ونحن إنما نتوجه إليه ρ ونشد رحالنا لزيارته هو ونتقرب إلى الله بتلك الزيارة ، ولذلك فالواجب على المسلمين الزائرين أن يصححوا ألفاظهم ابتعاداً عن الشبهة ، ويقولوا : نحن نزور رسول الله ونشد الرحل إلى رسول الله ρ ، ومن هنا قال مالك : أكره للرجل أن يقول : زرت قبر الرسول .

وفسره العلماء من أئمة المالكية بأن ذلك من الأدب في التعبير اللفظي ،

ولو كان المسافر لزيارة القبر لا يقصد إلا زيارة القبر فقط لما رأيت هذا الازدحام الشديد على الروضة المشرفة .

ولما رأيت الناس يتسابقون ويتدافعون عند فتح أبواب المسجد النبوي حتى ليكاد يقتل بعضهم بعضاً ، وهؤلاء الذين يحرصون على الصلاة في المسجد والمسابقة إلى الروضة هم الذين جاءوا لزيارة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وشدوا رحلهم إليه .

* * *

تـحقـيق مفـيد

تحقيق العلامة الشيخ عطية محمد سالم صاحب تكملة أضواء البيان

وقد ذكر هذه المسألة العلامة الشيخ عطية محمد سالم القاضي بالمدينة المنورة في كتابه الذي تمم به التفسير المشهور المسمى بأضواء البيان للعلامة المفسر الشيخ محمد أمين الشنقيطي فقال :

وأعتقد أن هذه المسألة لولا نزاع معاصري شيخ الإسلام معه في غيرها لما كان لها محل ولا مجال .

ولكنهم وجدوها حساسة ولها مساس بالعاطفة ومحبة رسول الله ρ ، فأثاروها وحكموا عليه بالالتزام أي بلازم كلامه حينما قال :

لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة ، بل تكون للمسجد من أجل الزيارة عملاً بنص الحديث ، فتقولوا عليه ما لم يقله صراحة ، لو حمل كلامه على النفي بدل من النهي لكان موافقاً أي لا يتأتى ذلك لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته ρ ولا السلام عليه ، بل يجعلها من الفضائل والقربات ، وإنما يلتزم بنص الحديث في جعل شد الرحال إلى المسجد ولكل شيء ، ومنه السلام على رسول الله ρ كما صرح بذلك في كتبه . اهـ كلام الشيخ عطية في أضواء البيان (ج8 ص586).

ثم نقل من نصوص كلام ابن تيمية ما نقلناه عنه ثم قال :

فدل كلامه رحمه الله أن زيارة القبر والصلاة في المسجد مرتبطان ، ومن ادعى انفكاكهما عملياً فقد خالف الواقع ، وإذا ثبتت الرابطة بينهما انتفى الخلاف وزال موجب النزاع والحمد لله رب العالمين ،

وصرح في موضع آخر ص346 في قصر الصلاة في السفر لزيارة قبور الصالحين عن أصحاب أحمد أربعة أقوال ، الثالث منها : تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام .

(أضواء البيان ج8 ص590) ، ثم قال الشيخ عطية :

وهذا غاية في التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة في المسجد عند عامة العلماء .

ثم قال في حق الجاهل : وأما من لم يعرف هذا فقد لا يقصد إلا السفر إلى القبر ، ثم إنه لابد أن يصلي في مسجده فيثاب على ذلك ، وما فعله وهو منهي عنه ولم يعلم أنه منهي عنه لا يعاقب فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر .

(أنظر أضواء البيان ج8 ص590) .

وبه يظهر لك أن قاصد القبر على كل حال ليس بمحروم من الأجر والثواب فهل يقال في حقه : أنه مبتدع أو ضال أو مشرك ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

* * *

الإمام مالك والزيارة

الإمام مالك هو من أشد الناس تعظيماً للجناب النبوي وهو الذي كان لا يمشي في المدينة المنورة متنعلاً ولا راكباً ولا يقضي فيها حاجته احتراماً وتعظيماً وتكريماً لتراب المدينة الذي مشى عليه رسول الله ρ ، وها هو يخاطب أمير المؤمنين المهدي لما جاء إلى المدينة في هذا الموضوع ويقول له : إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة . فقال له : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله ؟ قال : لأنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ρ ، ومن قبر محمد عندهم فينبغي أن يعلم فضلهم .

(كذا في المدارك للقاضي عياض).

ومن شدة تعظيمه للمدينة أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكأنه أراد أن يقول القائل زرنا النبي ρ مباشرة دون لفظ القبر ، لأن القبر مهجور بدليل قوله ρ : صلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً .

قال الحافظ ابن حجر : إنه إنما كره اللفظ أدباً لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال ، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع . (فتح الباري شرح صحيح البخاري ج3 ص66) .

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر : إنما كره مالك أن يقال : طواف الزيارة وزرنا قبر النبي ρ لاستعمال الناس ذلك بعضهم لبعض ، أي فيما بينهم فكره تسوية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الناس أي

عمومهم بهذا اللفظ ، وأحب أن يخص بأن يقال : سلمنا على النبي ρ .

وأيضاً فإن الزيارة مباحة بين الناس وواجب شد المطي إلى قبره ρ يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض ، والأولى عندي أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ρ وأنه لو قال : زرنا النبي ρ لم يكرهه لقوله ρ :

((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد بعدي ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ..

فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبيه بفعل أولئك قطعاً للذريعة وحسماً للباب .

قلت : ولو كان المقصود كراهية الزيارة لقال مالك : أكره للرجل أن يزور قبر النبي ρ ، لكن ظاهر قوله : (أكره للرجل أن يقول الخ ..) على أن المقصود هو كراهة التعبير بهذا اللفظ فقط .

* * *

استحباب زيارة النبي ρ عند الحنابلة وغيرهم

زيارة النبي ρ مشروعة وقد ذكرها كثير من علماء الأمة وأئمة السلف ، وتخصيص الحنابلة بالذكر المقصود منه رد فرية من زعم أن أئمة الحنابلة لا يقولون بذلك ، فاقتضى الأمر تخصيصهم بالذكر لرد هذه الفرية ، وإلا فإن كتب فقه المذاهب الإسلامية جميعها مشحونة ومملوءة بهذه المسألة فانظر إن شئت كتب الفقه الحنفي ، وانظر إن شئت كتب الفقه المالكي ، وكتب الفقه الشافعي والحنبلي ، وكتب الفقه الزيدي والإباضي والجعفري ، فإنك تجدهم قد عقدوا باباً مخصوصاً في الزيارة بعد أبواب المناسك .

* * *

كلام أئمة السلف في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله ρ وشد الرحل إلى قبره

1 – القاضي عياض :

نذكر هنا كلام القاضي عياض في مشروعية الزيارة النبوية عند السلف ، في شرحه للحديث الذي رواه مسلم عن ابن عمر عن النبي ρ قال :

((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها)) ..

قال القاضي عياض : وقوله ρ : وهو يأرز إلى المدينة معناه : أن الإيمان أولاً وآخراً بهذه الصفة ، لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه أتى المدينة إما مهاجراً مستوطناً وإما

متشوقاً إلى رؤية رسول الله ρ ومتعلماً منه ومتقرباً ، ثم بعده هكذا في زمن الخلفاء كذلك ولأخذ سيرة العدل منهم والاقتداء بجمهور الصحابة رضوان الله عليهم فيها ، ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرج الوقتوأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم ، فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر به يرحل إليها ثم بعد ذلك في كل وقت إلى زماننا لزيارة قبر النبي ρ والتبرك بمشاهده وآثار أصحابه الكرام ، فلا يأتيها إلا مؤمن .

هذا كلام القاضي عياض ، والله أعلم بالصواب اهـ . شرح صحيح مسلم للنووي ص177 .

2- الإمام النووي :

عقد الإمام الحافظ شرف الدين النووي صاحب شرح صحيح مسلم في كتابه المعروف في المناسك المسمى بالإيضاح ، عقد فصلاً خاصاً عن الزيارة النبوية ، قال فيه : إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله ρ لزيارة تربته ρ فإنها من أهم القربات وأنجح المساعي .

(وانظر كلامه أيضاً في شرح صحيح مسلم عند الكلام على حديث لا تشد الرحال (ج9 ص106) .

3- الإمام ابن حجر الهيثمي :

قال الحافظ ابن حجر الهيثمي في حاشيته على الإيضاح للنووي معلقاً على قوله : (وقد روى البزار والدارقطني بإسنادهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ρ :

((من زار قبري وجبت له شفاعتي)) ..

قال : رواه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه وصححه جماعة كعبد الحق والتقي السبكي ، ولا ينافي ذلك قول الذهبي : طرقها كلها لينة ، يقوي بعضها بعضاً.

ورواه الدارقطني أيضاً والطبراني وابن السبكي وصححه بلفظ :

((من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة)) ..

وفي رواية :

((كان له حقاً على الله عز وجل أن أكون له شفيعاً يوم القيامة)) ..

والمراد بقوله : لا تحمله حاجة إلا زيارتي ، اجتناب قصد ما لا تعلق له بالزيارة . أما ما يتعلق بها من نحو قصد الاعتكاف في المسجد النبوي ، وكثرة العبادة فيه ، وزيارة الصحابة وغير ذلك مما يندب للزائر فعله ، فلا يضر قصده في حصول الشفاعة له ، فقد قال أصحابنا وغيرهم : يسن أن ينوي مع التقرب بالزيارة التقرب بشد الرحل للمسجد النبوي والصلاة فيه كما ذكره المصنف .

ثم الحديث يشمل زيارته ρ حياً وميتاً ، ويشمل الذكر والأنثى الآتي من قرب أو بعد ، فيستدل به على فضيلة شد الرحال لذلك ، وندب السفر للزيارة إذ للوسائل حكم المقاصد .

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح :

((ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردّ الله عليَّ روحي ، حتى أرد عليه السلام)).

فتأمل هذه الفضيلة العظيمة وهي رده ρ على المسلم عليه إذ هو ρ حي في قبره كسائر الأنبياء لما ورد مرفوعاً : الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ، ومعنى رد روحه الشريفة ، رد القوة النطقية في ذلك الحين للرد عليه . اهـ .

(من الإيضاح ص488)

4- الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني :

قال ابن حجر في شرحه على البخاري عند قوله : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) . قوله : إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف ، فإما أن يقدر عاماً فيصير : لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا لثلاثة . أو أخص من ذلك ، لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها ، فتعين الثاني ، والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو : لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة ، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين ، والله أعلم .

وقال السبكي الكبير : وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع ، وهو خطأ ، لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه ، فمعنى الحديث : لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة ، وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان ، والله أعلم
اهـ . (فتح الباري ج3 ص66)

.

5- الإمام الشيخ الكرماني شارح البخاري :

قال الشيخ الكرماني في شرحه على البخاري عند قوله : (إلا إلى ثلاثة مساجد) : ولاستثناء مفرغ ، فإن قلت : فتقدير الكلام لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان فيلزم أن لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى ، حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه ، لأن المستثنى منه في المفرغ لابد أن يقدر أعم العام .
قلت : المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً كما إذا قلت : ما رأيت إلا زيداً ، كان تقديره : ما رأيت رجلاً أو أحداً إلا زيداً ، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيداً ، فههنا تقديره : لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة ، وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا مناظرات كثيرة في البلاد

الشامية ، وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها . اهـ . شرح الكرماني (ج7 ص12) .

6- الشيخ الإمام بدر الدين العيني :

قال الشيخ العيني في شرح البخاري : وحكى الرافعي عن القاضي ابن كج أنه قال : إذا نذر أن يزور قبر النبي ρ فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، قال : ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي . وقال القاضي عياض ، وأبو محمد الجويني من الشافعية : أنه يحرم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لمقتضى النهي . وقال النووي : وهو غلط ، والصحيح عند أصحابنا وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه لا يحرم ولا يكره . وقال الخطابي : لا تشد لفظه خبر ومعناه الإيجاب فيما نذره الإنسان من الصلاة في البقاع التي يتبرك بها أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلك حتى يشد الرحل له ويقطع المسافة إليه غير هذه الثلاثة التي هي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فأما إذا نذر الصلاة في غيرها من البقاع فإن له الخيار في أن يأتيها أو يصليها في موضعه ولا يرحل إليها .

وقال شيخنا زين الدين : من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه

حكم المساجد فقط وأنه لا يشد الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة فأما قصد غير المساجد من الرحلة في طلب العلم وفي التجارة والتنزه وزيارة الصالحين والمشاهد وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس داخلاً في النهي ، وقد ورد ذلك مصرحاً به في بعض طرق الحديث في مسند أحمد : حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أبا الخدري رضي الله عنه وذكر عند صلاة في الطور ، فقال : قال رسول الله ρ :

((لا ينبغي للمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)) ..

وإسناده حسن ، وشهر بن حوشب وثقه جماعة من الأئمة اهـ .
(عمدة القاري ج7 ص254) .

7- الشيخ أبو محمد ابن قدامة إمام الحنابلة صاحب كتاب المغني :

قال الشيخ أبو محمد موفق الدين عبد الله ابن قدامة : ويستحب زيارة قبر النبي ρ لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ :

((من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي)) ..
وفي رواية :
((من زار قبري وجبت له شفاعتي)) ..

رواه باللفظ الأول سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر ، وقال أحمد في رواية عبد الله عن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة أن النبي ρ قال :

((ما من أحد يسلم عليَّ عند قبري إلا رد الله عليَّ روحي حتى أردّ عليه السلام)) ..

وإذا حج الذي لم يحج قط يعني من غير طريق الشام لا يأخذ على طريق المدينة لأني أخاف أن يحدث به حدث فينبغي أن يقصد مكة من أقصد الطرق ولا يتشاغل بغيره ، ويروى عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ρ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ! سمعت الله يقول : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً } وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فحملتني عيني فنمت فرأيت النبي ρ في النوم فقال : يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له . اهـ

(المغني لابن قدامة ج3 ص556) .

8- الشيخ أبو الفرج بن قدامة إمام الحنابلة وصاحب الشرح الكبير :

قال الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن قدامة الحنبلي في كتابه الشرح الكبير :

[مسألة] : فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ρ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما .

ثم ذكر الشيخ ابن قدامة صيغة تقال عند السلام على النبي ρ وفيها أن يقول : (اللهم إنك قلت وقولك الحق : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً } وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته ، اللهم اجعله أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين برحمتك يا أرحم الراحمين) .

ثم قال : ولا يستحب التمسح بحائط قبر النبي ρ ولا تقبيله ، قال أحمد رحمه الله : ما أعرف هذا ، قال الأثرم : رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ρ ، يقومون من ناحية فيسلمون ، قال أبو عبد الله : وهكذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل ، قال : أما المنبر فقد جاء فيه ما رواه إبراهيم ابن عبد الله بن عبد القارئ إنه نظر إلى ابن عمر وهو يضع يده على مقعد النبي ρ من المنبر ثم يضعها على وجهه . اهـ . (الشرح الكبير ج3 ص495) .

9- الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي :

قال الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه ((كشاف القناع عن متن الإقناع)) : فصل وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي ρ وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لحديث الدارقطني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ρ :

((من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي)) ..

وفي رواية :

((من زار قبري وجبت له شفاعتي)) ..

رواه باللفظ الأول سعيد .

(تنبيه) :

قال ابن نصر الله : لازم استحباب زيارة قبره ρ استحباب شد الرحال إليها ، لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحال ، فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ρ . اهـ (كشاف القناع ج2 ص598) .

10- شيخ الإسلام محمد تقي الدين الفتوحي الحنبلي :

قال الشيخ الفتوحي : وسن زيارة قبر النبي ρ وقبر صاحبيه رضي الله تعالى عنهما ، فيسلم عليه مستقبلاً له ، ثم يستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره ، ويدعو ، ويحرم الطواف بها ، ويكره التمسح ورفع الصوت عندها .

11- الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي :

قال الشيخ مرعي بن يوسف في كتابه دليل الطالب : وسن زيارة قبر النبي ρ وقبر صاحبيه رضوان الله عليهما ، وتستحب الصلاة في مسجده

ρ وهي بألف صلاة ، وفي المسجد الحرام بمائة ألف ، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة . اهـ (دليل الطالب ص88) .

12- الإمام شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي صاحب القاموس قال في كتابه : [الصلات والبشر] :

اعلم أن الصلاة على النبي ρ عند قبره آكد فيستحب إعمال المطي لإدراك الفوز بهذا الشرف العظيم والمنصب الكريم ، قال القاضي ابن كج : [هو القاضي يوسف بن أحمد بن كج] فيما حكاه الرافعي : إذا نذر أن يزور قبر النبي ρ فعندي أن يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي ، وقد علم أنه لا يلزمه بالنذر إلا العبادات .

ومن صرح باستحبابها وكونها سنة من أصحابنا الرافعي في أواخر باب أعمال الحج ، والغزالي في الإحياء والبغوي في التهذيب والشيخ عز الدين ابن عبد السلام في مناسكه وأبو عمرو بن الصلاح ، وأبو زكريا النووي رحمهم الله تعالى .

ومن الحنابلة : الشيخ موفق الدين ، والإمام أبو الفرج البغدادي وغيرهما .

ومن الحنفية : صاحب الاختيار في شرح المختار له ، عقد لها فصلاً وعدها من أفضل المندوبات المستحبات .

وأما المالكية : فقد حكى القاضي عياض منهم الإجماع على ذلك ، وفي كتاب تهذيب المطالب لعبد الحق الصقلي عن الشيخ أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي ρ واجبة ، قال عبد الحق : يعني من السنن الواجبة ، وفي كلام العبدي المالكي في شرح الرسالة : أن المشي إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ρ أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، وأكثر عبارات الفقهاء أصحاب المذاهب تقتضي السفر للزيارة لأنهم

اســـتحبوا للحـــاج بعـــد الفـــراغ مـــن الحـــج الزيـــارة ، ومـــن ضـرورتها:السفر،وأما نفس الزيـارة فالأدلـة عليهـا كثيـرة منهـا: قولـه تعـالى: {وَلَـوْ أَنَّهُـمْ إِذ ظَّلَمُـواْ أَنفُسَهُمْ جَـآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} .

ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم حي ، وأن أعمال أمتـه معروضـة عليـه

ثم ذكر الشيخ جملة من أحاديث الزيـارة . انتهى من كتـاب ((الـصلات والبشر في الصلاة على خير البشر)) تـأليف شيخ الإسلام مجد الـدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ص147) .

13- الإمـام الـشيخ محمـد بـن عـلان الـصديقي الـشافعي شـارح الأذكار :

قـال معلقـاً علـى قـول النـووي [فـإن زيارتـه أفـضل القربـات وأنجـح المساعي] : وكيف لا وقد وعد الزائر بوجوب شفاعته ρ وهي لا تجب إلا لأهل الإيمان ففي ذلك التبشير بالموت على الإيمان مع ما ينضم إلـى ذلـك بسماعه ρ سلام الزائر من غير واسطة . أخرج أبو الشيخ : من صلى علـيَّ عنـد قبـري سمعته ، ومن صلى علـيَّ بعيـداً أعلمتـه . قـال الحـافظ : وينظر في سنده ، وأخرج أبو داود وغيره عن أبـي هريـرة عنـه ρ أنـه قال :

((ما من أحد يسلم علـيّ إلا ردّ الله علـيَّ روحـي حتـى أرد عليـه السلام)) ..

قال الحافظ : حديث حسن أخرجه أحمد والبيهقـي وغيرهمـا وأنبئت عن الشيخ السبكي فـي شفاء السقام قـال : اعتمـد جماعـة من الأئمـة

على هذا الحديث في استحباب زيارة قبره ρ وهو اعتماد صحيح لأن الزائر إذا سلم عليه وقع الرد عليه من قرب وتلك فضيلة مطلوبة اهـ .

أقول ورده عليه كذلك بنفسه ولو لم يكن للزائر من القرى إلا هذا الخطاب لكان فيه الغنى ، كيف وفيه الشفاعة العظمى ومضاعفة الصلاة في ذلك الحرم الأسنى ، وقد أورد جملة من الأحاديث في ذلك التقي السبكي في شفاء السقام ، وابن حجر الهيثمي في الدر المنظم ، وتلميذه الفاكهي في حسن الاستشارة في آداب الزيارة . اهـ من الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (ج5 ص31) .

* * *

الزيارة النبوية السلفية

ومعلوم أن المقصود بالزيارة هو الزيارة الشرعية وهي التي بينت السنة النبوية آدابها وما ينبغي أن يفعله الزائر .

قال الشيخ ابن تيمية مبينا الفرق بين زيارة أهل التوحيد وبين زيارة أهل الشرك : (فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم والدعاء لهم ، وهو مثل الصلاة على جنائزهم ، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ، ينذرون له ويسجدون له ويدعونه ويحبونه مثل ما يحبون الخالق ، فيكونون قد جعلوه لله نداً وسووه برب العالمين ، وقد نهى الله أن يشرك به الملائكة والأنبياء وغيرهم ، فقال تعالى (آل عمران آيتي : 80،79) : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ

إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}. وقال تعالى (الإسراء آيتي : 57،56) : { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً {56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً }. قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الأنبياء كالمسيح وعزير ويدعون الملائكة فأخبرهم تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال . اهـ (الجواب الباهر في زوار المقابر لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ص21) .

قلت : وهل زيارتنا لنبينا ρ إلا على هذا المنهج وبهذا الطريق السوي والصراط المستقيم ؟ .

فالله يشهد وملائكته وحملة عرشه وأهل السماوات والأرض أننا في زيارتنا لسيدنا ومولانا رسول الله ρ لا نعتقد إلا أنه ρ بشر يوحى إليه ، من خيار عبيد الله يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ويتقرب إليه بالأعمال ، بل هو أشد الناس حرصاً على ذلك ، فهو أتقانا لله وأخوفنا من الله وأعلمنا بالله وأعرفنا به ، لا نشبهه بالخالق ولا ننذر له ولا نسجد له ولا ندعوه ولا نجعله لله نداً ولا نسويه برب العالمين ، ونحبه كما أمر أكثر كم النفس والمال والولد .

* * *

الشيخ ابن القيم والزيارة النبوية

وقد ذكر الشيخ ابن القيم في قصيدته المعروفة بالنونية كيف تكون الزيارة وما هي الآداب المطلوبة فيها ، وكيف ينبغي أن يكون شعور الزائر وهو واقف أمام المواجهة الشريفة ، وما ذا ينبغي أن يحس به تجاه صاحب القبر وذكر في آخر تلك الأبيات أن الزيارة بهذا الإحساس والشعور وبتلك الكيفية هي من أفضل الأعمال فقال :

فإذا أتينا المسجد النبوي صلـــ ـينا التحية أولاً ثنتان
بتمام أركان لها وخشوعها وحضور قلب فعل ذي الإحسان
ثم انثنينا للزيارة نقصد الـ ـقبر الشريف ولو على الأجفان
فنقوم دون القبر وقفة خاضع متذلل في السر والإعلان
فكأنه في القبر حي ناطق فالواقفون نواكس الأذقان
ملكتهم تلك المهابة فاعترت تلك القوائم كثرة الرجفان
وتفجرت تلك العيون بمائها ولطالما غاضت على الأزمان
وأتى المسلم بالسلام بهيبة ووقار ذي علم وذي إيمان
لم يرفع الأصوات حول ضريحه كلا ولم يسجد على الأذقان
كلا ولم ير طائفاً بالقبر أسـ ـبوعاً كأن القبر بيت ثان
ثم انثنى بدعائه متوجهاً لله نحو البيت ذي الأركان
هذي زيارة من غدا متماسكاً بشريعة الإسلام والإيمان
من أفضل الأعمال هاتيك الزيا رة وهي يوم الحشر في الميزان

(انظر النونية المشهورة لابن القيم) .

وتدبر قوله رحمه الله : (من أفضل الأعمال هاتيك الزيارة) فقد أعمى الله بصيرة بعض من القراء عن قراءتها فأنكرها .

القبر النبوي الشريف

إن بعض الناس أصلحهم الله وهداهم إلى الصراط المستقيم ينظر إلى القبر النبوي المكرم من الزاوية القبورية فقط ولهذا فإنه لا غرابة في كل ما يقع في ذهنه من تصورات فاسدة ولا غرابة في كل ما يقع في قلبه من ظنون سيئة بالمسلمين والزائرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والقاصدين إليه والداعين عند قبره فتراه يقول : لا تشد الرحال إلى قبره ρ ، ولا يجوز الدعاء عند قبره ، بل قد يصل به العنت إلى أن يقول : إن الدعاء عند قبره شرك أو كفر ، وإن استقبال القبر بدعة أو ضلال ، وإن إكثار الوقوف والتردد على القبر شرك أو بدعة أو أن من قال : إن

القبر أفضل البقاع وبما فيها الكعبة فقد أشرك أو ضل . وهذا التكفير والتضليل هكذا بالكيل الجزاف دون تبصر أو تعقل مخالف لما عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

ونحن حينما نتكلم عن القبر أو عن زيارة القبر أو عن تفضيل القبر أو شد الرحال إلى القبر أو دعاء الله وسؤاله أمام القبر فإن المقصود الذي لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان إنما هو ساكن القبر وصاحباه ، ألا وهو سيد المرسلين والآخرين وأفضل مخلوقات الله أجمعين النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وما هي قيمة القبر بدونه بل ما هي قيمة المسجد بدونه بل ما هي قيمة المدينة المنورة بدونه بل ما هي قيمة المسلمين كلهم بدونه ، فإنهم لولاه ولولا رسالته والإيمان به ومحبته والإقرار بالشهادة التي لا تصح إلا به ما كانوا ولا قاموا ولا فازوا ولا نجوا .

ومن هنا فإن ابن عقيل الحنبلي لما سئل عن المفاضلة بين الحجرة والكعبة فقال : إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل ، وإن أردت وهو ρ فيها فلا والله لا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة ، لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح . (كذا في بدائع الفوائد لابن القيم) .

هذا هو المقصود بالقبر وتفضيله وزيارته وشد الرحال إليه .

ومن هنا أيضاً قال العلماء : إنه لا ينبغي أن يقول : زرت القبر وإنما

زرت النبي ρ [27] ، وهذا ما قرره العلماء في تفسير قول الإمام مالك رحمه الله : أكره للرجل أن يقول : زرنا قبر النبي ρ وذلك لأنه إنما يزور من يسمعه ويراه ويحس به ويعرفه ويرد عليه ، فالقضية ليست قضية قبر بل هي أكبر من ذلك وأجل وأرفع من أن ينظر إليها من الزاوية القبورية ، فإذا نظرنا إلى القبر فقط دون النظر إلى من فيه وجدنا الأرواح الطاهرة التي تحف به من كل جانب ووجدنا جسراً

---

(27) أنظر الشفا للقاضي عياض .

ملائكياً متصلاً ممتداً من الملأ الأعلى إلى قبر محمد ρ مواكب متصلة لا تنقطع أعدادها وأمدادها لا يحصيها إلا الحق جل جلاله .

روى الدارمي في سننه : حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني خالد هو ابن يزيد عن سعيد هو ابن أبي هلال عن نبيه بن وهب : أن كعباً دخل على عائشة فذكروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كعب : ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه . كذا في سنن الدارمي ج1 ص44) .

قلت : وروى هذا الأثر أيضاً الحافظ إسماعيل القاضي بسنده وهو جيد في المتابعات والشواهد والمناقب وفضائل الأعمال .

وإذا نظرنا ما حول القبر من الروضة التي هي قطعة من الجنة والمنبر الذي نال الشرف الأعلى بالحبيب ρ وسيكون يوم القيامة على حوضه العظيم وإلى الجذع الذي حن إليه حنين الثكلى وسيكون يوم القيامة في جنة الخلد وسط أشجارها ، وقد قيل : إنه دفن في موضعه بالمسجد فلا أظن أن عاقلاً حريصاً على الخير يتوقف عن الدعاء في هذه المواضع .

القبر النبوي – والدعاء

ذكر العلماء رضي الله عنهم : أنه يستحب لمن زار النبي صلى الله عليه وسلم أن يقف للدعاء فيسأل الله تعالى ما يشاء من الخير

والفضل ولا يلزمه أن يتوجه إلى القبلة ولا يكون في وقوفه ذلك مبتدعاً أو ضالاً أو مشركاً ، وقد نص العلماء على هذا الأمر ، بل قد ذهب بعضهم إلى القول بالاستحباب .

والأصل في هذا الباب هو ما جاء عن الإمام مالك بن أنس لما ناظره أبو جعفر المنصور في المسجد النبوي ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ! لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال : { لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } الآية . وقد مدح قوماً فقال : { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ } الآية . وذم قوماً فقال : { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ } الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً ، فاستكان لها أبو جعفر وقال : يا أبا عبد الله ! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ρ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله ، قال الله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } الآية .

وهذه القصة رواها القاضي عياض بسنده في كتابه المعروف بـ ((الشفا في التعريف بحقوق المصطفى))في باب من أبواب الزيارة ، وقد صرح كثير من العلماء بهذا .

قال الشيخ ابن تيمية : قال ابن وهب فيما يرويه عن مالك : إذا سلم على النبي ρ يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده . اهـ (من اقتضاء الصراط المستقيم ص396) .

وصرح النووي رحمه الله في كتابه المعروف بالأذكار في أبواب الزيارة ، وكذلك في الإيضاح في باب الزيارة ، وكذلك في المجموع (ج8 ص272) .

قال الخفاجي شارح الشفا : قال السبكي : صرح أصحابنا بأنه يستحب أن يأتي القبر ويستقبله ويستدبر القبلة ثم يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على الشيخين ثم يرجع إلى موقفه الأول ويقف فيدعو . اهـ شرح الشفا للخفاجي (ج3 ص398) .

* * *

رأي الشيخ ابن تيمية :

قال الشيخ ابن تيمية بعد نقل أقوال العلماء في هذا الموضوع : [فاتفقوا في استقبال القبلة وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء] .

هذه خلاصة ما يراه الشيخ ابن تيمية في هذا الموضوع وهو يدل دلالة واضحة على أن من وقف أمام القبر يدعو الله تعالى ويسأله من فضله كما شرع هو على أساس متين معتبر مؤيد بأقوال أئمة من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، ولو تأمل المنصف العاقل قول الشيخ ابن تيمية : [وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء] لفهم منها ما يطمئن قلبه ويقر عينه ويبشره بأن هؤلاء الذين يقفون بعد السلام على الرسول ρ للدعاء عند قبره ما زالوا على التوحيد ، ومن أهل الإيمان ، ولأن هذه المسألة متنازع فيها بين السلف والكلام مختلف بينهم بين الاستحباب وغيره ، فهل يصل الحال إلى القول بالشرك والضلال ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

* * *

تحليل كلام الشيخ ابن تيمية :

والمفهوم من كلام الشيخ ابن تيمية هو أن المنهي عنه حقيقة هو تحري الدعاء عند القبور أو قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك ، أو تستشعر أن الدعاء عند القبر أجوب من غيره ، أما أن يدعو الله تعالى في طريقه ويتفق أن يمر بالقبور فيدعو عندها أو أن يزور قبراً فيسلم على صاحبه ثم يدعو في مكانه ذلك فلا يلزمه أن يتحول إلى القبلة ولا يقال في حقه : إنه مشرك أو مبتدع. وإليك نصوص كلام الشيخ في هذا الموضوع . قال في اقتضاء الصراط المستقيم في

صفحة 336 : فمما يدخل في هذا قصد القبور للدعاء عندها أو لها فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله تعالى في طريقه ويتفق أن يمر بالقبور أو من يزورها فيسلم عليها
ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة فهذا ونحوه لا بأس به .

الثاني: أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره ، فهذا النوع منهي عنه : غما نهي تحريم أو تنزيه وهو إلى التحريم أقرب والفرق بين البابين ظاهر .

ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم بل لو قصد بيتاً أو حانوتاً في السوق ، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها لكان هذا من المنكرات المحرمة إذ ليس للدعاء عندها فضل .

فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب بل هو أشد من بعضه لأن النبي ρ نهى عن اتخاذها مساجد وعن اتخاذها عيداً وعن الصلاة عندها بخلاف كثير من هذه المواضع .

ثم قال في صفحة 338 : إن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاء أكثر نم رجائها في غير ذلك الموطن أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين ، ولا ذكره أحد من العلماء الصالحين المتقدمين .

ثم قال في صفحة 339 : ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً بل كانوا ينهون عن ذلك من يفعله من جهالهم كما ذكرنا بعضه . اهـ (من اقتضاء الصراط المستقيم ص339) .

* * *

رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدعاء عند القبر

الدعاء عند القبر ليس بدعة ولا شركاً

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء : (لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد: [يتوسل بالنبي ρ خاصة] مع قولهم: (إنه لا يستغاث بمخلوق) .

فقال : فالفرق ظاهر جداً وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي ρ ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه ، فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور :

إنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ولا إنكار في مسائل الاجتهاد ، لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً ، ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ، أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين ، فأين هذا مما نحن فيه .

(انتهى من فتاوى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في مجموع المؤلفات القسم الثالث ص68 التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) .

* * *

القبر النبوي والتبرك بالتمسح به أو الشباك وتقبيله

اعلم أنه ينبغي للزائر أن لا يقبل القبر الشريف ولا يمسحه بيديه ولا يلصق بطنه وظهره بجداره أو بالحاجز المستور بالكسوة أو الشباك فإن كل ذلك مكروه لما فيه من استعمال خلاف الأدب في حضرته ρ ، وقصد التبرك لا ينفي الكراهة لأنه جهل بما يليق من الأدب ولا اغترار بما يفعله أكثر العوام فإن الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا على خلافه كما صرح به النووي في إيضاحه .

وأطال ابن حجر في المنح والجوهر في ترجيحه ، قال في الإحياء : مسّ المشاهد وتقبيلها عادة اليهود والنصارى اهـ .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين ، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته ، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وكيف ينبغي الفضل في مخالفة الصواب . اهـ .

(من المجموع ج8 ص275).

رأي الإمام أحمد بن حنبل

وقد جاءت روايات عن الإمام أحمد في هذا الموضوع بعضها يفيد جواز ذلك وبعضها يفيد التوقف في الحكم ، وبعضها يفيد التفريق بين المنبر النبوي وبين القبر ، وذلك بجواز الأول والتوقف في الثاني أو الإباحة ومهما كان ذلك الاختلاف فإنه لا يصل الحال بالحكم على فاعله بالكفر أو الضلال أو الخروج عن الملة أو الابتداع في الدين غاية ما في الأمر أنه فعل ما هو مختلف فيه ، أو ما هو مكروه ، والمقصود هو ألا يتخذ ذلك عادة حتى يغتر به العوام ويظنونه من مستلزمات الزيارة وآدابها ، وإليك كلام الإمام أحمد :

قال في خلاصة الوفا ما نصه : وفي كتاب العلل والسؤالات لعبد الله ابن أحمد ابن حنبل قال : سألت أبي عن الرجل يمس قبر النبي ρ يتبرك بمسه وتقبيله ويفعل بالمنبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى ، فقال : لا بأس به .

قال أبو بكر الأثرم : قلت لأبي عبد الله – يعني أحمد بن حنبل – قبر النبي ρ يمس ويتمسح به ؟ فقال : ما أعرف هذا ، قلت له : فالمنبر ؟ فقال : أما المنبر فنعم ، فقد جاء فيه ، قال أبو عبد الله : شيء يروونه عن ابن فديك عن أبي ذئب عن ابن عمر [أنه مسح على المنبر] قال : ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة ، قلت : ويروون عن يحيى بن سعيد : أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه ، ثم قال : لعله عند الضرورة والشيء ، قيل لأبي عبد الله : إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر ، وقلت له : رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية فيسلمون ، فقال أبو عبد الله : نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ، ثم قال أبو عبد الله : بأبي هو وأمي ρ .

قال الشيخ ابن تيمية :

فقد روى أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي ρ ويده ، ولم يرخصوا في التمسح بقبره ، وقد حكى بعض أصحابنا رواية في مسح قبره لأن أحمد شيع بعض الموتى فوضع يده على قبره يدعو له والفرق بين الموضعين ظاهر . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم (ص367) ، ونقله ابن مفلح عن الإمام أحمد في الفروع (ج3/ ص524) .

* * *

القبر النبوي محفوظ من الشرك والوثنية

وقد حفظ الله تعالى هذا القبر المشرف بالحبيب الأعظم والنبي الأكرم ρ فلا يقع عنده شرك ولا شيء من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلا لله ، ولا يقع في ذهن أحد أنه وثن يعبد أو قبلة يتوجه إليها بالعبادة وذلك ببركة دعوة رسول الله ρ حيث دعا بذلك فاستجاب الله دعاءه وحقق مطلوبه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي موطأ مالك رضي الله عنه عن النبي ρ أنه قال :

((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ..

وقد استجاب الله دعوته فلم يتخذ – ولله الحمد – وثناً كما اتخذ قبر غيره بل ولا يتمكن أحد من الدخول إلى حجرته بعد أن بنيت الحجرة ، وقبل ذلك ما كانوا يمكنون أحداً من أن يدخل إليه ليدعو عنده ، ولا يصلي عنده ولا غير ذلك مما يفعل عند قبر غيره ، لكن من الجهال من يصلي إلى حجرته أو يرفع صوته أو يتكلم بكلام منهي عنه ، وهذا إنما يفعل خارجاً عن حجرته لا عند قبره وإلا فهو ولله الحمد استجاب الله دعوته فلم يمكن أحد قط أن يدخل إلى قبره فيصلى عنده أو يدعو أو يشرك به كما فعل بغيره اتخذ قبره وثناً ، فإنه في حياة عائشة رضي الله عنها ما كان أحد يدخل إلا لأجلها ، ولم تكن تمكن أحداً أن يفعل عند قبره شيئاً مما نهى عنه ، وبعدها كانت مغلقة إلى أن أدخلت في المسجد

فسد بابها وبنى عليها حائط آخر ، كل ذلك صيانة له أن يتخذ بيته عيداً وقبره وثناً ، وإلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ولا يأتي إلى ما هناك إلا مسلم وكلهم معظمون للرسول صلى الله عليه وسلم وقبور آحاد أمته في البلاد معظمة ، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم ، بل فعلوه لئلا يتخذ وثناً يعبد ، ولا يتخذ بيته عيداً ، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم ، والقبر المكرم في الحجرة إنما عليه بطحاء وهو الرمل الغليظ ليس عليه حجارة ولا خشب ، ولا هو مطين كما فعل بقبور غيره وهو ρ إنما نهى عن ذلك سداً للذريعة ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها لئلا يفضي ذلك إلى الشرك ، ودعا الله عز وجل أن لا يتخذ قبره وثناً يعبد فاستجاب الله دعاءه ρ ، فلم يكن مثل الذين اتخذت قبورهم مساجد فإن أحداً لا يدخل عند قبره البتة ، فإن من كان قبله من الأنبياء إذا ابتدع أممهم بدعة بعث الله نبياً ينهى عنها وهو ρ خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وعصم قبره المكرم أن يتخذ وثناً فإن ذلك والعياذ بالله لو فعل لم يكن بعده نبي ينهى عن ذلك وكان الذين يفعلون ذلك قد غلبوا الأمة وهو ρ قد أخبر أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة ، فلم يكن لأهل البدع سبيل أن يفعلوا بقبره المكرم كما فعل بقبور غيره ρ . اهـ .

(من الجواب الباهر في زوار المقابر ، ص13 للشيخ ابن تيمية) .

* * *

التردد على الآثار النبوية والمشاهد الدينية

والتبرك بزيارتها

كتب في هذا الموضوع الشيخ ابن تيمية كلاماً نفيساً جداً ، ونحن ننقل منه هذه الفوائد المهمة .

فأما مقامات الأنبياء والصالحين وهي الأمكنة التي قاموا عليها أو أقاموا أو عبدوا الله سبحانه وتعالى فيها لكنهم لم يتخذوها مساجد .

فالذي بلغني في ذلك قولان عن العلماء المشهورين :

أحدهما : النهي عن ذلك وكراهته ، وأنه لا يستحب قصد بقعة للعبادة إلا أن يكون قصدها للعبادة مما جاء به الشرع مثل أن يكون النبي ρ قصدها للعبادة كما قصد الصلاة في مقام إبراهيم وكما كان يتحرى الصلاة عند الاستطوانة.

وكما يقصد المساجد للصلاة ويقصد الصف الأول ونحو ذلك .

والقول الثاني : أنه لا بأس باليسير من ذلك كما نقل عن ابن عمر [أنه كان يتحرى قصد المواضع التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان النبي ρ قد سلكها اتفاقاً لا قصداً] .

قال سندي الخواتيمي : سألنا أبا عبد الله عن الرجل يأتي هذه المشاهد يذهب إليها ترى ذلك ؟ قال : أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي ρ أن يصلي في بيته حتى يتخذ ذلك مصلى ، وعلى ما كان يفعله ابن عمر يتتبع مواضع النبي ρ وأثره فليس بذلك بأس أن يأتي الرجل المشاهد إلا أن الناس قد أفرطوا في هذا وأكثروا فيه .

وكذلك نقل عنه أحمد بن القاسم : أنه سئل عن الرجل يأتي هذه المشاهد التي بالمدينة المنورة وغيرها يذهب إليها ؟ فقال : أما على حديث ابن أم مكتوم (أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أن يأتيه

فيصلي في بيته حتى يتخذه مسجداً)، أو على ما كان يفعل ابن عمر : كان يتتبع مواضع سير النبي ρ حتى أنه رؤي يصب في موضع ماء ، فسئل عن ذلك ، فقال : (كان النبي ρ يصب هاهنا ماء) . قال : أما على هذا فلا بأس . قال : ورخص فيه ثم قال : ولكن قد أفرط الناس جداً وأكثروا في هذا المعنى ، فذكر قبر الحسين وما يفعل الناس عنده .

رواهما الخلال في كتاب الأدب .

قال الشيخ ابن تيمية :

فقد فصل أبو عبد الله في المشاهد وهي الأمكنة التي فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة بين القليل الذي لا يتخذونه عيداً أو الكثير الذي يتخذونه عيداً كما تقدم .

وهذا التفصيل جمع فيه بين الآثار وأقوال الصحابة ، فإنه قد روى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق ويصلي فيها ، ويحدث أن أباه كان يصلي فيها وأنه رأى النبي ρ يصلي في تلك الأمكنة ، قال موسى : وحدثني نافع أن ابن عمر كان يصلي في تلك الأمكنة] .

فهذا ما رخص فيه أحمد رضي الله عنه .

وأما ما كرهه فروى سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن عمر رضي الله عنه قال : (خرجنا معه في حجة حجها فقرأ بنا في الفجر بـ { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } ، و { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ } في الثانية ، فلما رجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد فقال : ما هذا ؟ قالوا مسجد صلى فيه رسول الله ρ فقال :

((هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم : اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً من عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ومن لم تعرض له الصلاة فليمض)) ..

فقد كره عمر رضي الله عنه اتخاذ مصلى النبي ρ عيداً ، وبين أن أهل الكتاب إنما هلكوا بمثل هذا .

قال الشيخ ابن تيمية : قد اختلف العلماء رضي الله عنهم في إتيان المشاهد .

فقال محمد بن وضاح : كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التي بالمدينة ما عدا قباء وأحداً ، ودخل سفيان الثوري بيت المقدس وصلى فيه ، ولم يتتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها .

فهؤلاء كرهوها مطلقاً لحديث عمر رضي الله عنه هذا ولأن ذلك يشبه الصلاة عند المقابر إذ هو ذريعة إلى اتخاذها أعياداً وإلى التشبه بأهل الكتاب ، ولأن ما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة ، فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار أن أحداً منهم كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ρ [228].

ثم قال : واستحب آخرون من العلماء المتأخرين إتيانها وذكر طائفة من المصنفين من أصحابنا وغيرهم في المناسك استحباب زيارة هذه المشاهد وعدوا منها مواضع وسموها .

وأما أحمد : فرخص منها فيما جاء به الأثر من ذلك إلا إذا اتخذت عيداً مثل أن تنتاب لذلك ويجتمع عندها في وقت معلوم كما يرخص في صلاة النساء في المساجد جماعات وإن كانت بيوتهن خيراً لهن إلا إذا تبرجن ، وجمع بذلك بين الآثار واحتج بحديث ابن أم مكتوم . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم (ص387) .

والحاصل الظاهر من كلام الإمام أحمد أنه يجيز التردد على الآثار والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ويرى أن تتبع ذلك والاعتناء به له أصل في السنة النبوية وهو ليس ببدعة ولا ضلالة فضلاً

---

(228) أنظر تعليق رقم 21 في الملحق آخر الكتاب .

عن أن يكون شركاً أو كفراً ، لكنه انتقد الإفراط في ذلك والاشتغال به بصورة زائدة .

هذه خلاصة رأيه رضي الله تعالى عنه .

أما الشيخ ابن تيمية فقد فهم نم كلام أحمد التفصيل في هذا الأمر بين القليل والكثير ، وفهم أن الكثير من ذلك هو المكروه عند أحمد وحكم عليه بأنه مكروه فقط ولم يزد على القول بالكراهة شيئاً وقد بين ابن تيمية القدر الكثير الذي يصير به هذا التردد والتتبع للآثار النبوية مكروهاً ، وهو أن تتخذ تلك الأماكن والآثار عيداً يجتمعون عليه عندها ويحتفلون بها في أوقات مخصوصة .

ويفهم من كلام الشيخ ابن تيمية أيضاً أن الآثار التي ثبت أن الأنبياء اتخذوها مسجداً أو صلوا فيها فإنها خارجة عن هذا التفصيل ، وينبني عليه أن الأماكن والآثار التي ثبت أن الأنبياء صلوا فيها لها ميزة على غيرها وأنها تقصد للعبادة والصلاة ، وهذا صريح كلامه حين قال في أول البحث : [لكنهم لم يتخذوها مساجد] ، وحين قال : (فقد فصل أبو عبد الله في المشاهد وهي الأمكنة التي فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة بين القليل الذي لا يتخذونه عيداً والكثير الذي يتخذونه عيداً كما تقدم) . اهـ (من اقتضاء الصراط ص385) .

معنى العيد المنهي عنه في الحديث :

وقد حدد الشيخ ابن تيمية معنى العيد المنهي عنه في الحديث بقوله ρ :

((لا تتخذوا قبري عيداً)) ..

فقال :

وفي الجملة هذا الذي يفعل عند هذه القبور هو بعينه الذي نهى عنه رسول الله ρ بقوله :

((لا تتخذوا قبري عيداً)) ..

فإن اعتياد قصد المكان المعين في وقت معين عائداً بعود السنة أو الشهر أو الأسبوع هو بعينه معنى العيد ثم ينهى عن دق ذلك وجله وهذا هو الذي تقدم عن الإمام أحمد إنكاره قال : وقد أفرط الناس في هذا جداً وأكثروا ، وذكر ما يفعل عند قبر الحسين .

وقال في موضع آخر : فأما اتخاذ قبورهم أعياداً فهو مما حرمه الله ورسوله واعتياد قصد هذه القبور في وقت معين والاجتماع العام عندها في وقت معين هو اتخاذها عيداً كما تقدم ولا أعلم بين المسلمين من أهل العلم في ذلك خلافاً ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة ، فإن هذا من التشبه بأهل الكتابين الذي أخبرنا النبي ρ أنه كائن في هذه الأمة . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم (ص377) .

عقيدة المؤلف :

وهذا الذي ذكره الشيخ ابن تيمية هو عين ما نعتقده في هذا الموضوع بفضل الله سبحانه وتعالى وهو ما ندعو إليه ونحث الناس عليه في كل مجال وفي كل مناسبة إننا ننهاهم أن يتخذوا قبر النبي ρ أو الآثار والمشاهد عيداً وننهاهم أن يخصوها بشيء من أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ، وننهاهم أن يخصصوا لها يوماً يجتمعون فيه ويحتفلون به ، هذا ما نعتقده وندين الله به ، لا من اليوم ولا من الأمس بل خلف عن سلف وأبناء عن آباء ، بفضل الله سبحانه وتعالى .

فالواجب علينا أن نلاحظ بعين الاعتبار هذه الأقوال والتحليلات العلمية الدقيقة التي تدل على حسن الفهم في تذوق العلم وأن لا نبادر إلى تكفير المسلمين أو الحكم عليهم بالضلال والبدعة لمجرد تتبعهم للآثار النبوية واهتمامهم بالمقامات والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ، وأن نحسن الظن بهم وأن نعلم أن المقصود

الأصلي هو الله سبحانه وتعالى ، وهذه كلها أسباب ووسائل تزيد في النفس الإيمان والاعتبار والادكار والارتباط بأصحابها وتاريخهم ، وهم القدوة الحسنة للبشر مع ما في ذلك من التعرض للنفحات والبركات المتنزلة في أماكن الخير ومواطن الهدى لأن الأماكن التي كانت معمورة بأهل الخير والصلاح لا تزال هي محل الرضا والرضوان ، والأماكن التي كانت معمورة بأهل الشر والفساد هي محل السخط والغضب ، ولذلك أمر ρ أصحابه أن لا يدخلوا ديار ثمود إلا وهم باكون ، وأن لا يشربوا من مائها ، بل أمرهم أن يهريقوا ما أخذوه ، وأن لا يأكلوا ما طبخوه بها ، وكذلك أمرهم بالإسراع في المشي إذا دخلوا وادي محسر المعروف بوادي النار .

وقد فصلنا هذا الموضوع بعينه في مبحث خاص : بالتبرك بالآثار النبوية .

الاعتناء بالآثار والمشاهد

المحافظة على الآثار النبوية أصل عظيم وتراث كريم وتاريخ ، إنه تاريخ الأمة الذي تفخر به والذي يظهر به شرفها وشرف رجالها وأئمتها الذين بنوا مجدها وأقاموا عزها وصنعوا منها أمة قائدة رائدة في كل مجال ، ولذلك فإن إهمال هذه الآثار إهدار لشواهد الحضارة الإسلامية الواقعية ومسخ لأصول طبيعية باقية من تراثنا الإسلامي وجناية على أعز ما تملكه الأمة في هذا المجال ، إنه هو وصمة في الجبين وقذاة في العين يعكر صفو الرؤية ويشوه الصورة ويفوت علينا خيراً عظيماً لا يعوض ولا يدرك لأنه ستتغير معالمه وتنطمس رسومه ثم لا يبقى منه شيء ثم لا يبقى من يعرف منه شيئاً .

فإن قيل إن بعض الناس يتخذها عيداً ويشرك بالله عندها بعبادتها دون الله أو بالطواف حولها وربط الحبال وإلقاء الأوراق أو الذبح لها .

فنقول : إن ذلك كله لا نرضاه ولا نوافق عليه بل وننهى عنه ونحذر الناس منه وهو من الجهل الذي يجب محاربته لأن هؤلاء يؤمنون بالله ويقرون له بالتوحيد ويشهدون أنه لا إله إلا هو ولكنهم يخطئون العمل ويجهلون الصواب ، فالواجب تعليمهم وإرشادهم ولكن ذلك كله لا يدعو إلى إهمالها أو إزالتها ومحوها من الوجود والاعتذار بتلك الحجج اعتذار بارد وتعليل عليل ليس بمقبول عند العلماء والعقلاء إذ يمكن إزالة تلك العوارض إذا وجدت بالمنع والمراقبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والخلق الحسن مع بقاء آثارنا والمحافظة عليها والاعتناء بها حفظاً لأصالة الأمة ووفاء للتاريخ وأداء للأمانة التي في أعناقنا والتي هي جزء أصيل من تاريخنا المجيد وتاريخ نبينا محمد ρ ، والمفكرون اليوم يحافظون على آثار بائدة لأمم ملعونة مسخوطة معذبة ممن سبقنا كقوم ثمود وعاد ، فهل يصح أن نحافظ على تلك الآثار ونعتني بها ونجاهد في سبيل بقائها ونضيع آثار أشرف خلق الله الذي تشرفت به البلاد والعباد وأعز الله به الأمة ورفعها وجعل لها المكانة العالية والرتبة السامية التي ما نالها نائل ولا وصل إليها واصل إلا بسبب الانتماء إلى الحظ السعيد والمجد التليد محمد بن عبد الله ρ.

اعتناء القرآن بآثار الأنبياء السابقين :

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز قصة تابوت بني إسرائيل الذي جعله علامة صحة ملك طالوت عليهم فقال :

{ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } .

هذا التابوت شأنه عظيم ومقامه كريم وكان عندهم يقدمونه بين أيديهم في حروبهم فيحصل لهم النصر ببركة التوسل إلى الله تعالى به وبما فيه ، فلا يقاتلون أحداً من أعدائهم إلا ويكون معهم هذا التابوت ، وقد أخبر الله تعالى في الآية عن محتوياته بأنه فيه سكينة إلهية وآثار نبوية وهي التي قال عنها : { وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ } ، وهذه البقية من تركة آل هارون هي عصا موسى وعصا هارون وثيابه والنعلان ولوحان من التوراة . كذا في تفسير ابن كثير (ج1 ص313) ، وفيه أيضاً طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء . انتهى من البداية والنهاية (ج2 ص8) .

وبسبب هذه الآثار العظيمة المنسوبة إلى أولئك المصطفين الأخيار من عباد الله عظم الله قدر هذا التابوت ورفع شأنه وحفظه ورعاه برعايته الخاصة لما غلبوا بسبب معاصيهم ومخالفتهم إذ لم تتحقق أهليتهم للاحتفاظ به فعاقبهم الله تعالى بأخذه وسلبه منهم ثم حفظه الله تعالى ثم رده إليهم ليكون علامة على صحة ملك طالوت عليهم ، وقد رده إليهم بالتعزيز والتكريم والتقدير إذ جاءت به الملائكة تحمله إليهم .

فأي عناية أعظم من هذه العناية بالآثار والاهتمام بها والمحافظة عليها وتنبيه العقول والأفهام إلى أهمية ذلك الأمر وجلالته وقيمته التاريخية والدينية والحضارية .

* * *

محافظة الخلفاء الراشدين على خاتم النبي ρ

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : اتخذ رسول الله صلى اله عليه وآله وسلم خاتماً من ورق وكان في يده ثم كان بعد في يد أبي بكر ثم كان بعد في يد عثمان حتى وقع بعد في بئر أريس نقشه محمد رسول الله .

رواه البخاري في الصحيح في كتاب اللباس باب خاتم الفضة ، قال الحافظ ابن حجر : جاء في رواية النسائي : أنه التمس فلم يوجد ، وجاء في رواية ابن سعد : أنه كان في يد عثمان ست سنين . اهـ (فتح الباري ج10 ص313) .

قال العيني : وبئر أريس حديقة بقرب مسجد قباء . اهـ عمدة القاري (ج22 ص31) . قلت : وهذه البئر صارت معروفة اليوم ببئر الخاتم وهو خاتم رسول الله ρ الذي سقط فيها أيام خلافة عثمان وقد اجتهد ثلاثة أيام في استخراجه بكا ما وجد سبيلاً فلم يلقه . (أنظر المغانم المطابة في معالم طابة للفيروز آبادي ص26) .

* * *

محافظة الخلفاء الراشدين على حربة كانت عند النبي ρ

روى الإمام البخاري بسنده إلى الزبير رضي الله تعالى عنه قال : لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه وهو يكنى أبا ذات الكرش فقال : أنا أبو ذات الكرش فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات ، قال هشام : فأخبرت أن الزبير قال : لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها ، قال عروة : فسأله إياها رسول الله ρ فأعطاه ، فلما قبض رسول الله ρ أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه إياها ، فلما قبض أبو

بكر سأله إياها عمر ، فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها ، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله
ابن الزبير ، فكانت عنده حتى قتل .

رواه البخاري في كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدراً ، وقوله فحملت عليه بالعنزة . العنزة بفتح النون هي كالحربة ، وقال بعضهم : هي شبه العكاز .

وحاصل القصة هو أن الزبير قتل عبيدة بن سعيد بن العاص يوم بدر طعنه في عينه بالعنزة فمات ، ثم طلب النبي ρ منه تلك العنزة عارية فأعطاه ، فلما قبض ρ أخذها الزبير ثم طلبها أبو بكر من الزبير عارية فأعطاه وبقيت عنده إلى أن مات ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول ثم طلبها عمر من الزبير فأعطاه وبقيت عنده مدة حياته ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها فلما قتل عثمان وقعت عند عليّ فطلبها الزبير صاحبها الأول فكانت عنده حتى قتل. أنظر (الفتح ج7 ص314 ، وعمدة القاري ج17 ص107) .

ونحن نتساءل لماذا هذا الحرص العظيم والاهتمام بهذه الحربة والحراب كثيرة ، ولعل هناك ما هو أحسن منها وأجود وممن هذا الحرص ؟ إنه من الخلفاء الأربعة الراشدين المهتدين أئمة الدين وأركان التوحيد وأمناء الدين .

* * *

محافظة عمر بن الخطاب على ميزاب العباس لأنه وضعه ρ

عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر – رضي الله عنه – فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذبح للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه من دم الفرخين فأصاب عمر فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها ، ثم جاء فصلى بالناس فأتاه العباس فقال : والله إنه الموضع الذي وضعه رسول الله ρ ، فقال عمر للعباس : عزمت عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ρ ففعل ذلك العباس . كذا في الكنز (ج7 ص66) .

وقال الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة في كتابه المغني :

فصل : ولا يجوز إخراج الميازيب إلى الطريق الأعظم ولا يجوز إخراجها إلى درب نافذ إلا بإذن أهله .

وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : يجوز إخراجها إلى الطريق لأن عمر – رضي الله عنه – اجتاز على دار العباس وقد نصب ميزاباً إلى الطريق فقلعه ، فقال العباس : تقلعه وقد نصبه رسول الله ρ بيده ؟ فقال : والله لا نصبته إلا على ظهري وانحنى حتى صعد على ظهره فنصبه . اهـ من المغني لابن قدامة (554/4) .

ابن عمر لم يكن وحده مع الآثار

اشتهر ابن عمر رضي الله عنهما بتتبعه للآثار واعتنائه بها ومحافظته عليها ، قال الشيخ ابن تيمية : سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل يأتي هذه المشاهد ، فأجاب وذكر في جوابه : أن ابن عمر كان يتتبع مواضع سير النبي ρ حتى أنه رؤي يصب في موضع ماء ، فسئل عن ذلك ، فقال : كان النبي ρ يصب هاهنا ماء .

وروى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق ويصلي فيها ويحدث أن أباه كان يصلي فيها وأنه رأى النبي ρ يصلي في تلك الأمكنة ، قال موسى : وحدثني نافع أن ابن عمر كان يصلي في تلك الأمكنة اهـ . اقتضاء الصراط المستقيم (ص385) .

ولكن لم ينفرد ابن عمر بهذا الأمر بل شاركه كثير من الصحابة رضي الله عنهم في التتبع للآثار والمحافظة عليها والاهتمام بها ، وقد ذكرنا ما يؤيد هذا من قبل من فعل الخلفاء الراشدين والأئمة المهدين الذين جعل النبي ρ فعلهم سنة متبعة مستمدة من سنته وهديه وأمر بالتمسك بها والرجوع إليها ، ومعلوم أن سنتهم هي سنته لأنهم لا كلام ولا اجتهاد ولا نظر أمام كلامه الذي صح وثبت عنه ρ .

وذكرنا في مبحث التبرك بالآثار جملة صالحة من النصوص التي لها اتصال وثيق بهذا المبحث وبها ينجلي ويتضح كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بآثاره وفيهم ابن عمر وغيره ، والحق أن هذا البحث وذاك متصلان ونابعان من أصل واحد لأن التبرك بالآثار هو فرع المحافظة عليها والاعتناء بها إلا أن الثانية ألصق بالتاريخ والحضارة الاجتماعية والأولى أنسب للإيمان والمحبة والتعلق .

ابن عباس والآثار القديمة

لما أراد عبد الله بن الزبير هدم الكعبة جمع الصحابة فاستشارهم في ذلك فاقترح عليه ابن عباس أن لا يهدمها كلها وأن يصلح المواضع التي تحتاج إلى إصلاح فقط ليبقى الصالح على ما هو عليه محافظة على

الحجارة القديمة التي كانت في العهد الأول عهد الإسلام عهد البعثة عهد النبي ρ .

عن عطاء قال : لما احترق البيت (زمن يزيد بن معاوية) حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان . تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرّئهم (أو يَحْربهم) على أهل الشام . فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس ! أشيروا عليَّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهي منها ؟ قال ابن عباس: فإني قد فُرق لي رأي فيها أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها وبُعث عليها النبي ρ .

(صحيح مسلم كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها شرح النووي ص92/94 ج9).

* * *

غيرة عمر على الآثار النبوية

وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه شديد الغيرة على الآثار النبوية عظيم العناية بها والحماية لها ، ولذلك لما رأى الناس مجتمعين على شجرة زعموا أنها شجرة الرضوان التي حصلت عندها بيعة الرضوان وذكرها الله تعالى في كتابه بقوله { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } ، إذ كان رضي الله عنه يعرف حق المعرفة أن

الشجرة غير معروفة ولا أحد يعلم مكانها فضلاً عن عينها وأن أصحابها الذين حضروها وشهدوها وبايعوا تحتها هم بأنفسهم لا يعرفونها فكيف بغيرهم بل قد صرحوا بذلك كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما إنه جاء في العام التالي لعام بيعة الرضوان ، قال : فبحثنا عن الشجرة فلم يقع عليها رجلان .

قال المسيب والد سعيد : لقد رأيت الشجرة ثم أنسيتها بعد فلم أعرفها ، وقول طارق بن عبد الرحمن : طلعت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ρ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع تحت الشجرة قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم . وفي رواية أنه قال : فعميت علينا . أنظر صحيح البخاري كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، وصحيح مسلم كتاب الإمارة باب استحباب متابعة الإمام .

أي لم يتفق رأي رجلين على شجرة واحدة بالتعيين ، فإذا كان هذا في خلال سنة واحدة في عهد واحد ومع توافر وجود أصحاب الرضوان الذين حضروا عندها وبايعوا تحتها فما بالك بشجرة ظهرت في زمن عمر بعد سنوات عديدة .

اختلف العهد ومات أكثر من حضر الموقف ، واختلف الناس في تعيين الشجرة المباركة التي تشرفت بالبيعة المحمدية ، وحصل عندها أعظم موقف من مواقف التضحية والجهاد اهتزت له السموات والأرض ، وشهدته الملائكة الكرام وسجله القرآن بقوله : { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قرِيباً } الآية .

ثم كان عند هذه الشجرة المباركة الميمونة إعلان منقبة من أعظم مناقب وخصائص النبي الأعظم والرسول الأكرم ρ سجّلها القرآن بقوله : { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } الآية .

فعمر رضي الله عنه لم يقطعها ليمنع التبرك بالآثار أو لأنه لا يرى ذلك ولم يقع ذلك المعنى في قلبه أصلا ولم يخطر على باله أبداً بدليل أنه رضي الله عنه ثبت عنه التبرك وطلب التبرك بالآثار ونحوها كطلبه من أبي بكر العنزة التي كانت عند رسول الله ρ ومحافظته على خاتم رسول الله ρ وغير ذلك ، وكان رسول الله ρ قد استعار تلك العنزة من الزبير كما في البخاري في باب شهود الملائكة بدراً اهـ من المغازي . وفي نسخة القسطلاني (ج6 ص264) .

* * *

الاهتمام بالنعال النبوية والقيام بدراسة علمية لها

ومن الآثار النبوية التي نالت اهتمام العلماء وعنايتهم النعال النبوية ، بل حظيت بدراسة عميقة ودقيقة عن صفتها ومثالها ولونها ، فكتبوا عنها البحوث المتخصصة وألفوا فيها الرسائل المستقلة .

والمقصود من ذلك كله هو صاحب النعال ، ألا وهو النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وإذا كنا نهتم بآثار العظماء وملابسهم وثيابهم ومتاعهم ونبذل في حصيلها الغالي والرخيص ونقيم لها المتاحف الخاصة والخبراء المتخصصين فإنه ρ نفسي له الفداء أولى وأحق ، فلو بذلت المهج وحر الأموال في سبيل ذلك لكان رخيصاً لأجله صلى الله عليه وسلم .

* * *

اهتمام المملكة بالآثار

ولقد وفق الله حكومتنا السنية إلى العناية بالآثار عناية عظيمة ، حرصاً على تراثنا المجيد ، وحفظاً لمعالم الحضارة الإسلامية التاريخية ، فجعلت لها دائرة خاصة تعتني وتهتم بها تسمى (إدارة الآثار) وأصدرت لها نظاماً خاصاً معتمداً بالمرسوم الملكي رقم م/26 /وتاريخ 1396/23 هـ[29].

وأنشأت مجلساً خاصاً للنظر فيما يتعلق بهذا الموضوع يسمى (المجلس الأعلى للآثار) وصدر قرار مجلس الوزارة رقم 235 وتاريخ 1398/2/21 هـ ، بتكوين أعضائه برئاسة وزير المعارف وعضوية مندوبين عن الداخلية والمالية والحج والأوقاف والإعلام والآثار .

وبين النظام أن الهدف من إنشاء المجلس الأعلى للآثار هو تجميع أكبر قدر من الخبرات لضمان وصول دائرة الآثار إلى غايتها المرجوة .

المحافظة على الآثار :

جاء في المادة (6) من النظام : تتولى دائرة الآثار بالتعاون مع الأجهزة الأخرى في الدولة – كل في اختصاصه – المحافظة على الآثار والمواقع الأثرية كما تتولى تقرير أثرية الأشياء والمباني التاريخية والمواقع وما يجب تسجيله من آثار ويعني تسجيل أثر ما إقرار الدولة بأهميته التاريخية أو الفنية وعملها على صيانته ودراسته وإظهاره بالمظهر اللائق وفقاً لأحكام هذا النظام .

* * *

المساجد وأماكن العبادة من أهم الآثار

---

[29] أنظر المذكرة الخاصة بنظام الآثار الصادرة عن وزارة المالية والاقتصاد الوطني سنة 1399 .

وجاء في المادة (7) : الآثار نوعان : آثار ثابتة وآثار منقولة :

(أ) الآثار الثابتة هي الآثار المتصلة بالأرض مثل الكهوف الطبيعية أو المحفورة التي كانت مخصصة لحاجات الإنسان القديم ، والصخور التي رسم أو حفر عليها الإنسان صوراً أو نقوشاً أو كتابات وكذلك أطلال المدن والمنشآت المطمورة في بطون التلال المتراكمة والأبنية التاريخية المنشأة لغايات مختلفة كالمساجد وأماكن العبادة الأخرى والقصور والبيوت في المشافي والقلاع والحصون والأسوار والملاعب والحمامات والمدافن والقنوات المشيدة والسدود وأطلال تلك المباني وما تصل بها كالأبواب والنوافذ والأعمدة والشرفات والسلالم والسقوف والأفاريز والتيجان وما شابه ذلك .

(ب) الآثار المنقولة هي التي صنعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الأرض أو عن المباني التاريخية والتي يمكن تغيير مكانها كالمنحوتات والمسكوكات والمنقوش والمخطوطات والمنسوجات والمصنوعات مهما كانت مادتها والغرض من صنعها ووجوه استعمالها .

الآثار ومشاريع الهدم والتخطيط :

جاء في النظام : التحذير من تغيير الآثار سواء من الأهالي أم من تخطيط المدن تقول المادة (11) : يحظر اتلاف الآثار المنقولة أو الثابتة أو تحويرها أو إلحاق الضرر بها أو تشويهها بالكتابة والنقش عليها أو تغيير معالمهما كما يحظر على الأهالي إلصاق الإعلانات أو وضع اللافتات في المناطق الأثرية وعلى الأبنية التاريخية المسجلة .

وتقول المادة (12) : يتعين عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها المحافظة على المناطق والمعالم الأثرية فيها ، ولا يجوز إقرار مشروعات التخطيط التي يوجد في نطاقها آثار ،

إلا بعد اخذ موافقة دائرة الآثار عليها ، وعلى دائرة الآثار تحديد الأماكن التي يوجد فيها معالم أثرية وإحاطة جهاز تخطيط المدن علماً بذلك .

ومعلوم أن الآثار التي نص النظام على أن منها المساجد وأماكن العبادة تشمل بالدرجة الأولى الآثار الدينية المنسوبة إلى النبي ρ أو أصحابه الكرام بل هذه هي الآثار التي تستحق التكريم والتقديم ، وهي التي يفخر بها المؤمن ويعتز ، وهي التي تذكر الأبناء بالآباء والخلف بالسلف .

الحجرة النبوية والمسجد الشريف

وقد أراد بعض المفتنين تغيير وضع الحجرة النبوية بإخراج القبر الشريف المكرم من المسجد ، فلما سمع بذلك المرحوم الملك خالد بن عبد العزيز غضب غضباً شديداً وثارت فيه الحمية الدينية وتكلم كلاماً رادعاً لصاحب ذلك الاقتراح الأثيم سمعه من كان حاضراً في المجلس ولعل بعضهم لا زال على قيد الحياة ، رحم الله ذلك الملك الصالح وجعل موقفه هذا ذخيرة له عند الله ويداً بيضاء عند رسوله سيدنا محمد ρ ينال به إن شاء الله شفاعته يوم القيامة .

وبارك في خليفته الملك فهد ونصر به الدين وحفظ به الديار والآثار والعباد والبلاد آمين يا رب العالمين .

* * *

فتوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شأن الحجرة النبوية

وقد نسب بعض أهل الفتنة والسوء إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب القول بإخراج الحجرة النبوية من المسجد ، فأنكر ذلك وتبرأ منه ، ومن قائله كما جاء في رسالته لأهل المجمعة التي يقول فيها : إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها منها : ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله : إني مبطل كتب المذاهب ، وقوله : إني أقول : إن الناس من ستمائة

سنة ليسوا على شيء ، وقوله : إني أدّعي الاجتهاد ، وقوله : إني خارج عن التقليد ، وقوله : إني أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وقوله : إني أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إني أكفر البوصيري لقوله : ياأكرم الخلق ، وقوله : إني أقول : لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب ، وقوله : إني أنكر زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله : إني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهم ، وإني أكفر من يحلف بغير الله ، فهذه اثنتا عشرة مسألة ، جوابي فيها أن أقول : { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } . انتهى من الرسائل الشخصية القسم الخامس ص63 ، والدرر السنية ج1 ص52 .

القبة الخضراء في رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب

أما القبة الخضراء فقد نسب بعضهم إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب القول بإزالتها وهدمها ، ولكن الشيخ رحمه الله نفى ذلك بكل قوة وتبرأ منه واستنكر هذا القول أشد الإنكار في عدة مواضع من رسائله الموضع الأول في رسالته لأهل القصيم التي يقول فيها :

فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي والله على ما نقول وكيل .

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم ، والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أموراً لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي .

((فمنها)) قوله : إني مبطل كتب المذاهب الأربعة ، وإني أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء ، وإني أدعي الاجتهاد ، وإني خارج عن التقليد ، وإني أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وإني أكفر من

توسل بالصالحين ، وإني أكفر البوصيري لقوله : يا أكرم الخلق ، وإني أقول : لو أقدر على هدم قبة رسول الله ρ لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب ، وإني أحرم زيارة قبر النبي ρ ، وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما ، وإني أكفر من حلف بغير الله ، وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي ، وإني أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين ، وأسميه روض الشياطين ، جوابي عن هذه المسائل أن أقول : { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } .

[مجموعة مؤلفات الشيخ القسم الخامس الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ص12 ، وهو في الدرر السنية الجزء الأول ص28] .

الموضع الثاني في رسالته إلى أهل العراق وهي رسالة أرسلها إلى السويدي عالم من أهل العراق وكان قد أرسل له كتاباً وسأله عما يقوله الناس فيه ، فأجابه بهذه الرسالة ، وفيها يقول في رد ما نسب إليه وتكذيبه منها : إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلاً عن أن يفتريه ومنها ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني ، وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة ، ويا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون ، وكذلك قولهم : إنه يقول : لو أقدر أهدم قبة النبي ρ لهدمتها ، وأما [دلائل الخيرات] فله سبب وذلك أني أشرت على من قبل نصيحتي من إخواني أن لا يصير في قلبه أجلّ من كتاب الله ويظن أن القراءة فيه أجلّ من قراءة القرآن ، وأما إحراقه والنهي عن الصّلاة على النبي ρ بأي لفظ كان فهذا بهتان .

[مجموعة مؤلفات الشيخ القسم الخامس في الرسائل الشخصية ص37 ، الرسالة الخامسة وهو في الدّرر السنية الجزء الأول ص54] .

هذا الموقف من الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو عين الحكمة والصوّاب ، وهو السّياسة الشرعية التي يجب أن يتحلّى بها العلماء والمرشدون والمشائخ في أمرهم ونهيهم ووعظهم وإرشادهم .

وقد كان الشيخ رحمه الله حريصاً كل الحرص على نفي زعم المفترين وردّ قول المفتنين الذين ألصقوا به هذا القول الشنيع ونسبوا إليه ذلك الرأي الفظيع فتراه أنكرها في عدة مواطن لخطر المسالة ولما ينبني عليها من السوء والفتنة والشر الذي يجرّ إلى مصائب وبلايا ، نحن عنها في غنى فأين هذا ممّن ضاقت العلوم في عينيه ولم يجد مسألة يكتب عنها أو بحثاً يقدمه إلا قضية القبّة الخضراء ، فما أتفه عقلاً هذا منتهاه ، وما أسفه علماً ذلك مؤداه .

ولنا بحث خاص عن هذا الموضوع نسأل الله أن ييسر إتمامه ونشره بعونه وفضله .

المحافظة على الآثار النبوية من رسالة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز

وهنا موقف عظيم يستحق التسجيل للأمانة والتاريخ وهو أن جلالة الملك فهد بن عبد العزيز لما اطلع على المخططات المرسومة لبناء توسعة مسجد قباء ورأى أن معالم المسجد الحالي القديمة ستزول داخل التوسعة الجديدة ، أمر جلالته حفظه الله بإلغاء المخطط الموضوع وإعداد مخطط جديد يبقي على المنبر والمحراب والمعالم القديمة ، بحيث تمتد التوسعة من جانبي المسجد ومن خلفه ليتعرف المسلمون جيلاً بعد جيل على الأماكن الأصلية والآثار النبوية الشريفة ، وقال جلالته : من الخير أن نزيد في مساجد الله ولا نزيل .

وكان لهذه اللفتة السامية الكريمة من جلالته أعمق الأثر في نفوسنا بما فيها من دلالة الحفاظ على معالم التراث الإسلامي وتخليده .

وقد نشرت الجرائد السعودية بالتفصيل هذه المقابلة والحديث في الأعداد الصادرة يوم السبت 17 صفر 1405هـ مثل جريدة ((المدينة)) و ((الندوة)) .

* * *

مفهوم الاجتماع

جرت عادتنا أن نجتمع لإحياء جملة من المناسبات التاريخية كالمولد النبوي وذكرى الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان والهجرة النبوية وذكرى نزول القرآن وذكرى غزوة بدر ، وفي اعتبارنا أن هذا الأمر عادي لا صلة له بالدين فلا يوصف بأنه مشروع أو سنة كما أنه ليس معارضاً لأصل من أصول الدين لأن الخطر هو في اعتقاد مشروعية شيء ليس بمشروع ، وعندي أن أمثال هذه الأمور العادية العرفية لا يقال فيها أكثر من أنها محبوبة للشارع أو مبغوضة وأظن أن هذا القدر متفق عليه ، ويدعي البعض أن هذه المناسبات التي يجتمع الناس لإحيائها ينقصها التوقيت المضبوط المتفق عليه ، فيقول : إن الناس تعودوا أن يجتمعوا ليلة السابع والعشرين لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج ، وأن يجتمعوا ليلة الاثني عشر من ربيع الأول لإحياء ذكرى المولد النبوي مع أن العلماء اختلفوا في تعيين وقت هاتين الحادثتين

بالضبط ، وأنا أقول : إن عدم الاتفاق على تعيين الوقت لا يؤثر لأننا لا نعتقد مشروعية تحديد الاجتماع بوقت مخصوص بل الأمر عادي كما أسلفنا والذي يهمنا هو اغتنام فرصة الاجتماع وكسب ذلك لتوجيهه إلى الخير فهذه الليلة قد اجتمع الناس فيها بشكل فظيع وعظيم وسواء أخطأوا التوقيت أم أصابوا ، فإن مجرد اجتماعهم هذا على ذكر الله ومحبة رسول الله كاف في استجلاب رحمة الله وفضله .

إني أعتقد تمام الاعتقاد أن اجتماع هؤلاء الناس ما دام أنه لله وفي الله فإنه مقبول عند الله ولو أخطأوا في التوقيت ، وأضرب لذلك مثلاً لتقريب القضية للأذهان برجل دعا إلى وليمة في يوم معين فجاء بعض المدعوين في غير وقت الدعوة ظناً منهم أنه هو الوقت فهل ترى أن صاحب الوليمة يطردهم ويردهم بجفوة وغلظة ويصد عنهم ويقول لهم : ارجعوا وانصرفوا عني فليس هذا هو وقت الوليمة الذي دعوتكم إليه وحددته لكم ، أو ترى أنه يقابلهم بالحسنى ويشكرهم على قدومهم ويفتح لهم بابه ويطلب منهم الدخول ثم يطلب منهم الرجوع مرة أخرى في الوقت المحدد ؟ هذا الذي أتصوره وهو اللائق بفضل الله وكرمه .

ونحن إذا اجتمعنا للإسراء والمعراج أو للمولد النبوي ولأي ذكرى من الذكريات التاريخية لا يهمنا تعيين الوقت بالضبط لأنه إن كان موافقاً للصواب في الواقع ونفس الأمر فالحمد لله ، وإن كان غير ذلك فإن الله لا يردنا ولا يغلق بابه عنا .

فاغتنام فرصة الاجتماع بالدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى والتعرض لنفحاته وخيراته وبركاته هو أجل من فائدة الذكرى نفسها عندي ، واغتنام اجتماع الناس بتذكيرهم وإرشادهم ونصحهم وتوجيههم إلى الخير هو أولى من صدهم وردهم والإنكار على اجتماعهم بما لا طائل تحته إذ المشاهد أن ذلك لا ينفع ولا يفيد وأن الناس يزيد إقبالهم

ويعم تمسكهم كلما زاد الإنكار عليهم أو اشتد حتى كان الناهي لهم عن ذلك آمر لهم بفعله من حيث لا يشعر .

إن العقلاء من أرباب الفكر والدعوة يتمنون بكل قلوبهم أن يجدوا مكاناً يجتمع فيه الناس ليبثوا فيهم آراءهم ويكسبوهم إلى صفهم ، ولذلك تراهم يرتادون الحدائق والنوادي والأماكن العامة التي يكثر فيها اجتماع الناس ليصنعوا بهم ما يريدون ، ونحن نرى الأمة تجتمع في مناسبات متعددة برغبة وهمة وحرص فما هو الواجب علينا نحوهم ؟ .

إن الاشتغال بالإنكار والأخذ والرد في حكم اجتماعهم وما إلى ذلك هو عبث بل وحمق وجهالة لأننا نضيع كنزاً عظيماً ونفوت فرصة لا يمكن أن يجود الزمان بها إلا في مثل هذه المناسبات .

فلنغتنم هذه المجامع الكبرى .

* * *

مفهوم المولد النبوي

يخطئ كثير من الناس في فهمهم لحقيقة المولد النبوي الذي ندعو إليه ونشجع عليه فيتصورون تصورات فاسدة يبنون عليها مسائل طويلة ومناقشات عريضة يضيعون بها أوقاتهم وأوقات القراء وهي كلها هباء لأنها مبنية على تصورات كما قلنا فاسدة .

وقد كتبنا عن المولد النبوي كثيراً وتحدثنا عنه في الإذاعة والمجامع العامة مراراً بما يظهر معه وضوح مفهومنا عن المولد الشريف .

إننا نقول وقد قلنا من قبل : إن الاجتماع لأجل المولد النبوي الشريف ما هو إلا أمر عادي وليس من العبادة في شيء وهذا ما نعتقده وندين الله تعالى به .

وليتصور من شاء ما يتصور لأن الإنسان هو المصدق فيما يقوله عن نفسه وحقيقة معتقده لا غيره .

ونحن نقول في كل محفل ومجمع ومناسبة : إن هذا الاجتماع بهذه الكيفية أمر عادي ليس من العبادة في شيء فهل يبقى بعد هذا إنكار لمنكر واعتراض لمعترض لكن المصيبة الكبرى في عدم الفهم ولهذا يقول الإمام الشافعي :

ما جادلت عالماً إلا غلبته ولا جادلت جاهلاً إلا غلبني . إن أقل الطلاب علماً يعلم الفرق بين العادة والعبادة وحقيقة هذه وتلك فإذا قال القائل : هذه عبادة مشروعة بكيفيتها نقول له : أين الدليل ؟ وإذا قال : هذه عادة نقول له : إصنع ما تشاء لأن الخطر كل الخطر والبلاء الذي نخشاه كلنا هو أن يلبس ثوب العبادة لفعل مبتدع غير مشرع بل من اجتهاد البشر ، وهذا ما لا نرضاه بل نحاربه ونحذر منه ، والحاصل أن الاجتماع لأجل المولد النبوي أمر عادي ولكنه من العادات الخيرة الصالحة التي تشتمل على منافع كثيرة وفوائد تعود على الناس بفضل وفير لأنها مطلوبة شرعاً بأفرادها ، ومن التصورات الفاسدة التي تقع في أذهان بعض الناس هي أنهم يظنون أننا ندعو إلى الاحتفال بالمولد في ليلة مخصوصة دون سائر العام وما درى هذا المغفل أن الاجتماعات تعقد لأجل المولد النبوي في مكة والمدينة بشكل منقطع النظير في كل

أيام العام وفي كل مناسبة تحدث يفرح بها صاحبها ولا يكاد يمر يوم أو ليلة بمكة والمدينة إلا ويحصل فيه اجتماع للمولد النبوي علم هذا من علمه وجهله من جهله ، فمن زعم أننا نذكر النبي ρ في ليلة واحدة فقط ونهجره ونغفل عنه ثلاثمائة وتسعة وخمسين ليلة فقد افترى إثماً عظيماً وكذب كذباً مبيناً ، وهذه مجالس المولد النبوي تنعقد بفضل الله تعالى في جميع ليالي السنة ولا يكاد يمر يوم أو ليلة إلا وهنا مجلس وهناك محفل ، ونحن ننادي بأن تخصيص الاجتماع بليلة واحدة دون غيرها هو الجفوة الكبرى للرسول ρ ، ولذلك فإن الناس بحمد الله يستجيبون لهذا النداء بكل إقبال ورغبة .

ومن زعم بأننا نخصص الاحتفال به ρ في المدينة المنورة فهو جاهل أو متجاهل عن الحقيقة ، وما لنا إلا أن ندعو الله له بأن ينور بصيرته ويكشف عنه حجاب الجهل ليرى أن ذلك ليس خاصاً بالمدينة المنورة ولا بليلة مخصوصة في شهر مخصوص ، بل هو عام في الزمان والمكان .

وليس يصح في الأذهان شيء :: إذا احتاج النهار إلى دليل

والحاصل أننا لا نقول بسنية الاحتفال بالمولد المذكور في ليلة مخصوصة بل من اعتقد ذلك فقد ابتدع في الدين لأن ذكره ρ والتعلق به يجب أن يكون في كل حين ويجب أن تملأ به النفوس ، فنعم : إن في شهر ولادته يكون الداعي أقوى لإقبال لإقبال الناس واجتماعهم وشعورهم الفياض بارتباط الزمان بعضه ببعض، فيتذكرون بالحاضر الماضي وينتقلون من الشاهد إلى الغائب .

وإن هذه الاجتماعات ، هي وسيلة كبرى للدعوة إلى الله وهي فرصة ذهبية ينبغي أن لا تفوت ، بل يجب على الدعاة والعلماء أن يذكروا الأمة بالنبي ρ بأخلاقه وآدابه وأحواله وسيرته ومعاملته وعباداته ، وأن

ينصحوهم ويرشدوهم إلى الخير والفلاح ويحذروهم من البلاء والبدع والشر والفتن .

وإننا دائماً بفضل الله ندعو إلى ذلك ونشارك في ذلك ونقول للناس : ليس المقصود من هذه الاجتماعات مجرد الاجتماعات والمظاهر بل إن هذه وسيلة شريفة إلى غاية شريفة وهي كذا وكذا ومن لم يستفد شيئاً لدينه فهو محروم من خيرات المولد الشريف ، ولا نحب أن نطيل بذكر الأدلة والمسوغات التي استنبطناها في هذا الموضوع ، إذ لنا رسالة خاصة لذلك بعنوان : حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، غير أننا سنخص قصة عتق ثويبة بالذكر لكثرة الكلام حولها :

*** * ***

قصة عتق ثويبة

يذكر العلماء في كتب الحديث والسيرة قصة عتق أبي لهب لجاريته ثويبة لما أخبرته بولادة النبي ρ وأن العباس بن عبد المطلب رأى أبا لهب في النوم بعد وفاته فسأله عن حاله فقال : لم ألق خيراً بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة وإنه ليخفف عليَّ في كل يوم الاثنين .

قلت : هذا الخبر رواه جملة من أئمة الحديث والسير مثل الإمام عبد الرزاق الصنعاني والإمام البخاري والحافظ ابن حجر والحافظ ابن كثير والحافظ البيهقي وابن هشام والسهيلي والحافظ البغوي وابن الديبع والأشخر والعامري ، وسأبين ذلك بالتفصيل .

فأما الإمام عبد الرزاق الصنعاني فقد رواه في المصنف (ج7 ص478) ، وأما الإمام البخاري فقد رواه في صحيحه بإسناده إلى عروة بن الزبير مرسلاً في كتاب النكاح باب { وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ } ، وأما ابن حجر فقد ذكره في الفتح وقال : إنه رواه الاسماعيلي من طريق

الـذهلي عـن أبـي اليمـان ، ورواه عبـد الـرزاق عـن معمـر وقـال : وفـي الحديث دلالـة علـى أن الكـافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخـرة ، لكنـه مخالف لظاهر القرآن ، قال الله تعالى : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً } ، وأجيب أولاً بأن الخبر مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حدثه به ، وعلى تقدير أن يكون موصولاً فالذي فـي الخبـر رؤيا منام فلا حجة فيه ، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج بـه ، وسلم مخصوصاً من ذلك دليل قصة أبـي طالب كما تقدم أنـه خفف عنـه فنقل مـن الغمـرات إلـى الضحضاح ، وقـال البيهقـي : مـا ورد مـن بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنـة ، ويجـوز أن يخفف عنـهم مـن العذاب الـذي يستوجبونـه علـى مـا ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات .

وأما عياض فقال : انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ، وإن كان بعضهم أشد عذاباً من بعض . قلت : وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي ، فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر ، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه ؟ وقال القرطبي : هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه ، وقال ابن المنير في الحاشية : هنا قضيتان : إحداهما محال وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره ، لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح ، وهذا مفقود من الكافر .

الثانية : إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلاً من الله تعالى وهذا لا يحيله العقل ، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربـة معتبرة ، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبـي طالب ، والمتبع في ذلك التوقيف نفياً وإثباتاً .

قلت : وتتمة هذا أن يقع التفضيل المذكور إكراماً لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك . والله أعلم . اهـ (فتح الباري ج9 ص145) .

وأما الحافظ ابن كثير فقد رواه في البداية والنهاية ، وقال معلقاً : لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته ، فجوزي بذلك لذلك . اهـ من السيرة النبوية لابن كثير (ج1 ص224) .

وأما الحافظ عبد الرحمن بن الديبع الشيباني صاحب جامع الأصول فقد رواه في سيرته وقال معلقاً : ((قلت : فتخفيف العذاب عنه إنما هو كرامة للنبي ρ كما خفف عن أبي طالب لا لأجل العتق ، لقوله تعالى : { وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } . اهـ من حدائق الأنوار في السيرة (ج1 ص134) .

وأما الحافظ البغوي فقد رواه في شرح السنة (ج9 ص76) .

وأما الإمام الأشخر فقد رواه في بهجة المحافل ، وقال شارحه العامري : قيل : هذا خاص به إكراماً له ρ كما خفف عن أبي طالب بسببه ، وقيل : لا مانع من تخفيف العذاب عن كل كافر عمل خيراً . اهـ من شرح البهجة (ج1 ص41) .

وأما السهيلي فقد رواه في الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام وقال بعد نقل الخبر : فنفعه ذلك وهو في النار كما نفع أخاه أبا طالب ذبه عن رسول الله ρ فهو أهون أهل النار عذاباً ، وقد تقدم في باب أبي طالب أن هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب ، وإلا فعمل الكافر كله محبط بلا خلاف أي : لا يجده في ميزانه ولا يدخل به جنة . اهـ الروض الأنف (ج5 ص192) .

* * *

حاصل البحث

والحاصل أن هذه القصة مشهورة في كتب الأحاديث وفي كتب السير ، ونقلها حفاظ معتبرون معتمدون ، ويكفي في توثيقها كون البخاري نقلها في صحيحه المتفق على جلالته ومكانته ، وكل ما فيه من المسند صحيح بلا كلام .

حتى المعلقات والمرسلات فإنها لا تخرج عن دائرة المقبول ولا تصل إلى المردود وهذا يعرفه أهل العلم المشتغلون بالحديث والمصطلح والذين يعرفون معنى المعلق والمرسل ويعرفون حكمها إذا جاءت في الصحيح .

فانظر إن شئت ذلك في كتب المصطلح كألفية السيوطي والعراقي وشروحها وتدريب الراوي فإنهم تعرضوا لهذه المسألة وبينوا قيمة ما في الصحيح من المعلق والمرسل وأن ذلك مقبول عند المحققين .

ثم إن هذه المسألة من المناقب والفضائل والكرامات التي يذكرها العلماء في كتب الخصائص والسير ويتساهلون في نقلها ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه ، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ لما أمكن لنا ذكر شيء من سيرة النبي ρ قبل البعثة وبعد البعثة مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول ، والذين منهم عرفنا ما يجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف نجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل وما أخذ عن الكهان وأشباههم في خصائص رسول الله ρ لأن ذلك مما يجوز ذكره في هذا المقام .

أما قول من قال : إن هذا الخبر يعارض قوله تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً } فهذا قول مردود بما قاله العلماء ونقلناه عنهم سابقاً .

وتحرير الكلام في هذا المقام هو أن الآية تدل على أن أعمال الكفار لا ينظر إليها وليس فيها أنهم سواء في العذاب ، وأنه لا يخفف عن بعضهم العذاب كما هو مقرر عند العلماء .

وكذلك الإجماع الذي حكاه عياض ، فإنه في عموم الكفار وليس فيه أن الله تعالى لا يخفف العذاب عن بعضهم لأجل عمل عملوه ولهذا جعل الله تعالى جهنم دركات ، والمنافقون في الدرك الأسفل منها .

ثم إن هذا الإجماع يرده النص الصحيح ، ولا يصح إجماع مع مخالفة النص كما هو معلوم للطلبة .

وذلك إنه ثبت في الصحيح أن رسول الله ε سئل: هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويدافع عنك ؟ فقال : وجدته في غمرات من النار ، فأخرجته إلى ضحضاح منها ، الحديث .

فها هو أبو طالب قد نفعه دفاعه عن النبي ε وأخرجه النبي ε من أجل ذلك من غمرات النار إلى ضحضاح منها .

فالتخفيف عن أبي لهب من هذا الباب أيضا لا منكر فيه ، والحديث يدل على أن الآية المذكورة فيمن لم يكن لهم عمل يوجب التخفيف . وكذلك الإجماع.

وفي حديث أبي طالب المذكور دلالة وأي دلالة على أن النبي ε يتصرف الآن وقبل يوم القيامة في أمور الآخرة ويشفع لمن تعلق به ودافع عنه .

وأما قول من قال : إن هذا الخبر رؤيا منام لا يثبت بها حكم ، فإن هذا القائل ـ هداه الله للصواب ـ لا يفرق بين الأحكام الشرعية وغيرها .

أما الأحكام الشرعية فإن الخلاف واقع بين الفقهاء : هل يجوز أخذ الأحكام وتصحيح الأخبار برؤيا رسول الله ε في المنام أم لا ؟ .

وأما غيرها فإن الاعتماد على الرؤيا في هذا الباب لا شيء فيه مطلقاً . وقد اعتمد عليها الحفاظ وذكروا ما جاء في رؤيا أهل الجاهلية قبل بعثة رسول الله ε المنذرة بظهوره ، وأنه سيقضي على الشرك وما هم عليه من فساد . وكتب السنة مملوءة بهذا .

وفي مقدمتها كتاب دلائل النبوة وعدوها من الإرهاصات التي لا مانع من الاستدلال في شأنها بالرؤيا ، ولولا ذلك لما ذكروها .

فقول القائل في شأن رؤيا العباس : إنها ليست بحجة ولا يثبت بها حكم ولا خبر ، خروج عن عمل الأئمة من الحفاظ وغيرهم ، والمراد به التهويل لا غير ، وما هكذا يكون شان الباحث عن الحق والأمر لله .

وأما من قال : إن الرائي والمخبر هو العباس في حال الكفر ، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم فإن هذا قول مردود ، لا رائحة للعلم فيه ، وهو باطل ، ذلك لأنه لم يقل أحد أن الرؤيا من باب الشهادة مطلقاً ، وإنما هي بشارة لا غير فلا يشترط فيها دين ولا إيمان ، بل ذكر الله تعالى في القرآن معجزة يوسف عليه السلام عن رؤيا ملك مصر وهو وثني لا يعرف ديناً سماوياً مطلقاً ، ومع ذلك جعل الله تعالى رؤيته المنامية من دلائل نبوة يوسف عليه السلام وفضله وقرنها بقصته ، ولو كان ذلك لا يدل على شيء لما ذكرها الله تعالى لأنها رؤيا مشرك وثني لا فائدة فيها لا في التأييد ولا في الإنكار .

ولهذا ذكر العلماء أن الكافر يرى الله تعالى في المنام ويرى في ذلك ما فيه إنذار له وتوبيخ وتقريع .

والعجب كل العجب من قول القائل : إن العباس رأى ذلك في حال كفره ، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم ، فإن هذا القول يدل على عدم المعرفة بعلم الحديث إذ المقرر في المصطلح أن الصحابي أو غيره إذا تحمل الحديث في حال كفره ثم روى ذلك بعد إسلامه أخذ ذلك عنه ، وعمل به .

وانظر أمثلة ذلك في كتب المصطلح لتعرف بعد صاحب هذا القول عن العلم . وإنما الهوى هو الذي حمل المعترض على الدخول فيما لا يتقنه .

* * *

الخاتمــة

وبعد فهذا ما تيسر لنا كتابته عن هذه المسائل التي أحببنا أن نبين مفهومنا الذي نراه فيها .

فإن كان ذلك صواباً فالحمد لله ، وإن كان غير ذلك فإنني بشر أصيب وأخطئ ، وكل منا يؤخذ منه ويرد عليه إلا السيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . وأعوذ بالله من المراء والجدال والخصام ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ، وأعوذ بالله من كل سوء وشر وبلاء وشرك وبدعة ، وأبرأ مما تبرأ منه رسول الله ρ ، وأقر بما أقر به .

وأسأل الله أن يثبتني عليه حتى أموت عليه مسلماً موحداً مؤمناً بالله في بلاد الله وبين المؤمنين الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله محمد رسول الله منذ أن جاء بها محمد بن عبد الله ρ ، وسار على ذلك أصحابه وأتباعه وأتباعهم من أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، في ظل أئمة التوحيد ودعاة الخير من حكامنا الأماجد وفقهم الله لنصرة الحق وأخذ بأيديهم إلى خير البلاد والعباد ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتب ذلك بقلمه وقاله بفمه محمد بن علوي بن عباس المالكي مذهباً ، السلفي عقيدة المكي موطناً ، الحسني نسباً عفا الله عنه ، خادم العلم بالحرمين الشريفين . تحريراً بمكة المكرمة في ربيع أول سنة 1404 من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

تم بحمد الله تعالى ..

محتوى الكتـاب

الموضــــوع

الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة